اثنتا عشرة صرخة من الوطن

بحثًا عن السريلانكيين المختفين

ميتولي سالغادو

ترجمة: محمد أ. جمال

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

اثنتا عشرة صرخة من الوطن

بحثًا عن السريلانكيين المختفين

مينولي سالغادو

ترجمة محمد أ. جمال

الكاتب: مينولي سالغادو

عنوان الكتاب: اثنتا عشرة صرخة من الوطن: بحثًا عن السريلانكيين المختفين

ترجمة: محمد أ. جمال

X

العنوان باللغة الأصلية: **Twelve Cries from Home**

الكاتب: **Minoli salgado**

X

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقامي

X

ر.د.م.ك: 978-9921-775-26-6

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022

2000 نسخة

X

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

Twelve Cries from Home

all rights reserved

Copyright© Minoli salgado 2022

X

منشورات تكوين

TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

مقدمة

جمع الشهادات من الناجين من العنف عملية شاقة. عادة ما يكون الصمت أول وأصدق استجابة للعنف. أدركت مدى صحة هذا من خلال عملي مع النساء والأطفال عبر العالم. مينو لي سالغادو أكاديمية التدريب وكاتبة وعائدة إلى الوطن، وفوق كل شيء هي مستمعة شديدة الحساسية، نجحت في تجاوز الصمت الذي واجهها مع الضحايا الناجين الاثنا عشر من سريلانكا، الذين شكلت قصصهم هذا الكتاب.

اثنتا عشرة صرخة من الوطن هو كتاب أدب رحلات من شاهد أدبي، وهو أول كتاب يجمع شهادات الناجين من مختلف أنحاء الجزيرة عقب الحرب الأهلية، يأخذنا إلى عالم من الخوف والرعب تتخلله رحلة الكاتبة عبر التضاريس السريلانكية الاستثنائية، ورحابة التنوع فيها عندما يُترك في حاله. ستشعر بالجمال والتنوع السريلانكي تحت جلدك، كما ستشعر بصلة عميقة مع معاناة أولئك الذين اختفى من عائلاتهم بعض أفرادها، مع البحث اللانهائي، الانتظار اللانهائي، التوسل اللانهائي، دفع الرِّشا اللانهائي، الذهاب إلى معسكرات ومراكز الشرطة اللانهائي، أيام المحاكم التي لا تنتهي، وحكي قصصهم مرارًا وتكرارًا، والتوسلات أو النداءات التي تنتهي بقول: «هل رأيت ابني؟» سيوصلك السرد البديع إلى الفهم، وسيجبرك على التأمل والتدبر في الأفكار الكامنة في كل قصة.

يقدم هذا الكتاب أفرادًا واجهوا وشهدوا أشكال عنف مختلفة، علقوا بين أطراف تستخدم أشكال يائسة من الإرهاب. المدنيون ضحايا ناجون. نرى العنف الصريح في عمليات تعذيب لا يمكن تحملها تجعلك تتكور حول نفسك متسائلًا عن شكل الساعات الأخيرة للشخص المُعذب. يوجد قتل، سواء عن طريق الاستهداف أو عبر التواجد بين نيران المتقاتلين. يوجد عنف جنسي، تقر بوجوده المؤلفة لكنها تتجاوز ذكره صراحة احترامًا لحاجة المتحدثين للخصوصية. يوجد قصف جوي ومدفعي يجعل السكان يتناثرون. ويوجد نزوح قسري، عندما تُرغم مجتمعات كاملة على ترك كل ما هو عزيز عليها خلفها.

حساسية المؤلفة لاحتمال إصابتها الشهود بالصدمة[1] مجددًا، ووعيها بالتأثير المدمر لهذه القصص على مترجمتها، وإدراكها الحاد بخطورة وأهمية دورها كناقلة الشهادة، كلها أشياء محورية في كتابة هذا الكتاب. يوضح هذا الكتاب بجلاء أن الحكي نادرًا ما يكون خطيًّا أو مرتبًا زمنيًّا، بل إنه في بعض الأحيان «جامح وثائر»، والكاتبة، كشاهدة متنقلة، تلفت الانتباه إلى ما تسميه «المركز الهائم للمعنى» للحكايات التي تفقد التركيز وتهيم. إنها تترك شهودها، الذين تشكل شهاداتهم هذا الكتاب، يتحدثون بكلماتهم الخاصة، لكن الكتاب يصل إلينا بوضوح عبر صوتها هي، بعدما أنصتت وفككت المهم مما هو غير ذلك. النتيجة أصبحت كتابًا عميق الحساسية والتأثير يمنحك فهمًا أصيلًا للألم الحقيقي.

اثنتا عشرة صرخة من الوطن يأتي بلا شك من دافع إنساني يوفر نقطة ارتكاز أخلاقية في نطاق تصول فيه وتجول أكثر الغرائز قتامة بحرية. الحديث عن حقوق الإنسان بمساراته المعينة واعتراضه على المظالم، يفسح المجال لحكايات الناجين التي تركز على «المشاعر الإنسانية والتقلبات الحياتية».

الحكايات المُجمعة هنا هي حكايات نوعية، تقبض على تشوش التصنيفات وضبابية قناعاتنا. ليس هذا الكتاب تأملات عقلية، بل رؤى ناجمة عن المواجهة، ويسعى لأخذ الناجي من العنف -والقارئ - إلى مستوى آخر: تذكرنا كل قصة بالطبيعة المشروطة لحياة كل منا.

قد يشعر العديد من السريلانكيين بأن مجتمعاتهم ممثلة أكثر أو أقل من اللازم هنا، لكن هذا الكتاب لا يمتلئ بخيالات سياسية، لا تحاول المؤلفة أن تقدم حكمًا بأن أحد أشكال العنف أسوأ من الآخر، أو أن عنف الدولة يتطلب التفكير فيه بشكل مختلف ما. الأصل العرقي في هذا الكتاب ليس مهمًّا إلا كخلفية. لا مجال هنا للتحيز، القاسم المشترك الذي يربط بين القصص هو المعاناة الإنسانية. تعاطف المؤلفة وإحساسها العميق هما المرشد والدليل لخوض الكتاب.

يدرك المرء أن العدالة بالنسبة إلى العديدين لا تتعلق بحكم القانون، فبالنسبة إلى البعض العدالة شخصية جدًّا، إن لم تكن باطنية، احتياج عميق إلى ضرب أولئك الذين آذوهم

وعدم إظهار أي شكل من الرحمة.

بالنسبة إلى آخرين مثل محمد ريفايدين، الذي يفتتح الكتاب بقصته، الآن هو وقت التجاوز والعلاج والاعتناء بالجروح. تُظهر مينو لي سالغادو أن العفو يأتي أحيانًا بطرق معقدة، عبر إنسانية عميقة عندما يبني الزمن الروابط بين الجاني وأسرة الضحية، أو كوسيلة النجاة الوحيدة المتاحة لأسرة الضحية نتيجة لحصانة الجناة. المؤلفة، كشاهدة أدبية، تقبض على ذلك المشهد العسير حيث يمتزج العفو بالمرارة.

من ناحية، يمكن قراءة هذا الكتاب كتاريخٍ للاغتراب وعدم الانتماء، ومن ناحية أخرى يمكن قراءته ككتابٍ للتمني، بأمل أن إعادة حكي تاريخ المعاناة المشترك سيؤدي إلى الإقرار والاعتراف والتعافي.

شيء واحد أكيد: بينما يجذب هذا الكتاب الانتباه إلى الحقائق الأولية لعواقب العنف السياسي، فإن تركيزه الشديد غير المتزعزع على خبرات المدنيين الناجين من شتى أنحاء الجزيرة يعدّ مساهمة مهمة في فهمنا للحرب الأهلية السريلانكية الطويلة الوحشية.

رادهيكا كوماراسوامي

وكيل الأمين العام للأمم المتحدة السابق

والممثل الخاص للأطفال والصراع المسلح

(1) كلمة (صدمة) هنا، وفي أغلب مرات ورودها في الكتاب لاحقًا، ترجمة لكلمة (Trauma)، والتي تعني في الطب النفسي والأدبيات الشائعة (الأثر النفسي السلبي المستمر الناتج من التعرض لحادث مؤلم). [المترجم]

اثنتا عشرة صرخة من الوطن

بحثًا عن السريلانكيين المختفين

صرخت، ولم يسمع أحد

صرخة

مقاطعة أكوريسا، ١٠ مارس ٢٠٠٩، ذكرى المولد النبوي، الساعة على معصمه أعلنت الوقت ١٠:٣٢.

احتشد مئات المتفرجين على جانبي مسار الموكب، الذي تقوده فرقة منشدة راقصة يتمايل أفرادها بالأردية البيضاء وينشدون في مديح النبي، ويتقدم الموكب ببطء شديد إلى درجة أن ريفايدين، الذي كان في الخلف بصحبة وزراء الحكومة، كان بالكاد يجر قدميه في خطوات محدودة. توقفوا بجوار الحائط الأبيض المنخفض لمسجد جوما، وتعالت أصوات الراقصين بصحبة دق الدفوف.

ماهيندا ويجيسكارا وزير الاتصالات، أحد ثمانية وزراء يحضرون الاحتفال، استدار ليتحدث إليه. كان ماهيندا ويجيسكارا قد سأل ريفايدين شيئًا ما عندما سلب كلماته من لسانه انفجار رفعه عن الأرض وحجب السماء خلف ستارة من الدخان الأحمر.

قال لي إنه يتذكر المستشفى، ويعتقد أنه يتذكر المجرى الذي عُثر عليه فيه.

تلك كانت الأماكن التي سكن فيها جسده بعد القنبلة.

شظايا الذاكرة التي تبقت.

نجلس في حجرة اجتماعات فوق متجر متهدم في مدينة ماتارا، تستقر أذرعنا على مفرش مائدة بلاستيكي تقف عليه زهرية أزهارها بلاستيكية وردية، تعطي انطباعًا يشبه السكون.

تحمل ذراع ريفايدين اليمنى الندوب حيث دخلت الشظية وحيث أوسعت سكين الجراح الجروح.

قال إنهم تمكنوا من إزالة بعضًا من القنبلة، لكن لا يزال ثمة بعضها في يده، وبعضها في فخذه. عدل من وضع أكمامه وأراني آثار الندوب على بشرة يده، وكأنها جزء من آلة معطوبة. هنا، وهنا.

تحدث بصوت أجش خفيض، ما جعلني أنحني إلى الأمام حتى كادت أيادينا تتلامس.

ينظر إليَّ مباشرة، ثم ترتفع عيناه إلى أعلى.

«الوجع! لا زلت أشعر ببقايا القنبلة في داخلي».

ريفايدين هو أول الناجين من الحرب الذين أتحدث إليهم، وقصته تحكي عن أحدث الجرائم التي يوثقها هذا الكتاب. كل من قابلتهم يحملون قليلًا من الحرب في داخلهم.

المفجر الانتحاري المسؤول عن انفجار أكوريسا جاء من الخلف على دراجة إلى حيث كانوا، وفجر قنبلة قتلت كل الموجودين عدا ماهيندا ويجيسكارا وريفايدين.

يقول ريفايدين إنه لا يعرف هوية الانتحاري، ويرفض تسمية أسباب الهجوم، لكن عندما أذهب إلى الجرائد المحلية أجد أن اسمه سينثاميل.

الأسماء مهمة، فهي تعني المسؤولية، تُفرد شخصًا وتمنح سببًا ومنطقًا ودافعًا للهجوم. ثمة صلة بين سينثامل وريفايدين لن تزول أبدًا.

قُتل أربعة عشر شخصًا وجرح خمسة وثلاثون في تفجير أكوريسا في مارس ٢٠٠٩. كان آخر تفجير انتحاري ضخم في الحرب الأهلية التي دامت ستة وعشرين عامًا، وستنتهي نهاية مريعة في مايو. وضعت جريدة بريطانية التفجير في سياق حرب أوسع كانت تتصاعد في الشمال الشرقي. قالت الجريدة إن ميليشيات حركة (نمور تحرير تاميل إيلام LTTE، أو نمور التاميل بحسب الاسم الشائع)، التي كان مُفجر أكوريسا على الأرجح عضوًا فيها، «أمست يائسة»، بينما الجيش لا يتوقف عن قصف منطقة وقف إطلاق النار

بالمدفعية. القنبلة التي مزقت حياة ريفايدين كانت جزءًا من قصة صار فيها «مصير عشرات الآلاف من المدنيين في منطقة الصراع» على المحك.

ركز تقرير الجارديان على الحرب الأهلية في الشمال. ذكر أن أكثر من ألف شخص من منطقة الحرب جُلب إلى المستشفيات في أخر عشرة أيام، ومات مئتان وثمانية عشر، وتسع وأربعون شخصًا ماتوا في ذلك اليوم بالتحديد. أصبح ريفايدين بالمقارنة بالحرب الأكبر ليس أكثر من جزء صغير من إحصائية صغيرة، أحد خمس وثلاثين سيختفون من الخارطة التاريخية. أنا هنا لأكتب قصته وقصص أولئك الذين اختُزلت حياتهم بهذا الشكل، وربما لم تكن لتحظى بتسجيل تاريخي على الإطلاق.

ريفايدين مسلم يتكلم اللغة التاميلية، أحد العديدين الذين تجاوزوا التصنيفات العرقية التي صارت مصدر تعريف الحرب الأهلية.

سنهالا أم تاميل؟ يُسأل هذا السؤال لكل السريلانكيين في الخارج، وغالبًا ما يصبح مؤشرًا لدرجة اللوم ويحدد كيف سيعاملك الناس.

لو أنت سنهالا، فستصنف من بين المنتصرين القتلة.

لو أنك تاميل، فستصبح ضحية تلقائيًا.

ستشتد نظرة محاورك أو ستلين بناءً على إجابتك.

إحدى مفارقات هذا الصراع الممتد هو أن الصحافة العالمية عززت بشكل كبير هذا التصنيف المبسط للسنهالا والتاميل، وروجت للنوازع القومية للمقاتلين المسلحين وكأن الحرب ليست إلا معركة بين السنهالا والتاميل.

مفارقة أخرى للحرب أن الناجين الذين تحدثت إليهم، نادرًا ما يستخدمون مثل هذه المصطلحات، يتحدثون بدلًا من ذلك عن الأشقاء والأمهات والآباء والأطفال وأبناء العمومة

والأصدقاء والجيران، يتحدثون عن الجيش السريلانكي والشرطة وجاناثا فيموكثي بيرامونا [جبهة التحرير الشعبية JVP] ونمور التاميل وزعماء القرى، يتحدثون عن ملاجئ اللاجئين والمتضررين، وعن الكنائس والمستشفيات والمعابد والمدارس ومعسكرات الجيش والسجون ومعسكرات اللاجئين، يتحدثون عن قذائف المدفعية وطلقات الرصاص والتعذيب.

ويعودون مرارًا إلى ذكر الغائبين.

ويعودون مرارًا إلى ذكر مواقع بيوتهم الضائعة.

القصص التي جُمعت في هذا الكتاب تستند إلى كلمات الناجين من الحرب الذين قابلتهم في رحلتي على طول الجزيرة في أغسطس وسبتمبر ٢٠١٨. كل الناجين ذوو صلة بالمجلس الوطني للسلام NPC، وهي منظمة غير حكومية استشرتها في كتابيَّ السابقين.

عندما اتجهت إلى د.جِهان بريرا، رئيس المجلس الوطني للسلام، لأسأله إن كان في وسعي مقابلة بعض ضحايا الحرب الذين عمل معهم فريقه، كان دافعي الرئيسي هو وضع اللحم على عظام رواية بدأت في كتابتها فورًا، تقع بعض أحداثها في سريلانكا. أحد خيوط الحكاية تتضمن صحفيًّا أو رسامًا (لم أكن قد قررت أيهما) اختفى إبان هجوم لم يتبنَ مسؤوليته الجيش السريلانكي ولا المتمردون. هذا الخيط كان جزءًا من قصة أكبر عن صدمات الطفولة، وتضم شخصيات من بقاع متفرقة من العالم. كانت الرواية لا تزال في مراحل الكتابة المبكرة، كائنًا هينًا رقيقًا ضريرًا لا يمكن حتى مناقشته. السبيل الوحيد الذي كان في وسعي به تبرير رغبتي في مقابلة الضحايا الناجين كان استخدام المصطلحات الأكاديمية الجافة التي اعتاد جِهان على سماعها مني. هكذا وجدت نفسي أشرح بالطريقة المتبلدة للأكاديميين العتاة، أني أود أن أجري نقدًا مقارنًا للشهادات.

بينما أفكر في عدد أصوات الشخصيات التي ستظهر خلال وضعي الرواية، وأتذكر اجتماعات الدراسات العليا التي قارنًّا خلالها الشهادات المكتوبة من أماكن متنوعة وثقافات

مختلفة عبر العالم لدراسة أشكال إحياء ذكرى الراحلين، أخبرته أني أرغب في استكشاف كيف تُحكى ذكريات الحرب في مناطق الجزيرة المختلفة، وأني وددت مقارنة ونقد الأوضاع المختلفة للإدلاء بالشهادات، وماذا يحدث عندما تتحول الذكريات غير المعصومة من الخطاء إلى سرديات موثقة قانونيًا. وتابعت تضخيم الموضوع، كان عندي اهتمام خاص بالاختفاءات القسرية، وأود أن أتحدث مع أولئك الذين يبحثون عن أحبائهم الضائعين.

تلك النقطة الأخيرة أصابتني في الصميم ما إن تلفظت بها، إذ ذكرتني بما قد ينتظرني في نهاية طريق بحثي.

عندها تدخل ناقدي الداخلي، ذلك الذي أسميه في هذا الكتاب (المُدقق)، وذكرني بخطورة إعادة تفعيل الصدمة عند أولئك الناس بسؤالهم عن الأشياء التي يُفضل تركها ساكنة في الماضي.

عدت عندها إلى سؤال سابق: هل في وسعي التحدث إلى بعض الناس الذين حكوا بالفعل حكاياتهم للمجلس القومي للسلام؟ ربما مثلًا إلى شخص من الجنوب حيث قمت هناك بالبحث من قبل؟

جِهان رجل قليل الحديث، معتاد على التحدث في السياسات أكثر من مناقشة الذكريات والحكايات. قال بالبراجماتية والمباشرة المعهودين فيه:

«بالطبع، يمكنك التحدث مع بعض الأشخاص الذين حكوا حكاياتهم في منتديات الحقيقة. لقد أقمنا أربعة منتديات في البلد، في وسع منسقينا توصيلك بهم، تستطيعين السفر إلى ماتارا وكاندي وباتّي وجفنا...».

ودارت رأسي بالمشروع الذي أخذ يكشف عن نفسه، في حين تتحول رغبتي الأولية في خلق إطار إنساني لشخصية خيالية لم تتكون بعد إلى رحلة طولها ١٧٠٠ كم عبر الجزيرة،

للإنصات إلى الضحايا الناجين الذين يريدون التأكد من وصول حكاياتهم إلى الراغبين في سماعها بالخارج.

وضعت لجِهان قاعدتي استرشاد أساسيتين: يجب أن يكون الناجون موافقين، والأفضل أن يكونوا متحمسين للمشاركة في المشروع، وحيثما كان ممكنًا ـ أود أن أتحدث مع أولئك الذين لا يزالون يبحثون عن أحبائهم المفقودين أو المختفين. الطلب الأخير نبع من شعور ما غير مُحدد بعدُ بأني قد أطور من متناول كتابتي وأجد طرقًا جديدة للكتابة عن الضياع.

في اللحظة التي صار المشروع فيها واقعًا، شعرت أنني غير جاهزة ولا مناسبة لمثل هذه المهمة. خشيت أيضًا من أنني دخيلة في هذا المجال وسيعتبرونني مشبوهة أو غير قانونية، أو الأسوأ من كل ذلك: متلصصة على آلام الآخرين. ولم يكن إلا بعدما استشرت آخرين قبل رحلتي ممن عملوا لسنوات مع الناجين -صحفيين، ممارسين طبيين، اختصاصيين اجتماعيين، نشطاء- أن أدركت أنهم شعروا بالضبط مثلما فعلت. رغم قضائهم سنوات في مجالاتهم، ظلوا يشعرون كأنهم دخلاء على الصدمات التي قابلوها، ويتكيفون مع عملية ناتجها لا يمكن التكهن به. سيكون عليَّ أن أثق بغرائزي وأعتمد على مهاراتي الخاصة.

دَرَست ودرَّست لأعوام أدب الشهادات عبر بلدان وسياقات متعددة؛ أدب الهولوكوست والانقسام، السير الذاتية الخيالية وأدب الشهادات من كمبوديا وشيلي ونيجيريا وهايتي. دَرَست ودرَّست الكتابة السريلانكية عن الحرب وكتبت كتابًا في هذا الموضوع، ورواية تدور في سريلانكا في قلبها حالة اختفاء قسري. سريلانكا هي وطن أسلافي، وروايتي دارت في مسقط رأس أبي، أحب هذا البلد، وأعود إليه باستمرار.

سافرت أيضًا وتحدثت على نطاق واسع مع بعض ممن أثرت فيهم الحرب في أماكن مختلفة من العالم، ودعمت حرية الرأي، متحدثة أحيانًا في سياقات كانت فيها حرية الرأي مرفوضة، واستغللت تلك المناسبات لقول أشياء لا يجرؤ المحليون على التفوه بها. كنت واعية إلى أقصى حد بالفخاخ، بعملية التسليع التي تؤدي إلى ما وصفته باتريشيا ييجر

بـ«استهلاك» الصدمة. لكن رغم كل ذلك آمنت بقدرة الأدب والشهادات المكتوبة على تخليد تلك الحقائق المؤلمة المعرضة لمخاطر النسيان أو الضياع أو الإنكار، وآمنت كذلك بما لا يقل أهمية: بأن الكتابة قادرة على خلق سياقات من الاستيعاب والاستشفاء، وتشجيع القراء على فعل شيء ما وصنع فارقًا. قابلت في كل مكان ذهبت إليه آخرين يشعرون بنفس الشعور. ثم وقع حدث في منطقة ساوث بانك في لندن أكد على هذه الفكرة إلى حد مخيف.

كنت أتناول الطعام مع شاعرة أوليمبية من الجزر الكاريبية عندما اقترب منها نادل كان يراقبنا من جانب المكان.

كان شابًّا في عشرينياته، ذا أصول إفريقية. انتحى بها جانبًا وتحدث إليها بخفوت، وأخرج هاتفًا جوالًا ليريها شيئًا. حَدَقَت إلى الشاشة ورأيتُ وجهها ينقبض مما رأته. تحدثا لوهلة قبل أن تهرع عائدة لتخبرني بما حدث، متحدثة معي بنبرة خافتة وكأنها تخشى من كلماتها نفسها.

قال لها النادل: «أنتِ شاعرة، أيمكنك أن تكتبي قصيدة عن أمي كي يتذكرها الآخرون؟ هذا كل ما عندي منها، كل ما تبقى».

كان يحتفظ بالجوَّال في جيبه الملاصق لصدره، قال إن ذلك ليحافظ عليها قريبة إلى قلبه.

عرض على رفيقتي مقطعًا في جوَّاله أرسله إليه أحدهم من قريته الأصلية، فيه كانت أمه تُجر من بيتها إلى وسط حشد هائج صارخ، أحاط بها الحشد ليصدوا محاولتها للهروب، ثم ألقوا عليها الكيروسين وأشعلوا فيها النيران. آخر مرة رأى فيها أمه كانت وهي تصرخ في حين تأكلها ألسنة اللهب.

لا أعلم إن كانت الشاعرة قد وجدت الكلمات لكتابة قصة هذا الرجل أو أمه، لكني أكتب عنها الآن أملًا في أن ذلك قد يساعد في توضيح لماذا شعرت بالحاجة الماسة إلى جمع

وكتابة قصص هذا الكتاب. كل من هذه القصص الاثنتا عشرة كُتبت لتأكيد وتخليد لحظة أو سلسلة أحداث كانت ستُهمل أو ستضيع من سجلات التاريخ. كل من المتحدثين فعل كل ما في وسعه ليتأكد من عدم ضياع قصته، وكانوا يأتونني عادة ومعهم حزم من الأوراق الرسمية التي تشهد على بحثهم الطويل. منحني المتحدثون قصصهم بعدما يئسوا من تقدم الحكومة البليد في عملية العدالة الانتقالية التي وعدوا بها الأمم المتحدة. وعلى طول الطريق تحدثت مع آخرين كانت حكاياتهم متضافرة مع سردية النجاة بعد الضياع التي بين يدينا.

سُجلت هذه القصص وكُتبت خلال فترة سلام موجزة وواهنة بين نظامين متوحشين استبداديين. عشيرة الراجاباكسي، التي تفوقت تقريبًا على نمور التاميل في الوحشية والسلطوية، حاربت الحرب وفازت بها. كان نظامهم مشهورًا باختطاف المنشقين في شاحنات بيضاء، وتعليق حكم القانون وتطبيق شكل شديد العنف والعشوائية من الحرب في البحيرات شمال شرق سريلانكا. غير أنه على غير المتوقع خسرت الراجاباكسي السلطة أمام حكومة مايتريبالا سيريسينا، وهي تحالف غير متوقع بين الأحزاب المتعارضة انتخبه الشعب الذي أنهكته الحرب في موجة أمل. تبع ذلك فترة واهنة موجزة من السلام والانفتاح، اللذين جعلا الشروع في هذا المشروع ممكنًا، قبل أن تعود عشيرة الراجاباكسي في ٢٠٢٠ إلى السلطة مجددًا، وأسكتت بإحكام كل الأسئلة المزعجة (وربما الخطيرة أيضًا، عليهم).

لكن كثيرًا من هذه الأسئلة سُئلت بالفعل إبان حكم سيريسينا. إدارته وعدت بحكم سديد وإصلاح مؤسسي وسلام، وفي ٢٠١٥ قدمت عهودًا إلى لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، تطورت إلى اقتراحات صلبة بإقامة أربع آليات عدالة انتقالية: مكتب للأشخاص المفقودين، ومكتب للإصلاحات، ولجنة للحقيقة والعدالة والمصالحة، وآلية قضائية لتوجيه المسؤولية.

بعد ثلاث سنوات، عندما انطلقت في هذه الرحلة، لم يكن قد تحقق منها إلا مكتب الأشخاص المفقودين، وسلطته كانت مكبلة إلى حد أن بعضًا من أعضائه اشتكوا أنه غير ملائم لتحقيق هدفه. لا يزال الآلاف الذين تقدموا إلى المكتب بقضايا تسأل عن مصير أحبائهم الضائعين ينتظرون في ظلمة المجهول، القليل من تلك القضايا وجدت طريقها إلى هذا الكتاب.

الذكريات التي جُمعت هنا في أواخر صيف ٢٠١٨ طرحها متحدثون بحاجة إلى حكي قصصهم من مكان لا تقيد فيه الممانعة الرسمية للإنصات قدرتهم على التحدث بصوت مسموع.

القدرة على الإدلاء بشهادة على عنف استثنائي يعتمد على عوامل متعددة، ثمة احتياج إلى إيجاد لغة قد تتجاوز أي لغة. التعذيب مثلًا يتحدى اللغة ويقوض أواصر العالم المعروف.

ثمة احتياج إلى الأمان: على الشهود أن يشعروا بأن ما سيقولونه لن يعرضهم أو يعرض أحباءهم للخطر.

وثمة احتياج إلى الثقة بالشخص الذي يتحدثون إليه.

ثمة احتياج إلى الكمال، لإيجاد ما يقول عنه الأب بول «الشاهد الصادق» داخل أنفسهم.

الأب بول ساتكونايانجام، أحد مؤسسي حديقة فراشة السلام، هو أسطورة محلية. إنه رجل طويل كصرح وذو ابتسامة واسعة، يتحدث همسًا تحت القبة الجميلة لكلية سانت ميشيل في مدينة باتيكالوا. أخذ يتحدث عن التعذيب وكيف يحطم الضحية، متحدثًا بنبرة رخيمة تُنزل السكينة على سامعها لحظيًا.

قال: «أول مهمة هي استعادة كرامة الشخص».

الحكومة، التي تعهدت بالعدالة الانتقالية، تابعت وضع العراقيل على القانون، وظلت تلقب الجيش بـ«أبطال الحرب»، وأوضحت بلا لبس أن القوات المسلحة ستكون معفاة من الملاحقة القانونية. ومررت قانونًا يحمي الناس من الاختفاء القسري، لكن ليس بأثر رجعي، بهذا تُستثنى من طائلته آلاف حالات الاختطاف التي حدثت في الماضي.

وخلال كتابة هذا الكتاب انتهى حكم الطوارئ، ولا يزال قانون منع الإرهاب مطبقًا. كان -ولا يزال- في وسعهم أخذك للاستجواب واحتجازك إلى أجل غير مسمى دون إمكانية الطعن في القانون.

الحكومة لامت مرة تلو الأخرى الجمهور العام على معيقات العدالة هذه، قائلين إنه ليست هناك رغبة عامة في تحمل المسؤولية.

ناشط في حقوق الإنسان قالها بشكل أكثر صراحة: «السنهالا ليسوا مهتمين بالمسؤولية، لا يمكنك أن تتحدث عن العدالة عندما تقوم بهذا العمل».

في بلد تؤجل فيها العدالة وتُنكر، كنت حريصة على تجاوز الدليل التوثيقي الذي اتخذ طريقه بالفعل إلى الملفات المغبرة -«الحقائق» المتفق عليها- وسؤال الناجين شتى أنواع الأسئلة التي تبحث المحتوى الإنساني للأحداث.

ما هو مقدار ما يعرفه أطفالك؟ من الذي كان يعيلك بعد وقوع ما حدث؟ ما الذي تودون أن ترونه يحدث الآن؟

أردت أن أرسمهم في قلب قصتهم، أردت الوصول إلى قلب الحقائق، واستخراج الشهود الصادقين من أعماق أنفسهم.

وبينما أتحدث معهم، أجد قصصهم تستمر في العودة إلى حقيقة إنسانية واحدة: احتياجهم إلى أسرة وبيت. إنه اليقين المدمر الناجم عن الخسارة.

تحدثنا في درجات حرارة تتجاوز الستة والثلاثين، الهواء القادم من مروحة أو نافذة مفتوحة يحمل كلماتنا. عند الاستماع إلى الأصوات المتنوعة -التي كانت أحيانًا خفيضة ومترددة، وأحيانًا ترتجف من الحماس، وأحيانًا غارقة في الدموع- تذكرت كيف كانت المسافات بين الأماكن في ريف سريلانكا تُقاس برحلة صرخة، بالمسافة التي تقطعها صيحة نداء، هوااااه، لتُسمع.

هذه الطريقة شديدة الإنسانية لقياس المسافات أرغمتني على التفكير في ماذا قد يكون شكل الخرائط الجديدة إن رُسمت بناءً على قياسنا للمسافات حسب قدرتنا على إرسال وسماع الأصوات. فكرت في الناجين الاثنا عشر الذين جاءوا حاملين صور أحبائهم وخطابات التحقيق واستئنافات المحاكم وتقارير التشريح، وفيما حملت الرياح كلماتهم، سألت نفسي عن المسافة التي قد تقطعها الاثنتا عشرة صرخة.

ماتارا

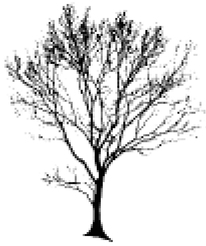

طواويس قاتلة

أول محطاتنا كانت ماتارا، مدينة ومقاطعة على الساحل الجنوبي في الوقت نفسه. مضينا على طريق الإكسبريس - واي الجنوبي، على طول طريق رائق يمر بمحاذاة سلسلة من الأشجار الخضراء وعلامات الطريق التي تحذرنا من حين إلى حين من خطر الطواويس التي تطير على ارتفاعات منخفضة. توالت أشجار المطاط مثل أعواد ثقاب فضية، ثم تحولت إلى شجيرات ونخيل جوز هند متلألئ.

أشار السائق خارج السيارة: «هذه قرفة، وذلك شاي».

أعرف، كنت هنا من قبل.

أعلم أننا سنحتاج إلى أربعين دقيقة أخرى لنبلغ الطريق الجانبي إلى جالي، وأن الطاووس الوحيد الذي سنقابله هو تمثال معدني عملاق لطاووس ملتوٍ ينتصب بجوار محطة الخدمات التي سنقف عندها.

الإكسبريس - واي طريق وريدي، يربط قلب الجزيرة التجاري بأطرافها الساحلية، قبل بنائه كان الطريق الرئيسي إلى ماتارا ساحليًا، يحتضن بطن الجزيرة مثل ذراع حامية. بينما أنت تخرج من كولمبو العاصمة متجهًا إلى الجنوب، ستتحول المدن الصاخبة إلى سلسلة من

قرى الصيد الخاملة، وستجد نفسك تنزلق تدريجيًا في اتجاه البحر، الذي سيظهر في البداية عبر القرى العابرة على هيئة قصاصات من الأمواج ذات الحواف البيضاء، قبل أن يتحول بغتة إلى ساحل ممتد إلى ما لا نهاية. قوارب القطمران اللامعة، بألوانها البرتقالية والبيضاء والأزرق المخطط، تستقر على الشاطئ، ويتردد صوت تلاطم الأمواج واستعادة البحر لها. هواء البحر الذي يتلاعب بشعرك يترك خلفه أثرًا لزجًا.

خلال الرحلات العائلية إلى الساحل الجنوبي، كان أبي يتوقف بالسيارة دومًا بالقرب من مدينة أمبالانجودا الساحلية ليشتري بسكويت النبيذ. قبضة أمي المشدودة كانت تنفك عندما ترى البحر خلف الطريق. كانت أمي تشرق علينا قائلة: «أحب الجنوب»، بوجه يضيئه الترقب لدخول الأمواج. قد تترجل أختي لتلتقط صورة. تظهر أمبالانجودا في الكتيبات السياحية كالمكان الذي تبتاع منه أقنعة الشيطان(2) النارية الجذابة، وبالنسبة إليَّ كانت على الدوام بوابة بيتنا الجنوبي.

نسافر الآن على الطريق الذي يقطع ذكرياتنا الشخصية. الطريق الخاوي والغابات المكسورة بلا علامات مميزة إلى حد مريح. أعلم أننا سندخل ماتارا عبر طريق يقطع الحصن الذي هو محل ميلاد أبي ومحل وفاة جدتي، وملاذ والديَّ قبل الحرب، وموقع بيوت الأسلاف التي كانت تستقر في كسل بجوار النهر الأزرق. حصن ماتارا يتضمن القاعدة العسكرية الرئيسية في الجنوب، وهو مقر حراس الجيمونو(3). ثمة سجن يقبع على طول النهر الأزرق. في ذروة التمرد الجنوبي في أواخر الثمانينيات، طَفَت الجثث على النهر وتوقف الناس عن أكل أسماكه. جهزت نفسي للرحلة برسم خطط الاختفاء، التي ستأخذني إلى ما هو أبعد من العالم المرئي.

ابني، المتخصص في الجيولوجيا، جمع أربع خرائط للأماكن التي سأزورها، حيث يستطيع من سأقابلهم أن يشيروا إلى أماكن وقوع حكاياتهم. ووضع أيضًا خريطة بكل مواقع المقابر الجماعية التي وُجدت ولها علاقة بالحرب. هناك خمس وعشرون مقبرة جماعية مؤكدة، متناثرة حول الجزيرة، فيهم وُجدت عشرات الجثث، وأحيانًا مئات. بعض الأجساد كانت

مقيدة من رسغيها، وبعضها في جماجمها مسامير. وُجدت سراويل مدرسية زرقاء قصيرة حول عظام حوض مرتخية.

توجد العديد من المقابر الجماعية في ذاكرة أولئك الذين يعلمون إلى أين أُخذت الأجساد، لكن لم يُحقق وراء أي منها بعد. في أثناء زيارتي، سيكتشفون واحدة أخرى في مقاطعة منار، وسيعزلونها وسيتحكمون بصرامة فيما يُنشر عنها. استشرت خريطة ابني للمقابر الجماعية، ومررت إصبعي على الورقة. الدوائر السوداء التي تشير إلى مواقعها تبدو كثقوب الرصاصات.

بينما نغادر ماتارا، نعبر بولينا وشاطئها ذا المرجان المكسر، وننتقل إلى فندق صغير في منطقة ماديها حيث سنقضي الليلة. بينما أسبح في حوض سباحة الفندق، صارت السماء بالتدريج ناعمة مخملية، وصرت واعية ببرج المياه العالي خلفي يغطس في السواد، يراقبنا جميعًا.

الأشخاص الثلاثة الذين قابلتهم في ماتارا جاءوني بقصص ركزت على حوادث يفصل بينهما ثلاثة عقود. حكت لي سيدة عن شقيقها المفقود الذي اختُطف في سبتمبر ١٩٨٩، قبل شهور قليلة فقط من اختفاء زوجات أخريات سأقابلهن في كاندي. سيدة أخرى حكت لي عن ابنها الذي اختطفه نمور التاميل في ١٩٩٩. وصانع ساعات مسلم أخبرني عن خبرته مع انفجار قنبلة في ٢٠٠٩. القصص متناثرة مثلما تتناثر ثقوب الرصاصات على خريطة ابني. اخترت ترتيبهم تاريخيًا لوضع نظام ما للأحداث التي قد تبدو في سياق أخر غير منطقية، عبثية.

∞

قلب طيب

لديها جبهة رائقة مثل عينيها، شعرها مشدود إلى الخلف من وجهها الذي ينضح بالهدوء. تحييني مثل صديقة قديمة، دفء استقبالها يكاد يؤلم. دوائري الداخلية تخبرني أنني بحاجة إلى التماسك. المُدقق سيبقيني تحت السيطرة على مدار هذه الرحلة.

نبدأ بالمعاملات الرسمية التي تتأكد من موافقتها على نشر قصتها، وتشير إلى أنها لا تفضل أن يُشار إليها باسمها الجميل، بل باسم عائلتها بدلًا منه: داهاناياكي. تقول لي إن ذلك يرجع إلى أن قصتها معروفة، وأن الجناة عانوا بالفعل بما فيه الكفاية. هي لا تريد أن تتسبب في مزيد من الإزعاج لعائلات الخاطفين، ولهذا السبب لا تفضل أن تسمي خاطفي شقيقها. تعلم هوياتهم جيدًا، الرجلان اللذان سحبا شقيقها الأصغر من الحافلة إلى ما يكاد يكون موته الحتمي، هما شقيقان أيضًا. هذان الخاطفان جيرانها. في قرية تعدادها أربع مئة أسرة، كل شيء معروف.

حجب الهوية، ذلك الشيء الذي يحمي الوشاة والقتلة، قد يكون ضروريًا لحكي حكاية داهاناياكي، كي تستطيع أن تتابع الحياة في قرية خاطفي شقيقها.

تحتاج إلى بلوغ سلامها الخاص.

تقول لي ونحن نجلس: «كان على علاقة جيدة مع الجميع، قلب أخي كان طيبًا».

تستخدم الزمن الماضي، لا تتوقع أن تراه مرة أخرى.

هي الأكبر من سبعة أبناء، خمسة بنات وولدين. كانت الأسرة فقيرة، أكلوا ثمار الجاكية لأن الأرز غالٍ جدًا، لم يمتلكوا المال الكافي للدراسة في الجامعة، رغم أنها كانت ذات ميول أكاديمية وتجاوزت اختبار المستوى A [(4)]. أصغر أشقائها، بندولا، درس أيضًا لامتحانات المستوى A، غير أنه اضطر إلى ترك الدراسة ليلتحق بوظيفة كي يساعد أسرته. كان قد خسر وظيفته في شركة إيفريدي في كولمبو وقت الحادثة، وكان يقوم ببعض أعمال الزراعة والحراثة في حقول الأرز بينما يعيش في مسقط رأسه. قالت بينما تمسح دموعها

لأول مرة إن أباها قد مات وهي طفلة. ومع أنهم لم يمتلكوا الكثير من المال، فقد كان لديهم وفرة من الحب.

بندولا، أصغر أشقائها، كان قلب الأسرة النابض. محبوب، مرشد، اتجه إليه الجميع لضبط بوصلتهم الأخلاقية. كان يسمو فوق الاختلافات، وعلى علاقة جيدة بالكل، كان رصينًا ويخطط لما هو قادم للأسرة، كان بوسعه جعل الحاضر حيًّا بينما ينظر إلى المستقبل.

مع بداية السنة الجديدة عند السنهالا، وبعد فترة مشوشة تُدعى نوناجاثيه(5)، كان دائمًا من يأكل أول ملء فم من الطعام في كل بيت بالقرية. ذلك شرف لا يناله سوى شخص طيب القلب.

وفي طفولته، كان المهرج الذي يرتدي دومًا ملابس أمه. كان يقول: «سأقرر ما الذي يبدو أفضل، كي أحظى بعديد من الصديقات ليساعدنك في شغل البيت يا ماما».

وكان أيضًا حكاء بارعًا. كلما جاء من المدرسة متأخرًا، تستمتع العائلة بالإنصات إلى الأعذار التي يقدمها.

«لا توبخني على تأخري، فقد وقعت حادثة للحافلة على الطريق، وقضيت ساعة كاملة في إنقاذ الركاب… ساعدت كل ضحايا الحادثة».

الحادثة التي أخذته وقعت في ٢٩ سبتمبر ١٩٨٩، عندما كان في العشرين من عمره. تذكر داهاناكي أن تلك كانت فترة سيئة وقعت فيها الكثير من الأشياء السيئة في هذه الناحية من البلاد.

ما عنته بالأشياء السيئة كان حالات الاختفاء التي ربما تجاوزت الأربعين ألفًا التي وقعت في هذه الأنحاء. هذه الاختفاءات كانت تعود جزئيًا إلى الاختطافات التي قامت بها جبهة التحرير الشعبية، مجموعة المتمردين التي كانت مسيطرة في هذه الآونة، لكن أكثرها كان

من عمل الجماعات السرية شبه العسكرية التي تعهدت بقتل اثني عشر شخصًا مقابل كل عضو في أسرة فرد من الميلشيا الذي تقتله جبهة التحرير الشعبية.

كان بندولا يقف مع شقيقه الأكبر في محطة حافلات ماتارا عندما جاء رجلان من قريتهما لتبادل الحديث معهما وسؤالهما إلى أين هما ذاهبان. شقيقه الأكبر كان قد عاد فورًا من عمله في كولمبو، وتحدث بلا ريبة مثلما قد يفعل أي رجل من كولمبو. تحدث بحرية وأخبرهما أنه ذاهب مع بندولا لزيارة أختهما المتزوجة التي تعيش في مدينة إمبيليبتييا، والتي على وشك الولادة. بندولا تمنى لو كان قد ظل في بيت العائلة، حيث يستطيع الاعتناء بداهاناكي والشقيقة الأصغر، فقد كان قلقًا على سلامتهن، لكن شقيقه أقنعه بمرافقته، قائلًا إن هكذا سيكون السفر آمنًا.

شرحت داهاناكي أن الأخ الأكبر القادم من كولمبو والذي أخذ بندولا بعيدًا عن البيت تسبب في أن يبدو أخوه مريبًا.

قالت: «شقيقي الأكبر كان حَسن الظن».

ذلك كان زمنًا فيه حُسن الظن خطر.

ركب بندولا الحافلة مع شقيقه الأكبر، وكانت الحافلة على الطريق بين ديفينوارا وجاندارا عندما قطعت عليها سيارة الطريق. كان في السيارة الرجلان من القرية اللذان تحدثا معهما من قبل. ترجل من السيارة رجل في ملابس مدنية وركب الحافلة مناديًا: «أين بندولا؟».

فهم الأخ الأكبر عندها أن الشرطة ستأخذ بندولا لاستجوابه.

تنبض داهاناكي بالحياة. ظلت عيناها هادئتين لكن حديثها تسارع وهي تأخذني معها في رحلة بحثها الطويلة عن بندولا، أخبرتني في البداية عن مكالمات شقيقها الأكبر المحمومة وبحثه في محطات الشرطة، وبحثها هي كذلك الذي سيمتص العائلة كلها لعشرة أعوام.

تحدثت عن مناشداتها في مراكز الشرطة ولمدير الشرطة، وطابور من الاستفسارات الذي أوصلها إلى وزراء أقوياء مثل ماهيندا ويجيسكارا ومانجالا ساماراويرا.

قالت الشرطة إنهم ليس لديهم أية معلومات عن بندولا. منحها ماهيندا ويجيسكارا خطابًا لتأخذه إلى معسكر الجيش في حصن ماتارا. الضباط في المعسكر أخبروها أن الأشخاص مثل بندولا، الذين يؤخذون للاستجواب، قد يكونون في أحد مركزي احتجاز بالجنوب: في بولينا أو موتاجيدارا، وعليها أن تذهب وتبحث هناك. قصة داهاناكي مفعمة بالذكريات التي تتجاذبها في اتجاهات مختلفة، وتجعلني أعاني لإيجاد طريقًا عبرها، مسارًا واضحًا.

أسألها عن المزيد من التفاصيل، وتصف داهاناكي تجربتها في دخول عالم الذكور غير المألوف. كيف كانت تذهب إلى مركز الأشخاص المفقودين يومًا تلو الآخر، ليُقال لها نفس المعلومات مرة تلو الأخرى. في البداية كان الطابور طويلًا جدًّا، فكانت تستغرق ساعات ليراها أحدهم، لذا تعلمت أن تصل في الرابعة والنصف صباحًا قبل الازدحام. وصلت مبكرًا جدًّا إلى درجة أنها كانت أكثر تعبًا من أن تأكل إفطارًا أو تجهز شيئًا لتأخذه معها قبل مغادرة البيت، وفقدت الوعي بينما تنتظر في الطابور. كانت قد فقدت الوعي أيضًا عندما قال لها شقيقها إن بندولا اختُطف. تتحدث عن فقدان الوعي وكأنه جزء طبيعي من الأحداث.

رد الفعل نفسه، الكلمات نفسها كل مرة، كلها تؤكد أن شقيقها لا يمكن العثور عليه، تجربة سريالية. قيل لها إنه لا يمكن العثور عليه وهي تعلم ذلك بالفعل، فقد بحثت في كل مكان، لكن لا بد أنه في مكان ما، لا يمكن أن يكون قد اختفى هكذا من الوجود.

ولا بد أن الجيش يعلم أين هو، فأحد الشقيقين اللذين أبلغا عنه كان عسكريًّا. سألوا في الحافلة: «أين بندولا؟» ذلك كان السؤال الذي اصطاده، السؤال الذي لا يزال يتردد صداه.

قالت إنها عندما ذهبت لمقابلة الوزير المحلي ماهيندا ويجيسكارا منحها أوراقًا لتأخذها إلى معسكر الاحتجاز في بولينا، تختلف هذه التفصيلة عن المعلومات التي وفرها المجلس

الوطني للسلام، لكنها غير ذات أهمية في الحكاية. المبهر هو الدفء الشعوري الذي يشع منها عندما تصف زيارتها للمعسكر. المعسكر في القرية التي أسكن فيها، لكني لم أكن مدركة أنه لا يزال موجودًا حتى الآن.

قالت: «إنه ليس مكانًا تذهب إليه النساء للبحث»، لكنها الأخت الأكبر، وأمها بعيدة في كولمبو، صارت قوية. تبتسم عندما تقول ذلك، وأتتبع تذكرها لرحلتها إلى نفسها القديمة.

عندما اقتربت من المعسكر خافت، لكن بحثها عن شقيقها منحها القوة، ولا بد أن شيئًا ما في عينيها أقنع رجال الجيش أن هذه المرأة لن تستسلم بسهولة. قيل لها إنه لا يوجد هنا أي محتجزين، وأخذوها إلى منطقة الاحتجاز. فُتح باب وقادوها إلى الزنازين الخاوية. تتذكر أنها كانت في مساحة حوالي عشرين قدمًا مربعًا، ويبدو من تعبيرها أنها قد تتذكر أيضًا الرائحة، أو ربما ما تتذكره هو عفن الخدعة.

قالت إن تلك كانت حيلة متعمدة، تقول ذلك بعيون عالمة. الزنازين الخاوية تهدف إلى إقناعها أن القوات المسلحة نظيفة اليدين نظافة الزنازين التي رأتها.

زيارتها إلى معسكر الاحتجاز الآخر كانت مختلفة. جعلوها تنتظر على البوابة ولم يُسمح لها بالدخول. تعتقد أنه ربما كان ذلك لأنه لم تكن هناك زنازين خاوية. ثم تلقت خطابًا بأن شقيقها غير موجود هناك.

بعد ثلاثة أشهر من البحث المستمر، ذهبت إلى مركز الأشخاص المفقودين لكنها لم تجد أي دعم. والأسوأ من ذلك، خدعها خادم للوزير واستولى على أموالها الهزيلة، بعدما طلب منها ٥٠٠٠ روبية مؤكدًا أنه سيجعلها تقابل شقيقها. ذهبت ومعها المال، ووجبة ساخنة وسارونج(6) لبندولا، كلها أشياء بيتية تذكره بالمنزل. كان لديها أمل أن تراه بعدما سمعت أنه حي، كانت قد تكلمت مع سجين سابق في أحد معسكرات الاحتجاز، رجل دخل المستشفى بعدما عُذب، قال لها عندما رآها إنه رأى شقيقها الأصغر في المعسكر.

أخذ الخادم المال والطعام وتركها تنتظر لساعات وليس معها إلا سارونج بندولا بين يديها. انتظرت لساعات طوال، في النهاية عاد الخادم، قال إنها لن تستطيع رؤية شقيقها هذا اليوم، لكن عليها أن تعود في يوم آخر بعشرة آلاف روبية. عادت بالمال في اليوم الموصوف، غير أنها رفضت التخلي عنه دون رؤية بندولا أولًا.

«سأعطيك أي مال تريده، ١٠ أو ٢٠ أو حتى ٥٠ ألف روبية، لكن أحتاج إلى رؤيته أولًا».

قال لها الخادم إنها لن ترى شقيقها هذا اليوم.

اكتشفت لاحقًا أنه نُهب آخرون بنفس الخدعة، وحصل بشكل غير قانوني على ٢٥ ألف روبية. أُبلغ عن هذه الجريمة لكن لم توجه إليه تهم قط.

قالت إن الذهاب إلى الشرطة لا فائدة منه.

أسأل عن العدالة في بلدٍ يكسر فيها القانونَ الأشخاص أنفسهم المسؤولون عن تطبيقه، أسألها كيف تشعر إزاء جيرانها الذين وشوا خطأً بأخيها الذي كان يتجنب السياسة، كيف تستطيع أن تعيش بجوارهم؟ وكيف بالضبط نالوا عقابهم مثلما تدَّعي؟

عينها صافية ثابتة هادئة، بينما تستدعي نوعًا من النظام الكوني للأشياء.

قالت إن أحد الشقيقين اللذين وشيا به التحق بالجيش، وقتله لغم أرضي. عانت أسرتهما بما يكفي، دفعت الثمن بالفعل.

والشقيق الواشي الثاني لم يعودوا يتكلمون معه بعدها، ولا يستطيع أن ينظر إليهم في أعينهم.

قالت: «إنه ليس شخصًا سيئًا، هو فقط غيور، اِعتقدَ أنه لو استقر شقيقي الأصغر في القرية فسيطور من أسرتنا. برغم كل شيء نحن في حال جيدة، لم أعد أخشى شيئًا، ذهب خوفي».

أتأمل مأساة هذه العائلة التي استطاعت أن تغزل في حكايتها نهاية سعيدة، وحقيقة أنها تجد الدعم في روابط شديدة التماسك، بما فيها دعم خالها الذي كان أول من ساعدهم، ثم أتعجب من اختيارها لاسمها.

باختيارها لأن تُعرف باسم عائلتها، داهاناكي، تأكدت من أن قصتها هي قصة عائلة، المعاناة والانتصار عليها ليست أشياء شخصية، بل تنتمي إليهم جميعًا.

استخرجت التعاطف من بئر المعاناة، لذا عندما سألتها إن كان لديها رسالة للغرباء عن البلد، كنت نصف متوقعة أن أسمع كلمات ذات صلة بالحقيقة الأبدية.

استغرقت وهلة للتفكير في سؤالي، وذكرت الحاجة إلى تحقيقات سليمة، وظلت تراجع كلماتها وكأنها تحاول الوصول إلى تصريح يعبر عن أفكارها.

ثم قالت: «قولي لهم إنه لا ينبغي السماح لغير المتعلمين بالالتحاق بالجيش».

أدركت اتهامها غير المباشر والروح البوذية بين السطور -الإيمان بأن ارتكاب الأخطاء نتيجة للجهل والعقول المشوشة- وأتساءل كيف سيتلقى القراء الغربيون هذا التصريح عندما يدركون أن طلبها الصغير يتضمن فكرة كبرى.

فيها تترسخ أكثر حقوق الإنسان أولية، الحق في الأمان، الحق في الحياة، وخصوصًا... الحق في ألا يخطفه ويعذبه ويقتله أولئك المفترض بهم حمايته.

∞

في الانتظار

عندما كنت أخطط لهذه المقابلات الطويلة، أعطوني أوقاتًا معينة يصل فيها الناجون، كي لا أجعلهم ينتظرون وقتًا طويلًا.

نصحني جِهان: «سيأتون، لكن لا تتوقعين دقة عقارب الساعة».

رغم أن كلًّا منهم مُنح موعدًا مختلفًا، كانوا جميعًا يصلون مبكرًا جدًّا، فأجدهم جالسين في القاعة أو في الشرفة، منتظرين معًا من الساعة ٨:٣٠ ص، قبل نصف ساعة من موعد بدء أول مقابلة.

قد يتبادلون الحديث فيما بينهم، لكن في الأغلب كل منهم كان يغرق في أفكاره ويكتفي بصحبة نفسه. رؤيتهم ينتظرون من هذا الوقت المبكر تحمل أياديهم الوثائق، جعلتني واعية بشدة بالمسافات التي قطعوها، وبالرحلات العديدة الأخرى التي خاضوها ليقفوا في طوابير طويلة.

إنهم مذعنون للانتظار. هذا الانصياع السهل وقبول الصبر، في بلد يتنافس فيه الجميع على جذب الانتباه، يحكي الكثير عن رحلات بحثهم. وزن أوقاتهم الضائعة وقع بثقله على كاهلي. ظللت كل يوم أتحدث معهم واحدًا تلو الآخر، بلا راحة، ولا أتناول الغداء إلا بعد الرابعة مساءً.

∞

فم النمر

كاروناواثي امرأة نحيلة قاتمة البشرة سلكية الشعر الرمادي المشدود للخلف في كعكة. عيناها حادتان تشتعلان بالخبث. ضحكت خلال جلوسها وهي تخبرني بأنها انتظرتني وقتًا طويلًا، وهي الآن جاهزة لتناول الغداء!

تقول: «لكن الانتظار لا يهم، فأنا ليس لديَّ مكان أعيش فيه، لو تأخر موعد هذه المقابلة فلا بأس، سيكون عليَّ حينها قضاء الليلة في هذه الغرفة».

ونعم، كانت سعيدة بالموافقة على الشروط في استمارة القبول، ولو بيعت قصتها في الخارج، فهي ستذهب إلى إنجلترا وتبيعها بنفسها!

كاروناواتي لامعة جامحة وجريئة. عندما رأتنا أول مرة، ذهبت على الفور إلى زوجي الأنجلو-أيرلندي لتخبره عن مأساتها في مونولوج متتابع يتعذر فهمه، بعدما حسبته ممثلًا لمؤسسة خيرية قد تساعدها.

عندما أدركت أني أفهم السنهالية أفضل مما أتحدثها، ضحكت مجددًا، وقالت:

«في وسعي تعليمك».

كاروناواتي رحالة عظيمة، وهي مخيفة نوعًا ما.

الحديث معها يشبه التعامل مع التين الشوكي.

هي الابنة الحادية عشرة من عائلة لها اثنا عشر ابنًا، وعمرها الآن فوق الستين عامًا. لها أخ أصغر، وعائلتها تعيش في كوتابولا. أبوها كان حارس أمن وأمها جنت المال من صنع السلال وخبز الفطائر بدقيق الأرز وبيعها لأهل القرى. دخلت المدرسة، وتزوجت في العشرين تقريبًا، وأنجبت خمسة أبناء: ثلاث بنات وولدين.

قابلت زوجها في مؤسسة شاي حيث كان كلاهما يعمل. كانت قد تركت المدرسة لاحتياج أسرتها إلى المال، وزوجها كان في حوالي الخامسة والستين -لا تتذكر عمره بالضبط- عندما مات.

أردت أن أسأل أكثر عن زوجها، كيف كان وكيف التقته وكيف مات، لكن كاروناواتي تكرر أنه مات منذ زمن بعيد، وتأخذني في حكاية سوميث، رابع أبنائها، الذي اختطفه نمور التاميل. فكرتها المشوشة عن الأعمار تكشف عن نفسها في محادثتنا عبر شعور متفكك بالزمن.

سوميث كان صبيًّا فاتح البشرة محبوبًا، ظل يدرس حتى الصف الخامس. عندما كان في الحادية أو الثانية عشرة، اهتم بإصلاح السيارات وتدرب على هذا العمل. لديَّ صورة لصبي ذي أيد حذرة وعينين بنفس حدة عيني أمه.

أصبح سائق سيارة في مؤسسة الشاي. كان مسؤولًا عن جمع الشاي ونقله إلى المصنع. عندما أعرب صديق له عن اهتمامه بالالتحاق بالجيش السريلانكي وشجعه على فعل المثل، التحق سوميث بالجيش، وقد شدته فكرة العائد الجيد. رأته أمه بعد ثلاثة أشهر من التحاقه بالجيش عندما رجع إلى البيت.

قالت إنه كان مضطربًا وغير سعيد بهذه الحياة. لم يحب أن يكون في القوات المسلحة، إذ كان التدريب شاقًّا إلى أقصى درجة.

عاد سوميثإلى البيت مجددًا بعد شهر آخر، وعمل بدوام مؤقت في مؤسسة الشاي قبل أن يرجع إلى الجيش من جديد، وكان ذلك عندما عُين في الشمال. تقول أوراق مجلس السلام الوطني إنه أرسل خطابات تواقة إلى البيت، قال إنه في حال جيدة، ونصح أمه بالاعتناء بصحتها، ونصح أخواته أن يأكلن جيدًا ووعدهن بإرسال النقود عما قريب. كانت خطابات ابنٍ بار يشعر بالمسؤولية تجاه أسرته.

اختفى سوميث وهو في معسكر قريب من جفنا خلال عام.

أسأل أكثر لمعرفة ظروف اختفائه، ووصف كاروناواثي جعلني أتعثر في بحثي عن معنى، كلماتها المغزولة بلغة شائكة تزيدني حيرة.

تخبرني أن سوميث كان قد خرج ليقضي حاجته في الغابة لأن المعسكر ليس فيه مراحيض، وأن نمور التاميل اختطفوه ليأخذوا دمه.

كاروناواثي جادة وتتحدث بهدوء، ذهب مزاحها السابق.

كررت أن رجال الجيش قالوا لها إن ابنها اختُطف من أجل دمائه، وأنها لا تعلم السبب. نعم، هذا صحيح، اختطفه نمور التاميل من أجل دمائه، ذلك هو ما قاله رجال الجيش لرئيس قريتها بعد ثلاثة أشهر، عندما حصلت على بعض المعونة من الحكومة. لا تعلم مقدار التعويض الذي حصلت عليه لأن زوجها هو من قبضه، لكنها الآن تحصل على ٧٥٠ روبية في الشهر لأنها شخص متقدم في العمر، أي أقل من ٤ جنيهات إسترلينية.

ألقي نظرة على ملاحظات مجلس السلام الوطني التي تشير إلى أن ابنها أُخذ في هجوم على معسكر في مدينة مولايتيفو، قُتل في ذلك الهجوم بعض الجنود واختفى بعض آخر. سرد كاروناواثي للحكاية أخذ اختفاءه إلى مستوى جديد. تساءلت وأنا أنصت إليها إن كان سبب غموض ما تقول يكمن في اللغة نفسها. فقط الظروف المادية والكم المطلوب ليعيش المرء عليه كانت الأشياء الوحيدة الواضحة وضوح الشمس بالنسبة إليها. اختفاء ابنها فيما ستصفه لاحقًا بـ(فم نمور التاميل) -«إنه في فم النمر، ذلك مكانه الآن» - لا يمكن فهمه إلا بشكل سحري وعبثي. الحقيقة بحسب فهمها هي أنها ليس لديها مكان لتعيش فيه ولا معونة مناسبة.

كاروناواثي، بما أنها أم لجندي مات أو اختفى خلال الخدمة، تحتل مكانة عالية في قائمة شرف مجتمع سريلانكا بعد الحرب. أعضاء الجيش السريلانكي يُمنحون رسميًا لقب أبطال الحرب، وزوجات وعائلات الجنود المقتولين أو المختفين في أثناء القتال يتلقون تعويضات بما يلائم ذلك، ٥٠٫٠٠٠ روبية في حالة كاروناواثي. علاوة على ذلك، نظرة سريعة في ملاحظاتي تخبرني بأن ابنها كان عضوًا في كتيبة السنها، وهي كتيبة رماة بارزة، مميزة عن البقية في المارشات بخطوتها السريعة.

تعتمد جرأة كاروناواثي على شعورها بالأمان الناجم عن معرفتها بكل ذلك، وتعتمد أيضًا على الإهانة التي تشعر بها لعدم تلقيها ما ترى أنه حقها. بينما أنا أعاني لاستيعاب التفسيرات المتعددة التي تطرح نفسها لقولها «أخذوه من أجل دمائه»، انطلقت هي في وصف بحثها المطول عن التعويض.

بات من الجلي أن دافعها ليس البحث عن ابنها -البحث الذي يئست منه كما هو واضح - بل البحث عن معاش تشعر بوضوح أنها لا يزال من الممكن أن تناله لو أنها احتجَّت بما يكفي. هذه امرأة جردها الفقر من مشاعرها. عندما تتحدث أتذكر المعنى الحرفي لكلمة الجوع في السنهالية: باداجيني Badagini؛ نار في المعدة.

قالت بصوت مرتعش إنها حاربت لاستعادة ابنها، لكن الجيش أعرب عن انه ليس في وسعه المساعدة. بعد ثلاثة أيام من سماعها نبأ اختفائه، ذهب زوجها إلى رئيس القرية، الذي ذهب حينها ليجلب إليهم دعمًا من الحكومة.

بعد أشهر، جاءت من جفنا أربع سيارات عسكرية إلى قريتهم ليبلغوهم رسميًّا أن ابنها اختُطف، وقالوا إنهم لا يعلمون شيئًا عن مكانه. عانى الجنود كثيرًا ليجدوا بيتهم كي يخبروهم بأخبار اختطاف نمور التاميل ابنهم. لم يفتها زيف هذا الاستعراض الذي أقامته سيارات الجيش الأربع في القرية الصغيرة.

قالت: «المساعدة الوحيدة التي يمكن أن يقدمها إليَّ الجيش هي أن يأخذ مني ابنًا آخر».

ثم تقول إنها حصلت على تعويض ٥٠.٠٠٠ روبية، قُسِّم بالتساوي بين زوجها وزوجة ابنها سوميث. أدركت أنها تذكرت الآن بالضبط الرقم الذي لم تذكره من قبل، وأن الذكر المباغت لزوجة الابن في الحكاية لم يحدث إلا كتفصيلة مادية. قصة كاروناواثي مليئة بالمطبات والمنحنيات مثل طريق يمر في غابة متشابكة، وبها زوايا حادة مثل كوعيها.

قالت إن بعد سنة من اختفاء ابنها، تزوجت أرملته من جديد، كاروناواثي وزوجها طالبا الحكومة عندها بأن تتوقف عن الدفع إلى أرملة ابنهما وتمنحهما الدعم الكامل. توقفت الحكومة عن الدفع إلى الطرفين، فلا كاروناواثي وزوجها ولا أرملة ابنهما باتوا يحصلون على شيء. عندما اعترضت كاروناواثي وزوجها على ذلك، قيل لهما إنه لو أن زوجة ابنكما السابقة وافقت على أن يذهب بعض المال لهما، فربما يحصلون على شيء، وأرملة ابنهما رفضت هذا العرض، وهكذا لم يعد أي منهم يحصل على أي شيء الآن.

مهما استخدمت من تعبيرات، حتى تلك التي تُقارن بتشبيهات كاروناواثي (اقطع أنفك لتكيد وجهك، وارمِ الرضيع مع مياه الاستحمام)، لن تكون كافية لوصف الفوضى التي تسببت فيها كاروناواثي لنفسها.

أنا لا أزال أحاول استيعاب حقيقة أن سوميث كان متزوجًا وقت اختفائه بينما هي تستكمل حكيها المطول عن قطعها الكامل لكل العلاقات بينها وبين زوجة ابنها التي لم تظهر إلا قبل قليل. قصة الابن الضائع تحولت إلى قصة المعاش الضائع.

أسألها عن زواج ابنها، فترد بقلب الموقف كله من جديد.

«لم يكونا متزوجين، لم يكونا متزوجين»، وفي تلك اللحظة تدَّخل المنسق المساعد وأخبرني بأنها قد تكون مشوشة.

تؤكد: «لم يكونا متزوجين. كانا يعيشان معًا، يقول الناس إنهما ربما كانا متزوجين في السر».

أخبرتني كاروناواثي أنه عندما جلب ابنها هذه الفتاة إلى بيتها، طردتها. نعم، لقد رفضت كاروناواثي الفتاة، وكان ابنها يعيش معها في بيت عائلتها. التحق ابنها بالجيش السريلانكي وهي لا تعرف إن كان متزوجًا بالفعل أم لا. يعلم كل من يعمل في مؤسسة الشاي أنهما كانا يعيشان معًا، وزوجة الابن هذه كانت تعيش مع عائلتها عندما ضاع ابنها، والآن هي أم لثلاثة أبناء من زواجها الثاني.

تتوسع القصة بشكل مطرد، وتأخذ تطورات خطيرة بدخول أجيال جديدة، وتنمو مزيد من الأشواك. أحاول السيطرة على الموقف واسترجاعها إلى اختفاء ابنها، الخسارة الأصلية، وأسألها إن كانت تفهم مصطلح «ضاع» الذي استخدمته لوصفه.

«هو لم يعد موجودًا، لا فارق. لا فائدة ترجى من الحديث عن هذا، لا مكسب سيأتي من حكي حكايته للناس في الخارج. نعم، أود رؤية ابني حتى لو كانت تنقصه ساق أو ذراع،

لكن كيف نجده وقد دخل فم النمر؟ هذا هو مكانه الآن، في فم النمر».

حينها فقط أدركت ما كنت أعاني من رؤيته واستيعابه عبر أدغال كلماتها المتشابكة، أن ما ضاع منها في الغابة ليلة ٥ يوليو ١٩٩٩ لم يكن فقط ابنًا، بل ضاع كذلك الاستقرار الذي جلبه إليهم جميعًا. لم تكن النقود هي كل ما يدين لها العالم به، بل كذلك قدرتها على عقلنة دورها في هذا الضياع. ليس فقط احتمالية مستقبل آمن، بل كذلك العالم كما تمنته أن يكون.

اختفاء ابنها جره إلى حافة العالم المعروف، وجرها معه هي أيضًا. لقد نظرت في الهاوية ورأت فم النمر، بكل أنيابه ومخالبه. لقد ولجت ذلك العالم الجديد ووجدت نفسها تحارب في مواجهة امرأة لا تحبها، تلك التي تقول عن نفسها إنها زوجة ابنها، تحارب من أجل إجابات من جيش سمح بأن ينزف ابنها حتى الجفاف، تحارب حكومة وعدتها بشيء ما، نعم، شيئ ما لو ضاع ابنها، فلم يكن ثمة شك في عقلها الجديد الحاد هذا أنها تستحق الكثير جدًّا جدًّا مقابل هذه الخسارة.

التعويض المبدئي كان ٥٠.٠٠٠ روبية، والمعاش التالي جعل من خسارته شيئًا حقيقيًّا صلبًا ملموسًا. المال مقابل جسد لن يُستعاد قط.

لكن ظروفها ازدادت سوءًا واختفى المال بلا أمل في عودته، بعدما صارت معزولة بخسارتها لزوجها وأرملة ابنها المرفوضة، وبقية أبنائها الذين كبروا ورحلوا عنها، فصار لها عقل حاد جديد لتبرير هذا العالم الجديد الذي وجدت نفسها فيه.

سوميث، ابنها الحبيب، دعامة وجودها، مرساتها في حياة أخرى، ذهب واختفى، أخذه عدو غير مرئي إلى نطاق من الرعب لا خريطة له.

وها هي الآن، متروكة في غابة بعد اختفائه، تحارب عدوًّا موجودًا في كل مكان.

ضائعين في سريلانكا

كولمبو، ٢٣ أغسطس.

ذهبنا للبحث عن بعض كتب رابطة علماء الاجتماع، ووقفنا عدة مرات للسؤال عن الاتجاه حتى يأتي عابر سبيل فيشير ويومئ به إلينا في الهواء.

وجدنا طريقًا له أسماء متعددة: (كروبّو لين) الذي هو أيضًا آر.آي.تي أليس ماواثا، وربما في النهاية هو ليس لينًا على الإطلاق، ربما هو (كروبّو رود). والرقم أيضًا مختلف، ربما يكون ٣٤٥/١٨ A، أو شيئًا آخر، هكذا حتى عندما وجدنا المكان، وقد ترجلنا عن عربة التوك توك ثلاثية العجلات ومشينا حول المربع السكني حوالي عشرين دقيقة، اكتشفنا أن حتى من يعيشون هناك ليسوا متأكدين من ماذا يُدعى المكان أو أين هم.

الفتاة الشابة التي فتحت الباب أومأت بالإيجاب، هذه بالفعل رابطة علماء الاجتماع، ثم هزت رأسها عندما أخبرتها عن بحثنا.

أبدت ملاحظتها: «السريلانكيون ليسوا ماهرين في استخدام الخرائط»، ثم ابتسمت معتذرة وهي تذكر أن الكتب التي سألت عنها غير موجودة على أرفف المكتبة، وأن بحثنا كان هباءً.

ماتارا، ٢٧ أغسطس.

تمشينا في الحصن، متتبعين نفس المسارات التي سلكناها مرات عديدة من قبل. ثمة طريق طويل أحمر تتراص على جانبيه بيوت أسلاف تمتد على لسان ساحلي معروف باسم (آخر الأرض)، بيوت العمات والأعمام وأبناء الأعمام والجدة الذين لم أعرفهم إلا عبر أحزان أبي، التي كانت تطول أو تقصر.

بين النهر والبحر بيتان مزقهما التسونامي وأُزيلا ليفسحا الطريق لبيوت الإجازات. الأرض هنا نظيفة من الأشجار والتاريخ، ومفتوحة للرياح. بينما نقترب من خط المياه، جاءت طفلة تجري من بيتها وهي تنادي: «أمي، ناس جديدة!».

في الممشى، يحط طائر على الأصابع الممتدة لتمثال الجندي البرُنزي الذي يقف على قاعدة نصب الحرب التذكاري، تمتد ذراعه مشيرة إلى اتجاه الحصن. القاعدة الخرسانية مجوفة وتحتوي على لوحات برُنزية متقابلة تحمل أسماء مئات الجنود المقتولين. تبدأ تواريخ موتهم في ١٩٨٧ وتنتهي في ٢٠٠٤. بعض البلاطات خاوية، تنتظر مزيدًا من اللوحات، مزيدًا من الأسماء.

يهيمن نصب الحرب هذا على الممشى.

يقف النصب في الناحية المقابلة لمحطة حافلات ماتارا، حيث وقف بندولا داهاناكي مع شقيقه لا يشغل باله شيء، قبل أن ينطلق في آخر رحلاته كرجل حر.

∞

القنبلة في الداخل

يمشي بهدوء وحذر. محمد ريفايدين رجل شاحب ذو عينين واسعتين تبدوان وكأنهما تحجبان عنه العالم الخارجي. شعره حليق إلى درجة تجعل محيط جمجمته جليًا. حاجباه يبدوان أكثر كثافة وقتامة مما قد يبدوان عليه لو ترك شعره ينمو. وجهه ممتلئ يكاد لا تظهر له عظام. يتحدث بصوت أجش وكأنه يفعل ذلك بصعوبة. يصغي إلى كل سؤال بعناية، ويرد بنفس العناية، يزن كلماته وكأنها عملات. لم يكن إلا عند النهاية أن رأيت، عندما أدار وجهه، أداة مساعدة السمع في أذنه اليمنى.

وُلد في إليبيتيا، والتحق بكلية زهيرة في جامبولا، ولم يكن طالبًا جيدًا، ذكر ذلك بلهجة معتذرة، وكأني سأحكم عليه بالسوء جراء ذلك.

«أحببت كرة القدم»، ابتسم وهو يتذكر نسخته الطفلة، «وكنت أهتم بها أكثر من المدرسة. بعد الدوام الدراسي كنت ألعب كرة القدم طوال الوقت». بدا حزينًا ومتعجبًا من إبدائي الاهتمام بنفسه القديمة. أخبرني متابعًا أنه عمل في مصنع غزل لثمانية أعوام، وأحيانًا كان يساعد شقيقه في عمله في بيع الساعات.

وذلك كان قبل أن يذهب ويبدأ عمله الخاص في الساعات.

«كانت الحياة طيبة»، قالها لأول وآخر مرة. تزوج، ووعده والدا زوجته ببيت. بعد الزواج اكتشف أن حمواه لم يبنيا إلا جزءًا صغيرًا منه وتركا له الباقي ليبنيه. ما تبع ذلك كان حكيه ما رآه خيانة من قبل أهله وأصهاره. ظل محدودبًا في مقعده طوال الساعة التالية، مرصعًا كلماته بالصمت البليغ، الذي يقول ما لا يُقال.

ريفايدين عرف ماهيندا ويجيسكارا، وكان يتحدث معه في الموكب الكبير بأكوريسا عندما انفجرت القنبلة. ريفايدين كان يعرف الفرقة المنشدة التي كانت تعزف في الموكب، وماهيندا ويجيسكارا سأله لو كان يستطيع أن يرتب حضور هذه الفرقة في مناسبة أخرى.

بعد خمس دقائق تقريبًا حدث الانفجار. لا يعلم ماذا حدث، فقط وجد نفسه في مجرى مائي، ولم يفهم ماذا حدث إلا عندما استيقظ لاحقًا في المستشفى.

كان هناك آخرون بجوار ماهيندا ويجيسكارا، بمن فيهم مدير مجلس المحافظة. انفجرت القنبلة، ومات مدير مجلس المحافظة الذي كان بجانبه. مات حوالي سبعة عشر شخصًا من الذين كانوا قريبين.

نُقل كل الضحايا إلى مستشفى في أكوريسا. لم تعلم أسرته أنه كان هناك. استعاد وعيه في المستشفى وسأل جاره أن يخبر أسرته بمكانه.

يتحدث ريفايدين ببطء، يتوقف بين الكلمات، ينظر إلى عينيَّ ثم يهبط بنظره إلى يديه فيما تتكشف الأحداث في عقله. يصعب عليه ولوج ذلك النطاق في ذاكرته، يؤلمه، ويفرق بيننا، يصنع هوة لا تُعبر بين عوالمنا.

بينما هو يستجمع أشتات الماضي معًا، يستدعي اسم ماهيندا ويجيسكارا مرارًا وتكرارًا وكأنه نقطة ارتكاز لشيء ما. أصبحت مدركة أنه بتكراره ذلك الاسم يؤكد على حقيقته السابقة كرجل ذي قيمة وأهمية، شخص يستشيره ذوو القوة وأصحاب الشأن. إنه يقدم قصة تنقله من تمزق الانفجار إلى شخصيته الجديدة التي هي ضحية بلا اسم في عالم ما بعد القنبلة، ضحية لم تجد أسرتها عندما كانت في أقصى احتياج إليها. بدا أنه ضاعت منه نفسه في الانفجار، وأنه بتكرار اسم ويجيسكارا يصبح قادرًا على استعادة شاهده الصادق من نفسه مرة أخرى.

مع ذلك فهو يستمر في الوقوع في الهوة التي صنعها الانفجار في ذاكرته، يقع في صمتٍ تكسره حقائق متناثرة هنا وهناك. يذكر عدد الضحايا بالتقريب: «مات سبعة عشر تقريبًا».

كلمة (تقريبًا) تؤطر المكان الذي يحتله، العتبة بين الموت والإصابة الخطيرة.

أجد نفسي أنزلق إلى بحر معاناته، أتشبث بالأسئلة التي قد تعيده إلى العالم المرئي.

أحاول شده مجددًا إلى عالم الحقائق اليومية وأسأله عن الذي يعتبره مسؤولًا عن الحادث.

يبدو ريفايدين مرتبكًا، اللوم والعقاب خارج نطاقه، عيناه تعومان بينما هو يدور في فلك اللغز برمته.

يقول إن لم يوجد تأمين ولا نقاط فحص شرطة، الوضع كله كان غير معتاد.

يقول بينما يهز رأسه: «لا أعلم لماذا لم يكن هناك تأمين، كل مسؤول حاضر كان يحتل منصبين أو ثلاثة».

يتأمل ريفايدين في المعضلة، ويقلبها في رأسه مرات ومرات، يستمر في الحديث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إليَّ، محاولًا فهم كيف حدث مثل ذلك الشيء.

«الأطفال المشاركون كانوا محميين بوجودهم في المقدمة، الوزراء وكبار السن كانوا في الخلف. كان الموكب قد توقف عندما انفجرت القنبلة».

تذكره للانفجار ألقاه مرة أخرى إلى جسده المتضرر، ورُميت أنا في قلب الوجع المستمر للأمر كله.

قال مشيرًا إلى فخذه اليمنى: «هذه الساق تتورم طوال الوقت، وأشعر بالتوعك دائمًا. الحال كذلك كل يوم».

مسح عينيه. ليس للوجع كلمات. عرضت عليه إيقاف المقابلة، غير أنه غاب في أعماق نفسه ولم يرد. أبدأ هنا في محاولة استخلاص شيء إيجابي من ألامه وأسأله من الذي دعمه.

قال بثبات أكثر وقد بدا يستجمع شتات نفسه: «فعل بعض الأصدقاء، عرضوا عليَّ ١٠٠.٠٠٠ روبية».

أي أصدقاء؟

«رفاق العمل منحوني ٢٥.٠٠٠ روبية، لكني الآن في وضع حرج».

يستمر في العودة إلى تلك الحقيقة الحاضرة أبدًا، صلبة وحقيقية مثلها مثل المائدة القابعة بيننا. تحدث عن ابنين، ابن يستعد لإعادة التقدم إلى المستوى A، وابنة تدخل في المراحل الحرجة التي يتوقع أن تتزوج فيها. ساعدته زوجته في صنع الوجبات السريعة وبيعها، لكن عمله في الساعات توقف. إصاباته الجسدية منعته من القيام بالتوصيل. في وسعه إعانة

زوجته في عملها لعشرة أو خمسة عشر يومًا في المرة، لكنه بعدها يضطر إلى الراحة بسبب الألم.

مع من تتحدث بشأن ذلك؟

«يعلم الناس ما حدث».

الحديث غير ضروري، الحديث مستحيل، في الصمت الذي أعقب ذلك امتدت «ما حدث» لتشمل كل ما لا يمكن قوله.

ثم يقول إنه تحدث فقط مع رفاق العمل عندما سألوه لماذا توقف عن الشغل. لم يناقش الأمر مع أسرته، حاول أن يتحدث معهم قليلًا لكنهم لم يدعموه.

«أحد أشقائي منحني ١٠٠٠ روبية، لكنه لم يساعدني بعدها». التمعت عيناه، يشعر بالمرارة، تجمعت دموعه مجددًا.

لم أتجاوز أول مقابلاتي بعد وأمسيت مذنبة بالفعل بإعادة التسبب في الصدمة للضحية. أتذكر التقنيات الأساسية التي علمتها لي ممرضة متخصصة في الصدمات تُستخدم عندما يلج المريض في ذكرى مثيرة للصدمة ونحتاج إلى إعادته إلى الحاضر. وجدت نفسي أتشبث بأي شيء لأسترده مرة أخرى، أحرك السجلات، أعبث في الأوراق على المكتب، أقدم إليه قدح ماء، ألتقط قلمًا، أسأل سؤالًا ملائمًا. محاولات عقيمة من مبتدئة ساذجة. يجلس في الصمت الذي ساد بعد الانفجار، ليس هناك منه مناص.

هل تأثر آخرون في مجتمعك بهذه القنبلة؟ «لا».

ينظر إلى يديه. لقد جعلت الحال أسوأ. من تظنه مسؤولًا عن هذا؟

أي شيء، ولو حتى الغضب، سيكون أفضل من هذا الحزن المتعاظم مثل وحش إسفنجي متورم.

«لا أستطيع القول بدقة من هو المسؤول. قُبض على رئيس شرطة ماتارا بسبب المشاكل الأمنية». تصعقني حقيقة أن لا يوجد مكان للعدو السياسي، نمور التاميل، في رد ريفايدين، لا خطب لاذعة ضد أفعال المفجر الانتحاري الذي عرفته الصحافة، ولا شيء من الاستهجان والمناشدة المتناثرين على صفحات التقارير الإخبارية الغربية. الحقائق السياسية التي تُشعل الصحفيين شديدة الضخامة والوضوح وعابرة للشخصيات، ومنفصلة بالكامل عن خصوصية ألمه وهمومه اللحظية عن إتمام البيت.

الانفجار أيضًا هو مسألة مجردة، غير تاريخية، بعيدة عن التذكر، إذ لا تكمن في الماضي بل لا تزال موجودة في جسده. دخله الانفجار وغير حاله. لا يزال يحدث بشكل مصغر كل مرة يحرك فيها ساقًا أو ذراعًا. الانفجار محلي وشخصي، مسألة حميمية جسدية.

لا عجب إذن أنه عندما سُئل من المسؤول تحدث عن قلة كفاءة الشرطة. ربما هو يعرف رجل الشرطة المحلي أكثر مما يعرف عن فعلٍ قام به عدو غير مرئي ومجهول اقترب منه على دراجة وحول صدره حزام ناسف. ريفايدين لم يكن الهدف، كان مجرد عابر سبيل علق في حرب آخرين.

ولا عجب أيضًا، وهو يتألم كل يوم، أن كل فرص الإعانة تتمثل في المساعدة المادية التي يتلقاها للتخفيف عنه، وهذه التفاصيل المالية محفورة في ذهنه بعمق مثلها مثل الأدوية والمسكنات التي عليه أن يأخذها. يمر على التفاصيل بشكل يوضح كيف تُعالج جراح ضحايا القنابل في سريلانكا.

جسده دليل يحمله يوميًا في عالم أصابه العمى.

قال إن الحكومة منحت ١٠.٠٠٠ روبية لكل ضحية، وأعطته ١٥.٠٠٠ روبية مقابل عملية جراحية في الأذن في كولمبو، والمجلس الوطني للسلام منحه ١٥.٠٠٠ آخرين. احتاج في الشهور الستة الأخيرة مزيدًا من العلاج في المستشفى. استُخرجت شظية من أعلى ذراعه بنجاح، لكن لم يمكن استخراج أخرى في أسفل الذراع لأن ذلك سيسبب تلفًا في الأعصاب.

عمل عمليات في ساقه لكنها لا تزال تتورم. يتحدث عن جسده بالقطعة. الأجزاء المتنوعة هي أشياء غير شخصية، أوزان يحملها هنا وهناك.

والدا زوجته وأشقاؤها وغيرهم لا يدعمونه ولا يسألونه عن شيء. أشقاء زوجته ميسورو الحال، سألهم العون لإتمام بناء بيته لكنهم لم يفعلوا. مُنح فقط غرفة صغيرة عندما تزوج ثم لم ينل أي دعم منذ ذلك الحين ولا مُنح أية مساعدة لبناء بيته منذ الانفجار. لو لم يحدث شيء في ذلك اليوم، لكان حاله سيكون أفضل.

عندما أسأله من يلوم، يقول في النهاية: «هذا قدري».

عندما يتكاتف كل شيء ضدك، بلا سبب ولا منطق، يصبح «القدر» تفسيرًا عقلانيًا مثل أي شيء غيره.

أسأله عن إيمانه، لو كان ذلك ساعده في وقت أزمته، وأنا واعية بحقيقة أن الانفجار حدث خلال احتفال ديني بمولد النبي.

قال بنبرة محايدة: «نعم، ساعدني»، وكأن تلك هي الإجابة الصحيحة على ما سألت.

ماذا تتمنى للمستقبل؟ السؤال الكبير يدعوه مجددًا للخروج من نفسه ومواجهة ظلم حقائق سياسية، لكن نهجه يظل شديد الشخصية والبيتية.

«إتمام بيتي»، «رؤية ابنتي متزوجة».

انسحب إلى داخل نفسه، عليَّ أن أصل بهذه المحادثة إلى خاتمة.

كان قد قضى وقتًا طويلًا من قبل، إجابة على تساؤلاتي، في شرح أهمية احتفال المولد الذي كان يحتفي به الموكب الذي استهدفه المفجر الانتحاري. شرح لي أن هذا الاحتفال يجمع بين مسلمي هذا البلد، وأنه كان يُحتفل به في كل عام في منطقة مختلفة، وأنه أُقيم في ماتارا لأول مرة حينها. عندما أفكر في ذلك، أدرك أن أسئلتي -التي سألتها كي أصل إلى

فهم أعمق- أعربت عن كوني غريبة عن ثقافته، ووسعت المسافة بيننا، وبلا شك عمقت من إحساسه بالعزلة، بكونه وحيدًا.

الآن وقد انتهت المحادثة، أخرجت خريطة ماتارا التي صنعها ابني كي يُعلِّم لي عليها أين يعيش، ذلك هو طلبي الختامي، يمنحه مساحة لرسم خريطته جغرافيًّا، القول بأن تلك هي أماكنه.

تثير الخريطة اهتمامه، ينحني إلى الأمام ويبدأ في الإشارة إلى أماكن، يأخذ قلمًا ويؤكد لي أنه قادر على الكتابة بهذه اليد.

ثم يُعلِّم بحذر على أحد الأماكن بعلامة × بالحبر الأسود: أعيش هنا، ثم × أخرى للإشارة إلى حيث انفجرت القنبلة.

عندما أخبره أني أعرف أن مسقط رأسه هي مدينة ويليجاما، التي كثيرًا ما أعود إليها والتي هي كذلك مسقط رأس أمي، يبتهج ويشرق، ويضيف إلى الخريطة عنوانه ورقم هاتفه، مؤكدًا عليَّ أن أزوره عندما أذهب إلى المدينة المرة القادمة.

يبدو ريفايدين في هذه اللحظات الأخيرة أنه تحول. يكرر الدعوة إلى بيته بصدق وتتسع ابتسامته لأول مرة، يكاد يكون منتشيًا.

يقول إن ابنته تعرف الكتابة بالإنجليزية، وسيكون في وسعه التواصل معي على عنواني في إنجلترا الذي منحته إياه.

ربما أنا أتخيل لا أكثر، لكنه بدا عندما نهض وكأن وقفته صارت أكثر استقامة من قبل. صافحني في تلك اللحظة المبتسمة وذهب مبتعدًا، ورأيت الصبي الذي كان يجد متعته في ركل كرة القدم عاليًا في الهواء.

∞

(2) أقنعة الشيطان Rashka Masks: أقنعة على شكل التخيل الشعبي للشيطان، يرتديها السريلانكيون في الاحتفالات. [المترجم]

(3) حراس الجيمونو Gemunu Watch: كتيبة مشاة تابعة للجيش السريلانكي. [المترجم]

(4) الاختبار المؤهل لدخول الجامعة في سريلانكا. [المترجم]

(5) نوناجاثيه nonagathe: فترة بين نهاية السنة السنهالية وبداية السنة الجديدة، يمتنع فيها الناس عن الأنشطة المادية، بما فيها تناول الطعام. [المترجم]

(6) سارونج Sarong: من الأزياء الشعبية الشائعة للذكور في بلاد جنوب شرق آسيا. [المترجم]

كاندي

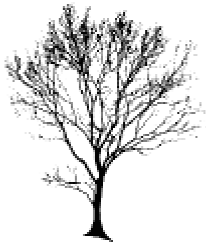

السلم والثعبان

نحن الآن في طريقنا إلى كاندي، أخر معاقل الملوك السريلانكيين، الذين أوجدوا نظام رعاية يُدعى راجاكاريا لإبقاء الجميع في أماكنهم. المدينة المحصنة بغابة غير قابلة للاختراق وجبال صخرية منحدرة، ظلت منيعة على تتابع من الغزاة الغربيين، حتى جاء البريطانيون، وأغروا وزراء الجيش بالتمرد ضد الملكية التي يعني زوالها نهاية استقلال الأرض.

تاريخ القرون الوسطى في سريلانكا هو ندبة عميقة من الجرائم ضد الملوك والأسلاف، تاريخ أمراء جامحين يقتلون آباءهم، مُلك يتوارث بشهوة الدماء والطمع. نهاية الملكية في كاندي كانت شيئًا مختلفًا، كانت في باطنها خيانة ناعمة كقُبلة لصالح القوى الأجنبية الاستعمارية.

رحلاتي إلى كاندي وأنا طفلة كانت عبارة عن تقشير تدريجي للمدن، يكشف رويدًا رويدًا عن خَضار شاسع وفير، تقطعه انفجارات لونية مباغتة؛ الذهبي اللامع لعيدان البامبو، البرتقالي الناري لأزهار الرنف الملكي، والأبيض اللؤلئي لزهور مسك الليل المتدلية بسبب التيارات المتتابعة التي تجري تحت الكباري التي نقطعها.

يبرد الهواء بينما نصعد بالسيارة الطريق الثعباني الذي يحتضن الجبل، وأبي يحكي الأساطير المتعلقة بالمكان ونحن نقطعه. كنت أبحث بعيني بين الأشجار شبه متوقعة نزول (روبين هود السيلاني)(7) من المشنقة وخروجه صارخًا من بين الأشجار، فتصرخ إطارات سيارتنا التي نفرملها بغتة.

في حين كنا نصعد في اتجاه مدخل مدينة كادوجاناوا، كانت أمي تعرب عن رغبتها في التسوق من الأكشاك المتراصة على جانبي الطريق، المكتظة بأهرامات من الفاكهة اللامعة. كانت لتهز أكياس التسوق الكبيرة التي تحتفظ بها لهذا السبب، وتقضي نصف ساعة في تقليب ثمار الفاكهة بأعين حاذقة؛ تبحث عن العفن في البابايا وتضغط لحم الأفوكادو وتستنشق رائحة كل ثمرة مانجو، قبل أن تنتقي الأنضج والأفضل.

بعد ذلك، ونحن نقترب من بيرادينيا، يأخذ أبي المخرج المجاور لحديقة الأطفال ويصعد التل، ليزور أكبر أشقائه الصغار، أناندا، وهو بروفيسور في اللغة السنهالية. كانت جبهة عمي المقببة وعيناه السارحتان على الدوام يذكرونني بحياة راحت في الحلم بالعالم الكامن وراء التلال ذات الغابات التي تحيط ببيته. زوجته، العمة الضئيلة اللطيفة روكميني، عاشت وحيدة منذ وفاته مع خادمة في بيتهما الجاثم على حافة التل. أخبرت سائقنا بالفعل أني أود التوقف هناك لزيارتها مرة أخرى.

تُسمى الطرق الرئيسية بوجهاتها، وتعتمد على الاتجاه الذي تسافر إليه. تتبدل علامات الطرق بحسب وجهة نظرك.

خرجنا من ماتارا متخذين الطريق إلى كولمبو، ثم انحرفنا بالقرب من كوتاوا، ثم انطلقنا عبر هورونا وهانويلا وكيريندويلاوباسيالا وواراكابولا، ومباشرة نحو كيجالي حيث أخذنا انعطافة مفاجئة. وجدت نفسي في مكالمة مع عمتي، أتحدث في مقاطع متقطعة بسبب ترنح السيارة، وأسمع صوتها المرتجف من البهجة بعدما أخبرها بأني سأزورها قريبًا. سائقنا نبيل يخبرنا أننا بحاجة إلى أخذ طريق مختلف لتفادي أعمال الطرق التي سببت عطلة

طويلة في رحلات قام بها من قبل. دخل بنا في فوضى من الشوارع الضيقة المزدحمة بالمارة والسيارات والمتاجر على الجانبين، قبل أن يعود بنا مرة أخرى إلى الهواء الطلق.

∞

قارع الطبول

قابلنا بياسينا في بيت صديقه الموسر الذي امتدت على أرض حديقته الملاءات البلاستيكية، فوقها استقرت لتجف كريات جوزة الطيب البنية وقشور جوزة الطيب القرمزية تحت الخيوط الرقيقة لأشعة الشمس المبكرة. يعاني بياسينا من صعوبة في المشي، لذا توجب علينا ترتيب لقائه هنا. يجلس على أريكة مخملية في غرفة المعيشة، ويشير إلى أنه لا يريد أي شاي. بياسينا رجل ذو قامة متوسطة، ممتلئ، شعره رمادي مجعد، يبدو خفيفًا مثل رجل قضى حياته متنقلًا عبر مناطق وعرة. يرتدي سارونج وقميصًا نظيفًا أزرق ذا أكمام متوسطة الطول أحد كميه يرفرف بحرية، إذ إنه خاوٍ من الأذرع.

يقول إن طفولته كانت تعيسة، فلم يكن والداه يعملان. كان الثالث بين أربعة أبناء، وشقيقاه الأكبر كانا يعملان وهما صغار، وبدأ يعمل هو أيضًا ليجني المال لأسرته قبل أن يبلغ الثانية عشرة. يقول: «لم يكن والداي واعيان بالحياة. كانا يعيشان اليوم بيومه، لم يفكرا في القادم، لم يعلما كيف يتفاعلان ويتعايشان مع الآخرين. تعيَّن على الأبناء أن يهتموا بأنفسهم».

في عام ١٩٧٨، تلقى مساعدة في عمله ليحصل على رخصة قيادة، وساعده ذلك في الحصول على وظيفة سائق شاحنات لوري. كان يسافر من وإلى الشرق ناقلًا البضائع، واضطر إلى أن يتنقل بين القرى الحدودية حيث كان الصراع بين مجموعات التاميل المتناحرة وقوات الحكومة في أوجه. يوم ١٠ سبتمبر ١٩٨٧، كان يقود شاحنة خاوية متجهًا

إلى أكارايباتو عبر غابة من خشب الساج يحرسها الجيش السريلانكي عندما أوقفه رجالٌ في زي مموه. تقدم منهم رجلان، «أحدهما من هذه الناحية والآخر من الأخرى»، وبدأا في إطلاق النار على الشاحنة.

«لو كان قد انتابني أي شك في أنهما من الجيش، كنت سأتابع القيادة. توقفت لأني حسبتهم سيأخذون الشاحنة مني».

«أطلقا النار دون أن يقولا شيئًا، أصابني الرصاص في كل مكان، أُصبت هنا، في هذه الذراع».

«أطلق عليَّ النار الرجل على يساري، لو أنهما أطلقا من يميني، كنت سأصاب من الناحية الأخرى هنا».

«الرجل على يساري أطلق النار وأصابني. لا تزال هناك رصاصة في ساقي اليسرى».

ذكرياته عن الكمين فوضوية ومتناقضة مثلما هي الحادثة نفسها.

جذب صوت الرصاص الجنود من الأشجار، سارع رجال الجيش بالرد عليه، حاول بياسينا الدوران بالشاحنة خلال المعركة. بعض الرجال المسؤولين عن الكمين هربوا.

يقول إنه لو لم يأتِ الجيش لمساعدته، ربما كان ليُقتل وكانت الشاحنة لتؤخذ منه. بعض رجال نمور التاميل قتلهم الجيش، هرب البعض الآخر، وأبقى الجنود بعضهم أحياء ليستجوبوهم.

مسؤولية بياسينا عن الشاحنة منحته التركيز، منحته وسيلة للتحكم.

بدأت المعركة بين نمور التاميل والقوات المسلحة حوالي الثانية مساءً، واستمرت ساعتين ونصف الساعة، وحسب أنه سيموت.

ما إن هدأ الوضع حتى قاد شاحنته مجددًا. ركب الجنود الشاحنة ووجهوه إلى مركز شرطة ماها-أويا. كان يسافر بصحبته شخص آخر، إيكانايا‌كي، وكان يجلس على يساره. تلقى إيكانايا‌كي رصاصات أكثر منه. بعد ساعتين، بدأت رؤية بياسينا يغشاها الضباب. كان يفقد الدماء.

«قال لي الجنود أن أقود إلى المستشفى. لم يعرفوا قيادة اللوري، لذا كان عليَّ قيادتها بنفسي».

قدت برغم كل تلك الإصابات؟

«نعم».

أخبرني لاحقًا أن إيكانايا‌كي كان صديقًا مقربًا، بائع خضراوات وصاحب سفر قديم رافقه في هذه الرحلات.

«بين ماها-أويا وأوهانا، سألت أنا وإيكانايا‌كي الماء، لكن إيكانايا‌كي فقط نال ما سأل، لا أعلم لماذا لم أُمنح الماء. إصابات إيكانايا‌كي كانت أفدح. ذلك كان في مركز شرطة أوهانا». جُهزت سيارة هناك لنقله إلى المستشفى ووصل في الرابعة والنصف مساءً، كان معه الجنود لذا وصلوا بسرعة وتلقى العناية بسرعة، نُقل إلى الجراحة مباشرة، وعاد إليه الوعي في حوالي الحادية عشرة مساءً. «نظرت، ووجدت ذراعي مبتورة. لم يكن مكانها إلا قطع».

في الصباح التالي عرف أن إيكانايا‌كي لم ينجُ في تلك الليلة.

توقف عن الحديث، ودقت ساعة حائط بضجة في تلك اللحظة. يمكنني سماع منسقنا وصحافي محلي يثرثران مع مضيفنا في الخارج.

حاول بياسينا إعادة تخيل الكمين، لكن تأثير ذلك عليه ظل محصورًا في أقصر الجمل؛ حسبت أنني سأموت. صارت رؤيتي مشوشة. بُترت ذراعي.

فيما أنا أتأمل في غياب المشاعر هذا، انتقل بياسينا فجأة إلى الجانب السياسي ولجأ إلى ترسانته اللغوية وأخذ يُطلق تصريحات كراهية متتابعة.

بعد المعركة، أُخذ الجنود المصابون من نمور التاميل إلى المستشفى في الشاحنة، كي يكون في وسعهم استجوابهم.

قال باشمئزاز: «وجدت ذلك الرجل موضوعًا في السرير المجاور لسريري».

لوهلة، حسبت أنه سيتأمل في إحساسه بدوره في إنقاذ حياة الرجل الذي هاجمه، لكن هناك المزيد.

سمع أن الجنود الذين استجوبوا الرجل عرفوا أنه كان قائد المهمة التي أدت إلى مذبحة الرهبان في أرانثالاوا. عندما جاء الأطباء لرؤية بياسينا، طلب أن يُنقل إلى سرير آخر.

قال: «لا تفرق المستشفيات بين المرضى».

استيعاب غضب بياسينا المتصاعد يتطلب فهم ماضٍ أوسع.

وقعت مذبحة أرانثالاوا في الثاني من يونيو عام ١٩٨٧ -قبل ثلاثة أشهر فقط من الهجوم على بياسينا- ويُتذكر هذا العمل في الذاكرة العامة والخاصة كجريمة من أبشع جرائم نمور التاميل. ما بدأ كمينًا لحافلة تضم رهبانًا بوذيين في رحلة حج، انتهى بذبحهم في غابة.

كان يسافر في ذلك اليوم سبعة وثلاثون راهبًا، أغلبهم مستجدون برفقة معلميهم، وأربعة مدنيين. لم ينجُ من القتل سوى أربعة رهبان، ثلاثة منهم بإصابات حرجة ورابعهم بعجز دائم. أخذت قوات الحكومة جثث الموتى وسجَّتهم على الأرض، والتقطت لهم الصور والفيديو، ونشرتها على أوسع نطاق في الإعلام والصحافة. صورة صف جثث الصغار ذوي الرؤوس المحلوقة والأعين المغلقة الممددة تحت نهر من الأرواب الزعفرانية الملطخة بالدم

وصلت إلى الأخبار العالمية، وجعلتنا نرى ما لا تستطيع أن ترينا إياه الكلمات: أن من قُتلوا وذُبحوا وسُلخوا لم يكونوا مجرد رهبان بوذيين، بل أطفال، صبية بلا حول ولا قوة.

في بلد يُعد فيه قتل رهبان بوذيين جريمة لا تُغتفر ولو قضى مرتكبها حيوات عديدة في التكفير، وحيث يُحرم على الرهبان حمل أي نوع من الأسلحة، ساهمت جريمة القتل الجماعي للرهبان الجدد في ترسيم نمور التاميل ككفرة متوحشين. تُحيا ذاكرة الحادثة كل عام، بل هناك نصب تذكاري شنيع في موقعها، حيث يمكن رؤية حافلة حقيقية تحتوي دمى للرهبان المقتولين. نصب الحافلة هذا يعاكس منطق الصورة من أجل غايات قومية صريحة. يُظهر هذا الماكيت الأجساد متناثرة على المقاعد، عالقة في أشكال متنوعة من معاناة الموت، ويظهر بوضوح أرواب الرهبان وآنية الصدقات والمراوح. هذا التشديد على إبراز تجهيزات الرهبان يؤكد بشدة على أن تلك كانت مذبحة رهبان بوذيين.

هكذا تصبح القصص أكثر حدة، تنبت لها أسنان ومخالب. عندما يلمس بياسينا كلمة «أرانثالاوا» المثخنة، يصطدم الشخصي عنده بالسياسي وينفجران. اشتعل حكيه وأخذ يتحدث في سياسات اليوم الحاضر، راسمًا الروابط بين هذه الكارثة وانعدام العدالة الذي يراه حوله اليوم.

«بعد الحادثة، أردت قتل كل نمور التاميل قبل أن أموت. ليس وقتها فقط، بل لا زلت حتى الآن. لا فائدة من السياسيين، لقد منحوا السلطة لكارونا عمان(8) وليس لنا».

أعماه الغضب.

«بل ليس فقط نمور التاميل، إن كل من يتحدث لغة التاميل هو كوتيا، نمر»، ولوح بيده الوحيدة مزدريًا.

ثم اتجه بعدها مباشرة إلى وصف حادثة أخرى تلوح في وضوح داخل عقله. قبل أشهر قليلة من مذبحة الرهبان شهد واقعة أخرى في أرانثالاوا.

كان قد سمع عن شيء ما حدث هناك، وبينما كان يمر قريبًا، وقع اضطراب في القرية. ذهب ليساعد ورأى كل شيء.

الجثث كانت في كل مكان.

تلعثم بياسينيا بحثًا عن كلمات ذات معنى تصف الفوضى الدامية التي يراها بوضوح أمامه، اتسعت عيناه أمام الصورة التي راودته حادة جلية.

«كان ثمة امرأة مطروحة على الأرض هناك، امرأة في أواخر الحمل مبقورة البطن، وجنينها كان هناك».

هول ما شهده يثقل الهواء.

جنين المرأة، ويشير بيده فوق بطنه، كان مُنتزعًا من بطنها.

منتزعًا من بطنها المبقورة وموضوعًا على كتفها، في سخرية قاسية من الطمأنينة التي كانت الأم لتمنحها لطفلها.

وكانت هناك طفلة.

على الأرجح ابنتها، في الثامنة من عمرها ربما.

هذه الطفلة كانت مُمددة فوق بطن المرأة.

بهذا الشكل، كان الكل ميتين.

ألاحظ الصدمة على وجه مترجمتي الفورية موجو، أود أن أقترب منها عندما توقفت عن الترجمة وثقل تنفسها. مهنتها تتطلب منها أن تنقل كل شيء، أن تقول كل ما تسمع، أن تمنح الكلمات الحياة من جديد. أعرف من اللغة ما يكفي لفهم أن امرأة ما قُتلت، لكن انعدام

التصديق على وجه موجو يقول إن هناك ما هو أكثر. هي تعاني، وأنا لا أحب استخراج الكلمات منها، الكلمات التي تكافح لتجعل لها معنى لكنها لا تستطيع نطقها.

«هذا مثال على الأشياء التي كان يفعلها أولئك الناس، والحكومة تمنحهم السلطة والاحترام. لا أستطيع قبول ذلك، لا أستطيع قبوله».

صار غاضبًا إلى حد أنه توقف عن تسمية نمور التاميل.

ثم توقف، ونظر إلى الطاولة أمامه.

قال متأملًا إنه حينما هوجم، لم يكن قد فعل شيئًا خاطئًا.

«لم أفعل شيئًا خاطئًا قط. لم أسرق، لم أكذب. قمت ببعض الأخطاء الصغيرة، صنعت الكحول وبعته بشكل غير قانوني لإعانة أسرتي، عرفت الشرطة بذلك لكنهم لم يقبضوا عليَّ لأني لم أضر أحدًا. فعلت ذلك اثني عشر عامًا».

يقول إنه لديه ستة أبناء، ومنذ أن خسر ذراعه لم يعد قادرًا على إعانتهم، أكبرهم كان في السابعة عشرة وقت الهجوم وأصغرهم كان عمره عامًا واحدًا. التجارة غير الشرعية كانت كل ما يستطيع فعله بعدما خسر ذراعه، فهو لم ينخرط في هذا النشاط إلا بعد الحادثة، فُرض عليه. يفهم بياسينا أنه لم يؤذِ أحدًا، بل «هؤلاء الناس» هم من يفعلون.

ثمة منطق كارماوي(9) يعمل هنا ويأخذه إلى العالم المعاصر. نومئ أنا وموجو في محاولة لطمأنته أننا نتفهم وكل شيء على ما يرام.

«عندما صار أكبر أبنائي في الثامنة عشرة، قرر أن يلتحق بالجيش السريلانكي. ابني الأكبر الآن في القوات الخاصة، وهو الوحيد الذي يرعى العائلة. عندما قرر ابني السعي إلى هذه الوظيفة توقفت عن بيع الكحول، فتلك ليست وظيفة محترمة. التحق ابني بالجيش في سن الثامنة عشرة وكذا فعل ابني الثاني، أسانكاباندارا، عندما بلغ الثامنة عشرة. يوم ٢٤

يناير ٢٠٠٩ اختفى ابني الثاني. كان ملازمًا، التحق بالجيش لينتقم من نمور التاميل. بعد ثلاثة أيام من اختفائه جاءت الشرطة لتخبرني بما حدث. اختفى أسانكا في معركة بوثوكوديروبو في مدينة مولايتيفو. بحثت عن تفاصيل معسكره، لكني حينها أخرجت الصدقات، فأنا أعرف أنه ضاع. منذ ذلك الحين أتحكم في نفسي بصعوبة. أتحكم في نفسي لأني لدي أربعة أبناء آخرين لأرعاهم. كنت سأفضل أن أكون مفجرًا انتحاريًا! أود أن أقتلهم وأموت معهم، هكذا قد يكون في وسع الناس في المستقبل الإيمان بالحياة الآمنة دون وجود هؤلاء الناس».

يهز بياسينا رأسه غاضبًا من كل هذا الظلم. امتدت قصته وأصابها لغم تاريخي آخر نقلها إلى بُعد جديد، نظام معانٍ مختلف.

معركة بوثوكوديروبو التي ضاع فيها ابن بياسينا كانت حاسمة. استمرت عدة أشهر وانتهت في إبريل ٢٠٠٩. عادة ما توصف ببداية نهاية الحرب الأخيرة. ما بدأ كمناوشة على طريقة اضرب واهرب، تحوَّل إلى حصار مرير راح فيه ست مئة من كوادر نمور التاميل، بمن فيهم أكبر قادتهم العسكريين، الذين أعربت مناشداتهم اللاسلكية طلبًا للدعم عن شجاعتهم ومقاومتهم حتى النهاية. ضياع ابن بياسينا في هذه المعركة رفع من مكانته. ذِكر ذلك بعد هجوم أرانثالاوا أعاد إليه ثقته بنفسه وقوة سرده.

يذكر بياسينا أن أبناءه الأربعة الآخرين غير متزوجين، وأنه سعيد بأن اثنين منهم مخطوبون. ثم يشرع في متابعة حكايته مثل محارب عازم على القتال.

«بعد ذلك لا يهمني ما الذي سيحدث لي»، يضحك، «لو أني أعلم اليوم الذي سأموت فيه، كنت لأرتدي فيه حزامًا ناسفًا وأذهب لقتل نمور التاميل، كنت لآخذهم معي»، ويرفع يده بحدة، فيصبح من الممكن تخيله يفعل ذلك.

أتتذكر كيف كانت هيئة من هاجموك؟

هل تستطيع التعرف عليهم؟

«أعرف وجوههم، لا يزال في وسعي رؤيتهم عندما أذهب إلى جامبولا. رأيت أحدهم يُصلح مظلة في الطريق، تعرفت عليه! لا يزال مصابًا في ساقه، أعلم أنه هو، آثار الرصاص لا تزال موجودة».

مضيفنا السخي يقدم إليه قدحًا من الشاي لا يريده حقًّا، قدم الشاي مع البسكويت، فيومئ بياسينا ويبتسم. يغرق بياسينا في أفكاره، ينسحب إلى داخل نفسه، ربما واعيًا بثورته التي تحدث عندما يفكر في نفسه وفي ابنه الضائع، يخبرنا أنه يعلم أن «كلا حياتينا ضاعت». يذهب إلى المعبد ويخرج الصدقات في ذكرى ابنه، لكنه لا يزال يرغب في الانتقام، «ثمة ثأر في قلبي».

مع ذلك، هو في صراع. من الواضح أنه لا يحب أن يسمع الكلمات التي يشعر أنه مضطر إلى قولها. الأفعال التي يذكرها قد تبدو غير محترمة، «الاحترام» يصبح الحد الأخلاقي الذي لا يتخطاه.

«لو كنت أستطيع الانتقام لفعلت، لكن ذلك سيؤثر على أبنائي. سيقول الناس في القرية عليهم إنهم أبناء قاتل وسيؤثر ذلك على احترامهم، سيفقدون هيبتهم، ذلك صعب. لو استطعت أن أزوج ابنيَّ المخطوبين سيتوليان رعاية الابنين الآخرين، عندها سأستطيع أن أنتقم».

هل لديه رسالة للناس بالخارج يود إيصالها؟

يقول: «على الناس أن يفهموا الوضع وماذا حدث في هذا البلد لعقود. طلب بعض السياسيين السلام، لكن هؤلاء الناس استغلوه. إن الحل عندهم هو السلاح. لو أن معي سكينًا سأقتل بها الأشخاص الخطأ. لست خائفًا. إنها جماعة عرقية تحاول قتل الأخرى. سيقاتل السنهاليون، سنقاتل على الدوام من يحاول أن يؤذينا».

ذِكر استخدام السكين يعيده مرة أخرى إلى حقيقة أنه عاجز عن تحقيق الانتقام الذي يريده، والاحتياج إلى أفعال رسمية وإلا قد يقتل «أشخاصًا خطأ». علق بياسينا في الصراع بين رغبته الخاصة في تصحيح مسار العالم والاعتراف بحدود قدراته. يحضرني المثل اليهودي العتيق: «يأتي السيف إلى العالم عندما تتأخر العدالة ولا تأتي». بالنسبة إلى بياسينا فشلت الدولة في تحقيق العدالة. يعلم أن أحد مهاجميه يصلح المظلات على بعد أربعين كيلومترًا، وأنا وموجو رأينا هول أحد المذابح من خلال عينيه. نعلم كيف صار يشعر بما يشعر به. أتساءل لو أن هناك أية وسيلة أستطيع بها إيجاد سؤالًا أخرجه به من احتياجاته الخاصة.

هل يوجد في مجتمعه أي شخص آخر قد عانى؟

هل يتحدث مع الآخرين عن ذلك؟

يعرف أناسًا في قريته قاتلوا في الحرب. القرويون ودودون معه، قال ذلك برباطة جأش، قبل أن يتذكر مجددًا خسارته.

«هذا كل ما بقى لي بدون ذراع».

يدعونا إلى بيته لنرى صورة ابنه الضائع أسانكا باندارا. قال لي منسقنا شانتا ونحن في طريقنا إن بياسينا من طبقة تُدعى قارعي الطبول، وإنه يعيش في مكان اسمه «قناة الملك». طبقة قارعي الطبول هي واحدة من أدنى الطبقات طبقًا للنظام الملكي، إنهم قارعو الطبول في الاحتفالات الدينية والجنائز، وهم السحرة الذين يستدعون الأرواح. وبينما نحن نمشي صعودًا على جسر شاهق، ونتهادى نازلين على منحدر طيني متخذين طريقنا إلى بيت لا شيء فيه لا يبدو مثل أنتيكة متداعية إلا تلفاز لامع، كنت أتفكر في هذا المزيج القاتل من الفقر والكبرياء، في النداء العالي لقارع الطبول وحيد الذراع لحمل السلاح.

ذكريات بياسينا تطورت خلال حكيه لقصته، ارتبطت بالتاريخ، أعطته المسؤولية والكبرياء، ودورًا كعضو في عرق خاص. حكيه أراني كيف يمكن أن تتعافى الأحداث التاريخية من هول آثارها، وكيف اتصلت بقايا كمين في أكارايباتو بالذكرى الجمعية الأكبر لأحداث أرانثالاوا وبوثوكوديروبو، وكيف يولد الماضي ويكتسب زخمًا من مثل تلك البقايا المتصلة.

خلال ذلك، بياسينا، قارع الطبول وحيد الذراع، أعاد بناء نفسه كمحارب مستعد للموت، مستخدمًا نفس أسلحة نمور التاميل لينتقم منهم. مستعد لفعل ذلك ليس فقط من أجل نفسه، بل أيضًا لأجل ابنه والمرأة الحامل الميتة التي رآها، وابنيها، وباقي الهالكين في أرانثالاوا، بمن فيهم الرهبان الثلاثة والثلاثون المقتولون. قد تكون تلك كلها تهديدات فارغة، وقد لا تكون كذلك. «الاحترام» هو ما يبقيه تحت السيطرة. الشيء الأكيد هو أن الحرب، بالنسبة إليه، لم تنتهِ.

يرحب بنا في بيته ابنه الأكبر، جندي القوات الخاصة، الذي له نفس ملامح أبيه الوسيمة باعتدال، وشقيقه الأصغر الضائع أسانكا باندارا، الذي ينظر الآن إلينا بحماس من الصور الفوتوغرافية المؤطرة التي جُلبت إلينا لنراها. يرتدي أسانكا زي الجيش الحربي، هويته مرتبطة بذلك. الجيش السريلانكي مصدر فخر عظيم في ذلك البيت.

أقضي بعض الوقت في ترتيب صور بياسينا بينما ينتظر هو على الأريكة مستمتعًا بكل ما يجري. في النهاية أجد ترتيبًا تبدو فيه الصور وكأنها متوازنة بشكل طبيعي، حيث يبدو وابنه متحاذيين. لاحقًا في ذلك المساء، بينما أرفع الصور على حاسوبي، ألاحظ صورة ضخمة للابن المتوفَّى تملأ فراغ ذراع بياسينا المفقود، وكأنه يحتضنه به، وكأنه سلاح... اكتمال لكن في الخيال.

∞

ترجمة

خلال كل مقابلاتنا، خاطبت موجو المتحدثين على نحو عائلي، واتبعت أنا خطاها. بياسينا كان «عمي»، منضمًا بذلك إلى أسرة لا تنفك تتمدد من الأمهات والآباء والأعمام والأخوال والجدود، علاقات مبنية على الثقة. نادرًا ما تجد شخصًا مثل موجو: امرأة ثلاثية اللغة ذات أعين عميقة رقيقة، ومنصتة ممتازة، وبئر من التعاطف والمراعاة لا ينضب. تماثلني في الطول وقد يحسبنا البعض أختين، لكنها من التاميل وأنا أُصنف من السنهالا. عندما كنا نتحدث مع بياسينا، كان من المستحيل تجاهل الفارق العرقي، وعندما قال إن كل متحدثي لغة التاميل نمور، لم تجفل موجو. سمعت بلا شك من قبل مثل هذا التعميم المجحف المعتاد.

بعد المقابلة، منحنا مضيفنا بعضًا من جوزة الطيب والقشور كهدية. الأوراق القرمزية ملتصقة مثل غطاء رأس شمعي على البذرة البنية اللامعة للثمرة. أعض على لحم الثمرة المر، وأشعر به ينشف فمي وحلقي، فتذبل الكلمات على لساني.

في رحلتنا القصيرة إلى المدينة أتحدث إلى شانتا، وهو موظف في المجلس الوطني للسلام فقد شقيقه التوءم خلال تمرد لجبهة التحرير الشعبية، وهي قصة سيحكيها لي لاحقًا.

أسأله عن اللغة والهوية، وأي الكلمات يستخدم.

يصف صعوبة إيجاد كلمة لوصف حالة نساء خسرن أزواجهن وليس لديهن جثث يرثينها.

يقول إن بعد عشر سنوات بلا جثة، تُمنح النساء شهادة وفاة.

بالنسبة إلى التاميل، الذين يعتبرون ترمل المرأة وصمة عار، تُمنح «شهادة غياب».

شهادة غياب.

وكأن أزواجهن زاغوا عن المدرسة أو هربوا.

وكأنهم ربما، فقط ربما، سيعودون.

∞

طريق إلى الحب

قابلت سوجاثا في شرفة بفندقنا بجوار شلال من النباتات المزخرفة؛ جديلة طويلة من أزهار الكيتول الحمراء والصفراء، تتدلى من تاج نخلة الكيتول.

سوجاثا ضئيلة، وعندها كل الدفء الأليف المعتاد من غيرها من النساء اللواتي لا أنفك أقابلهن في هذه الرحلة. صوتها ناعم ومتقطع، عيناها وإيماءاتها أكثر تعبيرًا من كلماتها. إنها حيية ومباشرة في الوقت نفسه، وتترك الجمل عالقة، فأضطر إلى استكمالها بنفسي وأملأ الفراغات، ألتقط بتلات الكلام.

بحلول نهاية محادثتنا ستتحدث بطلاقة، وكأنها كبرت ووثقت بنفسها. قصتها هي قصة جلد واعتماد على الذات ونعمة، وهي أيضًا قصة توصيلات كهربية وظفر إصبع قدم مشوه وشاحنة ديليكا حمراء.

تخبرني سوجاثا باختصار عن طفولتها بالقرب من كيجالي، حيث كبرت مع شقيقتين وشقيقين. جنى والداها رزقهما عبر زراعة الأرز وامتلاك مزرعة مطاط. بعد دراسة مستوى O ذهبت لتعيش مع شقيقتها المتزوجة وزوجها... زوج أختها سيكون له أهمية كبرى في حكايتها.

ثم تقول بابتسامة خجولة: «وكان هناك أحدهم». آه، أخبريني عنه، أخبريني عن هذا الرجل المميز، تقول ببساطة محايدة: «صرنا أنا وهو أصدقاء».

من الواضح أن حياتها بدأت في ذلك الحين.

تخبرني أنه كان يعمل في قطاع الكهرباء -قسم الكهرباء في البراديشيا سبها[10] - في ألاواثوجودا. في ذلك الوقت، كان هناك القليل من الخدمات الكهربية في البيوت. كان يمر بالقرب من بيتهم كل يوم ويعرج عليهم، وينادي على زوج شقيقتها ويسأله إن كان بحاجة إلى وصلة كهرباء، لو كان بيتهم بحاجة إلى مثل هذا العمل.

سوجاثا في خمسيناتها، لكن عينيها لبنت صغيرة تكتم ضحكتها بينما تتذكر تحايله وإلحاحه وافتتانه بها.

بعد بعض الوقت أرسل خطابًا عبر صديق لزوج أختها، كان خطاب توصية من نوع ما. قال الخطاب إنه شخص طيب وأنه مهتم بها.

كلمها زوج شقيقتها وسألها إن كانت تعرف هذا الرجل وتقبله، قالت إنها تعرف فقط اسمه، «ساماراسيكرا» أو «ساماري»، وتعلم أين يعمل. ثم أرسلت رسالة عبر ابنة أختها لزوجها المستقبلي، تقول فيها إن زوج أختها يرغب في الحديث معه مباشرة.

تذكر سوجاثا كل تفصيلة فيما حدث بعد ذلك، وتحكيه وكأنه حدث بالأمس. تحكي كيف رنّ ساماري جرس دراجته من الطريق تحت بيتهم، وكيف هرعت إلى خارج البيت، وكل الحماس الطائش المصاحب للأمر.

جهزت عندها الشاي في حين تحدث معه زوج أختها. هل أنت في علاقة معها؟ ما هي خططك؟ هل تنوي على صداقة طويلة الأمد أم زيجة؟

قال: «أود الزواج بها».

سألهما زوج شقيقتها: هل لكليكما نفس الرغبة؟

ثم اتجه إلى ساماري: لو رفضها أبوك وأمك، كيف ستشعر؟

قال: «لا يهمني من يرفضها، أحتاج إليها».

في ذلك الوقت كان ساماري في الثانية والعشرين، وكانت هي في السادسة عشرة فقط.

ثم وصفت حماسها المتعاظم بينما ينتشر الخبر، وسأل زوج أختها عن ساماري كما ينبغي، فتحدث عنه العديد من الناس بالخير، وأرسل إليها كارت ويساك(11) لا تزال تريه لأبنائها. من الجلي أنها تحدثهم طوال الوقت عن ساماري وذلك الزمن المميز.

كتبت له الرسائل بانتظام، فلم يكن لديهم هاتف. استرجاعها لوقت الكتابة ذاك يصف الاشتعال البطيء المميز للحب الأول.

تحدث عندها زوج أختها مع العائلتين، عائلة سامارا وعائلتها، مستكشفًا توافق الطبقات والأبراج، ثم اجتمعت العائلتان وأخبرتاها بما تعرفه هي مسبقًا: أنه زوج مناسب، وشخص ممتاز. ثم تزوجا، كانت في الثامنة عشرة عندها.

«أقمنا في منزل أختي، وقال زوجها إننا بوسعنا البقاء بقدر ما نرغب، وعندما صرت حبلى انتقلنا إلى بيت عائلة زوجي، على بعد كيلومتر تقريبًا».

لساماري أربعة أشقاء وشقيقتان متزوجتان، وأمه عاملتها جيدًا. «أحبتني، أحبتني أكثر مما أحبت شقيقتي زوجي».

زوجها وحموها كانا يكسبان قوتهما، الحياة كانت طيبة. كانت سعيدة وآمنة وشعرت بالحماية في هذا الوقت.

أنجبت مرتين بعد ذلك، بنتين بعد الولد الأكبر. عندما كان ابنها في التاسعة، وكانت البنتان في السادسة والثالثة، بدأت مشاكل جبهة التحرير الشعبية JVP. وجد سوجاثا وساماري أنفسهما محاصرين بين نيران جبهة التحرير الشعبية، والعنف العشوائي لجماعات الميليشات مثل مئات العائلات الأخرى في المنطقة.

«كان ينتظر زوجي كل يوم يذهب فيه إلى العمل خطاب من جبهة التحرير، يحذره ويخبره ألا يذهب إلى العمل. قالوا له ألا يوفر الكهرباء ويغلق المكتب، وإلا سيعاقبونه. كان يقول إن الذهاب إلى العمل بات مخيفًا. عمل في النوبات المسائية، التي لم يكن الآخرون مجهزين للعمل فيها، فعلها لأن مكان عمله كان قريبًا من بيتنا».

طلبت منه جبهة التحرير أن يوصل منشوراتهم إلى البيوت بينما يقوم بعمله، لكنه رفض، متعللًا بانشغاله بمهام وظيفته.

قال لهم: «أوصلوها بأنفسكم»، وتابع عمله مثلما كان يفعل. قال إن ليس لذلك علاقة به، وترك الخطابات في مقر عمله.

«جعلته تلك الخطابات متوترًا، لم يعلم ماذا يفعل، لم يتحدث عن خوفه إلا معي».

مع ذلك ألحت جبهة التحرير عليه وطلبت منه إغلاق المكتب. ذات يوم، ذهب إلى عمله ووجد أنهم سكبوا الوقود على كل شيء. هكذا قاطع عمل جبهة التحرير وأحبط هجومهم. ظلت خطابات التهديد تصل يوميًا لمدة شهرين.

ثم قبل يوم الويساك، يوم ١٨ مايو ١٩٨٩، تردد طرق على باب بيتهم. كانت سوجاثا تشعل فوانيس الويساك، وساماري أجاب الباب.

وجد نفسه في مواجهة عدة رجال متخفين في أقنعة سوداء، شهر أحدهم سلاحًا في صدر زوجها وبدأ في الكلام المعسول: «سيد ساماري، إنهم لا يدفعون لك ما يكفي»، «لماذا تعمل بمثل هذا الراتب الضئيل؟ هذا لا يصلح للحياة!»، وأسئلة مماثلة، «قالوا «إنك تتحدث عنّا بالسوء. أتعلم ماذا نفعل بمن يتحدث عنّا بالسوء؟»». اتخذت خطابات التهديد أخيرًا هيئة بشرية.

لم ترَ وجوه الرجال المختبئة تحت الأقنعة، لكن كان في وسعها سماعهم بوضوح، وتعرفت على بعض الأصوات. اثنان منهم كانا معلمين في مدرسة الأحد التي كانت تُدرس فيها،

وكان في وسعها رؤية أقدامهم الحافية، تعرفت في أحدهم ظفر إصبع مشوه لاحظته من قبل.

جادل زوجها، وهي توسلت، عندنا ثلاثة أبناء، كيف نعيش دون وظيفته؟ لا تؤذوه، إنه يحتاج إلى العمل كي يعيلنا.

قالوا وهم يغادرون: «لو تحدثت عنّا بالسوء سنعاقبك».

ثم هدأت الأمور حتى الرابع من ديسمبر ذلك العام.

تابعت سوجاتا لتصف لي ماذا حدث في ديسمبر، ولم يحدث إلا لاحقًا، عندما سألتها إن كان هناك ما يمكن فعله لوقف التهديدات اليومية، قالت لي إنها تحدثت علنًا عن الشر الذي طرق على باب بيتها الأمامي. ذكرت لي ذلك كاستدراك، وكأنه شيء غير مهم في حكايتها.

«ذهبت إلى المدرسة يوم الأحد بعد عيد الويساك، وقلت لهما في وجهيهما: «أعلم أنكما متورطان، لا تأتيا إلى قريتي وتهدداننا... ليس فقط أسرتي، بلا لا تهددا أي أحد»».

وماذا قالا؟

«لا شيء، التزما الهدوء».

ألم تخشَ من مواجهتهما؟ من التحدث إليهما علنًا بهذه الطريقة؟

«لم أخف، كان هؤلاء الناس أصدقاء».

تقول أصدقاء، وأفهمها على الفور، لا تحتاج هذه الكلمة إلى ترجمة.

في عالم من الأعداء المجهولين، يصبح الأصدقاء أولئك المألوفين، المعروفين. الكلمة أمست ذات وزن وبلا وزن في الوقت نفسه، بلا ثقة. تغيرت ألوان وسمات الصداقة في هذا

الزمن.

عاشوا آمنين من تهديدات جبهة التحرير حتى مساء يوم ٤ ديسمبر ١٩٨٩، ذلك كان بعدما عادت الأسرة من جنازة أحد أقارب الزوج من مدينة سيجيريا. وصلوا البيت في الرابعة مساءً، وكانوا جوعى بعدما قضوا اليوم دون تناول أي شيء، فمن المحرمات أكل أي شيء في دور الجنازات.

«قال «لماذا لا تذهبون وتطهون شيئًا سريعًا؟ سأعود قريبًا»، أبقيت الأطفال الثلاثة بصحبتي، عليّ أن أطهي لهم أيضًا».

في الخامسة تقريبًا ذلك المساء، بدأت في طهي وجبة عائلية، ووضعت الأرز على الموقد. سمعت أصواتًا فتوجهت إلى الخارج: «ليس بعيدًا جدًا، في أحد الحقول القريبة، على رأس حقل أرز غير بعيد، كان هناك العديدون من الشرطة والجيش»، بعض الجنود كانوا يستجوبون الناس من بيت إلى بيت على الطريق.

«كانوا ينتقلون من هنا إلى هناك، عندما عدت إلى البيت قلت لشقيق زوجي الأكبر: «لا أعلم لماذا يفعلون ذلك»، فقال لي إنهم ربما يبحثون عن شخص ما. أحيانًا كان أفراد الجيش يأتون ويأخذون زوجي ليقوم ببعض الإصلاحات الكهربية في بعض أماكنهم، لذا لم أشعر بأي ريبة».

خرج شقيق زوجها الأصغر، وسأله الجنود مباشرة: «من هو ساماري؟ وأين هو؟»، فأجابهم ببساطة -ببساطة أكثر من اللازم- بأنه لا يعرف.

«أخذ الجنود قطعة خشب وأخذوا يضربونه بها، بشكل ما استطاع الإفلات، عندها اتجهوا إلى بيتنا حيث كان شقيق زوجي الأكبر يستريح مرتديًا السارونج».

سألوه: «أين ساماري؟ وأين يعمل؟»، فقال شقيقه -في تشوش المستيقظ فورًا- إن أخاه في عمله في قسم الكهرباء بالبراديشيا سبها.

قالوا إنهم بحاجة لأن يجدوه، خذنا إلى هناك.

طلب شقيق زوجها من زوجته أن تجلب له قميصًا، لكن الجنود قالوا إنه لا يحتاجه: هيا معنا!

«عندها شعرت بشيء، شيء يشبه الخوف. لقد نادوه بـ«أومبا umba»، وهو شيء لم يفعلوه من قبل». كان الجنود دومًا محترمين وينادون زوجها وأشقاءه بلقب سيدي، قول (أومبا)، وهي الكلمة الأقل احترامًا من (أنت)، تعني أن ثمة شيء خاطئ جدًّا.

أخذوا عندها شقيق زوجها الأكبر في شاحنة وتبعتهم هي وأخت زوجها الأصغر على أقدامهما. كانت تمشي على الطريق متأخرة جدًّا، أبعد بكثير من أن ترى ماذا حدث. الحدث الذي يتضمن اختفاء زوجها وقع على مسافة بعيدة منها، حدث كذكرى ثانوية، كفعل متخيل. الشاهد على الواقعة كان الجراماسيفاكا، رئيس القرية.

وقفت الشاحنة عند مكتب زوجها وترجل منها الجميع، نادى عليه الجنود، هتفوا باسم ساماري في الظلام المتنامي.

خرج، غير متأكد مما يحدث.

قال الجنود: «كنا نبحث عنك»، وشدوه إلى داخل الشاحنة.

سأل رئيس القرية: «لماذا تأخذونه؟»

قالوا له: «لا شأن لك»، وشتموه.

سألت إن كان بوسعها أن تخبرني بالكلمات التي استخدموها، فحاولت سوجاثا أن تُخشن صوتها.

«لا شأن لك يا ابن العاهرة، عد إلى عملك!»

أصبحت هادئة وهي تعيد تخيل الحادثة مرة أخرى في عقلها.

الأرز على الموقد، المشادة مع الجنود، التمشية الطويلة خلف الشاحنة التي ستأخذ زوجها بعيدًا، وكان هناك شيء آخر: زوجها اختفى داخل شاحنة ديليكا حمراء قديمة بلا لوحة أرقام.

تتذكر بوضوح الشاحنة التي اتبعتها ذلك اليوم. هذه التفصيلة تضع قصتها بلا لبس في سياقها الزمني.

شباب كثيرون اختفوا في شاحنات بلا أرقام، هوجم الكثيرون وقُتلوا بواسطة «مسلحين مجهولين» معروفين جيدًا. قشرة المجهولية الواهنة صارت السمة المميزة لعمليات الخطف من الأحياء حيث يرتكب العنف في الأغلب الأصدقاء أو أصدقاء الأصدقاء، سلسلة بشرية قاتلة تبدأ بطرقة على الباب. ذلك كان واحدًا من أسرار عامة عديدة، حقائق يعرفها الجميع لكن لا أحد يناقشها من الخوف.

شردت سوجاثا لوهلة في لحظة اختفاء زوجها، ثم صار في وسعي رؤيتها تعود إلى البيت حيث الأرز على الموقد. لا أستطيع التفوه بالسؤال الذي أريد إلقاءه: إن كان زوجها قد أكل أي شيء قبل أن يخرج من المنزل في يومه الأخير فيه.

ذهبت سوجاثا إلى مركز الشرطة كل يوم لثلاثة أيام، وفي كل مرة كانوا يخيبون مسعاها على الباب. أخبروها في تلك الأيام الثلاثة بأنها ليس في وسعها تسجيل شكوى رسمية، لكن في اليوم الرابع، دخلت ورأت الشرطي المسؤول، السيد أوكولوجاما، الذي كان يعرف زوجها، فقد قام ببعض الأعمال الكهربية له.

بدا متعاطفًا وودودًا، قال: «ما المشكلة يا عزيزتي؟»، وسألها لماذا هي هنا. «ووقتها فقط صار في وسعي تسجيل شكوى رسمية».

أخبرها الشرطي المسؤول أن أربعة رجال اختُطفوا في الأسبوعين المنصرمين، بمن فيهم تيسّا، أحد زملاء زوجها، وزوج صديقة لها، «لم يكن من جبهة التحرير، كان أشقاؤه كذلك، لكنه الوحيد منهم الذي لم يكن»، وفتى في الثامنة عشرة من عمره.

قال لها إن ثمة آخرين يبحثون عن أحبائهم المفقودين، وآخرين مُنعوا من الدخول إلى مركز الشرطة. بحثها تضمن الذهاب إلى مُنجمين ومعابد ومعسكرات احتجاز. تفكر في ذهابها إلى المنجمين، لم يخبروها إلا بالأكاذيب وتربحوا من خسارتها. لا يمنحون إلا الأمل، وهذا كل شيء.

لأشهر طويلة، ظل شقيق زوجها الأكبر يذهب إلى كل مركز شرطة ومعسكر، وذهبت هي إلى السارفودايا والصليب الأحمر ولجنة حقوق الإنسان. قالت أسماء شخصين ساعداها هناك، منهم الآنسة جايانثي، التي اختُطف زوجها أيضًا.

بعد عشر سنوات، يئست، وأخرجت الصدقات لأجله.

تقول: «لم أقدم الطعام إلى المعبد كل تلك الأعوام، لكني فعلتها بعد عشرة أعوام. لم أكن أستطيع تخيل كيف أفعل ذلك. كان وقائيًا جدًا إلى درجة أنه لم يسمح لي حتى بالذهاب إلى المتاجر. عندما سمعت بما حدث له لم أستطع التصديق، كان ذلك وكأني وقعت من السماء».

تقول لي إن ابنها كان في الصف الخامس، وأراد أن يذهب في منحة دراسية، ساعده والداها وشقيق زوجها، لكنها أرادت أن تفعل شيئًا، فصنعت الطعام وباعته في المتاجر. كانت تفكر في أطفالها وتعليمهم، «نصحني بعض الناس بالبحث عن عمل في الشرق الأوسط، لكني لم أحب أن أترك أطفالي».

منحتها الحكومة ١٥.٠٠٠ روبية تعويضًا، لكن النقود لم تُحوَّل لها لعشرة أعوام. أدركت حينها أن تأخيرها للصدقات وطقوس الجنازة، كان تنازلًا عن هذا الأموال لعشرة أعوام. أملها كان

يساوي عندها أكثر من أي منفعة مالية.

ثمة الكثير مما أود سؤاله، خاصة لماذا أخذ الجيش زوجها، هل بلغت جبهة التحرير الشعبية عنه؟ هل ادَّعوا أنه مُسبب مشاكل انتقامًا من مقاومته؟ ماذا حدث لمعلمي مدرسة الأحد؟ أفكر هنا في العدالة المفقودة.

سوجاثا -مثل تشاندريكا التي سنقابلها بعد قليل- فقدت زوجها في ١٩٨٩، أكثر أعوام تمرد جبهة التحرير الشعبية عنفًا، عندما أقسم الجيش السريلانكي ومجموعات الميليشيات أن ينتقموا بأخذ اثنتي عشرة حياة مقابل كل حياة تأخذها جبهة التحرير. ذروة القتل كانت في ديسمبر ١٩٨٩، عندما تربعت أرقام سريلانكا على قمة أرقام الوفيات ذات العلاقة بالحرب في العالم حينها.

لكن أعين سوجاثا تخبرني أن إلقاء الأسئلة التي أود سؤالها سيكون فعلًا عنيفًا في حد ذاته. كانت حكيمة في تأملها للرحلة الطويلة التي قطعتها، للطريق الذي يربطها بزوجها وبنفسها الكامنة في أعماقها.

لقد حافظت على عقلها نظيفًا في حين هي عالقة بين قوى العنف المتصارعة. أقرت بمعاناة الآخرين، وتأملت في وقتية المعاناة، وتذكرت ما هو أكثر دوامًا: عمق محبة زوجها والعلاقة التي بدأت برنة جرس دراجة. في آخر كلماتها سمو ووضوح وعزم مُزلزلون، هم لي بمثابة ضوء الشمعة، لا حاجة إلى سؤال المزيد.

«أشعر الآن أنني شخص أفضل وأكثر احترامًا. وفرت لأبنائي تعليمًا جيدًا، ذهب أحدهم إلى الجامعة وحصل على وظيفة، والآخر صار مُعلمًا. حصل اثنان من أبنائي على شهادات وجميعهم متزوجون. لست متأكدة من فهمي لما حدث. لقد عانيت كثيرًا، لكن برغم كل شيء استطعنا أن نرفع أنفسنا عاليًا. ما دام الحزن غير دائم، فلن يكسرنا. نستطيع أن نتجاوز الحزن، وعندها سيكون بوسعك فعل أي شيء. أنا قادرة الآن على التحدث مع أي شخص. علمت أبنائي أن يمضوا قدمًا. نحن ناس تختبئ في بيتها، لكن عندما يحدث

موقف ما، عليك أن تنهض وتخرج. لن يحدث قبل أن تخرج من منزلك أن تعرف قوتك الحقيقية».

∞

شظايا

قبل عودتي إلى إنجلترا بشهر، دخلت عالمًا مائيًا، صار يهزني كل يوم الشعور بأني على سفينة متأرجحة. شخصني الطبيب بالدوخة والصداع النصفي، ووصف لي حبوب تبدو كلآلئ المياه العذبة.

كاندي، ٢٨ أغسطس.

رحبت بي عمتي، وضمتني إلى صدرها بعمق. ظللنا طوال المساء نناقش الضياع البطيء لأمي، والظل المتعمق للابن.

في التاسعة مساءً آلمتني رأسي بشدة وكأني ضُربت بحجر رماه أحدهم من مسافة هائلة.

كاندي، ٢٩ أغسطس.

من فوق الطبقات المتدرجة لجبال هوناسجرييا، تشرق الشمس على أجنحة طائر الشمس، مرصعة بالأزرق والذهبي.

في المساء، بعد كل الحديث وإراقة الدماء، تجمع الجبال الظلام لنفسها، تاركة رقائق متناثرة من الضوء. شظايا على بحيرة زجاج.

∞

أرض الظلال

كانت تشاندريكا تقرأ في غرفة ملاصقة ريثما أتحدث مع سوجاثا، صديقتها. تقاطعت سبلهما خلال بحثيهما عن زوجيهما الضائعين، اللذين اختُطف كلاهما في كاندي خلال ديسمبر ١٩٨٩.

تقترب مني تشاندريكا بهالة من الثقة، تقول لي وهي تجلس: «أنت تفعلين شيئًا جيدًا». أتأكد من أنها تعلم بالفعل ما تريد قوله.

غير أن قصتها تتشعب وهي تحكيها، بينما هي تحاول أن تضعها في سياقها الزمني باستخدام حقائق تاريخية لترسيخ حكايتها، وكأنها بحاجة إلى مصادقة، أو كأنها غير متأكدة أين يكمن المعنى.

تتحدث بسرعة وتعقيد، تقول إنها درست الموسيقى والفن في الجامعة. خلال حديثنا يصبح من الجلي أنها تفهم الإنجليزية، وواثقة بنفسها كفاية لتتحدث بها، مع ذلك أنا عازمة على التقاط أوراق الحقائق التي تطفو على النهر العميق لحديثها.

ما تبع ذلك هو حكاية مفتتة نظل فيها ندور حول أسرار عامة، ونصل إلى أقصى حافة الحقائق المخفية التي لا تُذكر. كلمات تشاندريكا تُظهر أن جرح الثقافة يبدأ بالإرهاب، بالخوف الوجودي، وأن روابط المجتمع واهنة، وأن أي شخص يمكن أن يتحول إلى واشٍ فقط لو عُرضت عليه فرصة لأن يعيش بضع ساعات إضافية.

تبدأ تشاندريكا بإخباري كيف كانت طفولتها طيبة، وكيف وُلدت في كاندي وعاشت قبالة البحيرة مع خمس أخوات، وكيف كانوا جميعًا مقربين. تتغير نبرتها عندما تتذكر والدها. كانت عنده وظيفة جيدة في التنظيم المدني، لكن «أنا لم أعرفه إلا رجلًا مريضًا». تتذكر كل الأدوية التي احتاجها، وكانت في الخامسة عندما توفى.

وفاة أبيها غيرت كل شيء. أمها لم تعرف كيف تقوم بإجراءات معاشه، والأطفال كانوا أصغر من أن يساعدوا. حصلت أمها على وظيفة في صيدلية. في دولة ذات واحد من أعلى معدلات معرفة القراءة والكتابة في آسيا، كانت أمها واحدة من القلة النادرة الأميين.

تقول تشاندريكا: «لم تستطع أن تمنحنا الملابس الجميلة، لكنها منحتنا ثلاث وجبات في اليوم وتعليمًا جيدًا. لم تكن هناك أموال، لكننا كنا سعداء. أسعد ذكرياتي هي التمشية برفقة شقيقاتي وأشقائي في مدينة كاندي».

درست في كلية ماهامايا، وأخواتها أحسنوا الأداء في الدراسة. الإنجازات الدراسية وأماكن التعليم تصبح معالم رئيسية في رحلتها، جنبًا إلى جنب مع بعض الحقائق العامة المحورية.

«أنا مغنية. حققت المستوى A في الموسيقى، ودخلت الجامعة من ثاني محاولة. أحد أشقائي توقف عن دراسته ليدعم دخولي الجامعة. شاركت في مسابقات بين المدارس، وذهب هو إلى كلية فيديارثا. كان يدرس الفن عندما قابلته هناك. درست الموسيقى الشرقية -النوع الذي جعله أماراديفا(12) شائعًا - وكنت أقابله عادة في مسابقات الغناء الكلاسيكي. كنت حينها في الثامنة عشرة وهو في العشرين. ذهب إلى جامعة كيلانيا ليدرس الفنون».

أستغرق وهلة لأدرك أنها تقصد بـ«هو الذي ذهب إلى كلية فيديارثا» نيسانكا باندارا، زوجها المستقبلي. لقد انزلقت من ذكر شقيقها إلى ذكر زوجها من فرط تعجلها لتقديمه إليَّ.

كانت على معرفة بعائلة نيسانكا، وصديقة لأخته. كان من أسرة ميسورة، ووالداه مُنحا مزرعة قهوة وفلفل وكاكاو وجوز هند عند الزواج. عارضت أمه الزواج في البداية، عدتها فقيرة جدًّا. سألت ابنها: «إنها لا تملك إلا تعليمها وطبقتها، وهي ليست حتى جميلة إلى هذه الدرجة. لماذا تتزوجها؟»

تشاندريكا أيضًا سألته إن كان متأكدًا من رغبته في الزواج بها، لكنه أصّر، وبعد الزواج شجعها أن تقوم بأعمال اجتماعية.

تقول تشاندريكا: «حظي بفرص عديدة ليغير رأيه في الزواج بي».

وكانت هناك أيضًا مسألة الأبراج، كل من برجه وبرج أمه قد أشارا إلى أنه لن يعيش طويلًا.

هل تؤمنين بما تقوله الأبراج؟

«لم أنصت إليها، لا أصدق في كل ذلك»، تقولها بخفة وازدراء، مديرة وجهها بعيدًا عن القدر.

عندما تزوجت، ذهبت لتعيش مع عائلة نيسانكا الضخمة في ممتلكاتهم.

كان هناك ثلاثة عشر شخصًا يعيشون في البيت الرئيسي، فأخت زوجها أيضًا وعائلتها عاشت هناك. كان في ممتلكات العائلة «خطوط»، أي بيوت شعبية، فيها عاشت العمالة التاميلية. كل خدم العائلة كانوا من التاميل، وفي ١٩٨٣ اندلعت المشاكل بين السنهالا والتاميل.

«جاء كثير من التاميل ليختبئوا في المزرعة. جاءوا ليحتموا مع أبنائنا، وحميناهم. لكن كثيرًا من السنهاليين لم يحبوا ذلك. أرسل القرويون الرسائل التي تطلب منا ألا نحميهم، وكان هناك الكثير من التهديدات الموجهة إلى أسرتي. والد زوجي كان رجلًا طيبًا وقال «هؤلاء أناس يعانون، نحتاج لأن نساعدهم». جلب جوالات الأرز وجوز الهند لإطعامهم، وقمت أنا وشقيقة زوجي بالطبخ. لم نعتقد قط أن ما نفعله خطأً».

ماذا عن التهديدات؟ ألم تقلقي؟

«لا، لم أشعر بالخوف، شعرت بالغضب من التهديدات. شعور نيسانكا كان مماثلًا. كان طيبًا وعصبيًا، هذان هما جانبا شخصيته، كره الظلم وأحب الناس، وهذا كل شيء».

بات من الجلي أن ما بدأ حبًّا متبادلًا أصبح قضية متبادلة.

عام ١٩٨٤ وُلد أول أبنائهم، وانتقلوا إلى بيت صغير في المزرعة، حيث عاشوا منفصلين عن الأسرة الممتدة. وضحت تشاندريكا أن تلك الفترة كانت زمنًا حاسمًا، اشتعل العنف وانتشر بسرعة في البلاد.

أستغرب هذا التوضيح، يوليو الأسود(13) وتوابعه أشياء معروفة جدًّا إلى درجة أني أستغرب حاجة تشاندريكا لتوضيح ذلك. تبدو تشاندريكا، بربطها قصتها بسردية الحرب الكبرى، أنها تحاول عقلنة الأحداث، إيجاد معنى لها، تأريخ خوفها.

شعرت تشاندريكا بالهشاشة خلال ذلك الوقت. كانت أمًّا شابة لطفلين عليها حمايتهما، وحدها معهما في بيت صغير، يتعاظم الظلام حولهم، وتتصدى الأصوات. قد يتجسد الظل ليصبح خنزيرًا بريًّا أو شيئًا آخر.

ذات مساء، ناداهم شقيق زوجها الأصغر ليراهم في بيتهم الصغير، وقال لهم إن الجراماسيفاكا، رئيس القرية، يود رؤية زوجها في بيت العائلة. كان ابن تشاندريكا الصغير ذو الأشهر الخمسة بين ذراعيها عندما راقبت زوجها يختفي في الظلام وحده.

لم ترَ ما حدث بعد ذلك، بل قيل لها، لذا يتكثف الحدث في جملة سريعة، وتمضي الحكاية قدمًا.

«ذهب إلى بيت العائلة وبعض الرجال من القوات الخاصة وضعوا مسدسًا في صدره وأخذوه بعيدًا. ظل محتجزًا لثمانية عشر شهرًا». كلمات حماتها اللائمة التي لا تهدأ تحول قصة تشاندريكا إلى نهر جارٍ من الاستهجان. لماذا تركتيه يذهب! لماذا تركتيه يذهب! تأتي كلمات حماتها حادة وقوية.

ثم امتد اللوم ليشمل الجراماسيفاكا الذي «ارتجف في حين أخذت حماتي تصرخ فيه».

احتج الجراماسيفاكا: «لم أعتقد أن ذلك سيحدث. طلب مني رجال القوات الخاصة أخذهم إلى بيت عائلتكم. قالوا لنيسانكا إنهم يريدون أن يستجوبوه. أخذوه إلى مركز شرطة باديجاما».

تضفي تشاندريكا الدراما على الأحداث فتخرج منها كعرض أوبرالي؛ لسان حماتها اللاذع، اعتراض الجراماسيفاكا المرتبك. غياب صوت نيسانكا عن هذه الدراما لافت، وكأن ثمة ترقب لضياعه. تملأ تشاندريكا فراغ اختفائه الأول بكلمات حماتها، وتستمر في تكرارها، وتصبح منخرطة في اللحظة إلى درجة أن أسئلتي تأتي كتدخل باهت لا تسمعه، أضطر إلى تكرارها.

ما الذي فكرتي فيه عندما لم يعد زوجك في تلك الليلة؟ هل قلقتي؟

«لم أفكر في الأمر، كان من العادي أن يقضي ليالي متأخرة في البيت الكبير مثرثرًا مع أشقائه».

هل فكرتي في الذهاب لرؤية أين كان كل هذا الوقت؟

«كان يفقد أعصابه بسهولة. لو كنت قد بحثت فربما كان ليوبخني لسؤالي عنه».

تبدو ذكريات تشاندريكا وكأنها تأتي محمولة على هجمة من الخوف الممتد. خوفها من الظلام، الذي منعها من الخروج، خوفها من عصبية زوجها، خوفها من شلال كلمات حماتها التي يبدو أنها لا تزال تسمعها.

ذهبت الأسرة كلها إلى مركز شرطة باديجاما، وظلت حماتها تلومها طوال الرحلة: لماذا تركتيه يساعد التاميل؟ لماذا لم تمنعيه من ذلك؟ الزوجة الطيبة كانت ستمنعه من ذلك.

قيل لهم في مركز الشرطة -بشكل غير رسمي- إن نيسانكا أُخذ إلى الطابق الرابع سيئ السمعة في قطاع المباحث الجنائية بكولمبو، مركز الاستجوابات الذي قد يؤدي إلى وفيات

غير رسمية.

أستطيع سماع صوت اعتراض حماة تشاندريكا يتعالى عندما تسمع ذلك، وأستطيع تخيلها بأيدٍ مرفوعة تشق الهواء في غضب بينما يتراجع الناس أمام صياحها، وأتساءل كيف لم تواجه هذه المرأة الصاخبة ابنها بنفسها.

هل حاولت حماتك قط أن تمنعه من مساعدة التاميل؟

«لا، لم تحاول أن تتحكم فيه، لم تستطع»، تأتي المعلومات الآن سميكة وسريعة.

احتفظوا به في مركز شرطة بوريلا. ابن عم لها يعمل شرطيًّا عرف بذلك وأخبرها به «بشكل غير رسمي». ذهب شقيقها لزيارة نيسانكا هناك، وقال إنه على ما يرام، لكنه يرتدي نفس الملابس. سافرت تشاندريكا لتراه في اليوم التالي ومعها الرضيع: «لقد أحب الرضيع، وكان سعيدًا لرؤيته، وحزينًا لكونه بعيدًا عن الأطفال».

طمأنها وأخبرها ألا تقلق، قال لها إنه لم يرتكب خطأً.

كان عليها ملء استمارة زيارة، ولاحظت أنه مُصنف كسجين سياسي.

«كان هناك العديدون ممن يُطلق عليهم ذلك. هذا كان زمن فيجايا كوماراتونجا، وليونيل.

مع أنهم اعتبروه سجينًا سياسيًّا، لم توجه إليه تهمة، ولم يحاكَم قط. كنّا قادرين على توصيل الطعام إليه ورؤيته وقتما أردنا. ذهب إليه أخي الأصغر كل يوم، وذهبت أنا كل أسبوع، وشعرنا بحمل ذلك علينا ماديًّا، لم أكن أعمل. احتفظوا به لثمانية عشر شهرًا، وفي آخر شهرين أجروا مزيدًا من التحقيقات، وسألوه إن كان جزءًا من جبهة التحرير، ولماذا يساعد التاميل؟».

اسألها لو تعرف إن كان قد تعرض للأذى.

«لم يؤذَ في مركز الشرطة. انتظرنا بصبر، قالوا له قبل يومين إنه سيُطلق سراحه. أخلوا سبيله دون توجيه تهم. ساعدنا حماي خلال ذلك الوقت، كان شخصًا طيبًا. ساعدنا في توسيع بيتنا. عاش معي أخي الأصغر. ظلت حماتي تقول: «لو كان سلوكك سليمًا كنتِ لتنصحيه ألا يساعد هؤلاء الناس». عندما عاد زوجي إلى البيت شكر كل من ساعدوا في رعايتي ورعاية أطفالي. عاد إلى العمل في المزرعة. أخبرنا ألا نكلف أنفسنا عناء التقاطه من مركز الشرطة، وأنه سيتخذ طريقه إلى البيت بنفسه. ثم بعد عامين، بدأت مشاكل جبهة التحرير».

تتحدث تشاندريكا بسرعة متقطعة، وتركز على كلمات بعينها. قيلت لها أشياء «بشكل غير رسمي»، وقيل عن زوجها «سجين سياسي» لكن لم توجه إليه تهم.

إدراكها للزمن التاريخي انحرف قليلًا بينما تحاول أن تربط حكايتها بشخصيات وأحداث عامة. فيجايا كوماراتونجا، الممثل الشهير والسياسي، وزوج رئيسة الوزراء المستقبلية، كان بالفعل قد احتجز واستجوب، لكن ذلك حدث بعد سنوات من احتجاز زوجها. في الواقع كوماراتونجا أُغتيل على يد ليونيل راناسينج، عضو في جبهة التحرير، عام ١٩٨٨.

غير أن الترتيب التاريخي ليس مهمًّا أمام الأفكار الأهم التي تطرحها: أن الحقيقة تكمن في الأقوال غير الرسمية، وأن التصريحات الرسمية كاذبة. كانت تعيش في أرض ظلال الشائعات، وصوت حماتها الحاد، وفهمت أن الحقائق الأكبر تكمن في الأشخاص البسيطة مثل الجراماسيفاكا الذي «تصرف بغرابة» في بيتهم.

مثَّل سوجاثا وبياسينا، الحادثة التي يبدو أنها مركز قصتها -اختفاء زوجها- تنال معناها فقط من سياق رعبها وخوفه وصرخات حماتها. العامل الشعوري المشترك هو الخيط الطويل الذي يربط قصتها بعضها ببعض. الأحداث السياسية التي تقتبسها تشاندريكا، مثل تمرد جبهة التحرير، ليست إلا التطريز الظاهر.

ثم تتابع تشاندريكا وتخبرني عن المرة الثانية والأخيرة التي اختفى فيها زوجها.

كان ذلك يوم ١٢ ديسمبر ١٩٨٩، عندما جاء واشٍ مقنع، أو «بيلا billa»، إلى مزرعتهم في سيارة بصحبة حوالي ١٠ أفراد من القوات الخاصة. تشاندريكا كانت مع زوجها يرعيان كروم الفلفل، وأبناؤهما يلعبون في الخارج.

جاء رجلان من القوات الخاصة ليتحدثا معه، في حين حاصر البقية البيت وحرسوا المزرعة. شهروا أسلحتهم وأمروا العائلة بعدم الصراخ.

ثم رافقا نيسانكا إلى السيارة، وسمعت تشاندريكا حماتها تصرخ: «إنه لم يفعل شيئًا!».

أجابا: «إننا نأخذه للاستجواب فقط، سنعيده».

بدا زوجها مرعوبًا، لكنه حاول أن يطمئنها: لا تقلقي، سأعود، ليست أول مرة.

مثل هذه التفاصيل -هدوئه المتعمد وقلقه عليها، ورغبته السابقة في ألا يزعج الأسرة بالتقاطه من مركز الشرطة، رعايته للتاميل الهاربين من الملاحقة- تقول الكثير. أعلم أن نيسانكا رجل شجاع وعطوف. أكتب عن غيابه، وأسجل الذكريات التي قد تعيده.

«في هذا الوقت كانت المدارس تُستخدم كمراكز احتجاز، وحظر التجوال كان مفعلًا. كانت هناك قوائم بالأسماء على الأبواب، بحثت أنا وحماتي في كل مكان، تفقدنا كل القوائم. كان لحماتي بعض النفوذ وكانت داعمة. كان هناك مركز احتجاز جديد في باليكيلي. في ذلك الوقت، كان الوشاة يشيرون إلى البيوت لتُفتش، تحدث الوشاة لأن الناس كانوا يخافون الشرطة».

الـ بيلا المسؤول عن اختطاف نيسانكا كان عاملًا في المزرعة، وذُكر اسمه، ومع أنه كان مقنَّعًا ساعة أخذوا زوجها، فإنها تعرفت على ساقيه وقدميه. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام من الاختطاف، قُتل.

«هذه الأشياء كانت حتمية أيامها» تقول تشاندريكا وهي تعتدل في مقعدها وتمسح عينيها، تعقلن الأمور وتمنطقها... لمصلحتها أم لمصلحتي؟

«كل الوشاة كانوا يُقتلون. وجدت حماتي جثته في كنجالا. أُطلق الرصاص على رأسه. تُركت هذه الجثث في العلن لتخيف الناس. كانت الجثث هنا وهناك، على مرأى من الجميع. لم يجد أحد جثة زوجي، بعض الجثث حُرقت، وبعضها أُخذت بعيدًا. لا أعرف إن كان قد قُتل أم لا، الجثث كانت في كل مكان».

تتراجع تشاندريكا وتتحدث برسمية. أنا واعية بأني أتحدث مع شخص تعلم كيف يمنع مشاعره من الإفراط. لا حاجة إلى المدقق عندما أتحدث معها. إنها مدركة أنها شاهدة، ليس فقط على اختفاء زوجها، بل على أحداث أكبر، اختفاؤه ليس إلا جزءًا منها.

غير أنها تعاني كمن يصعد جبلًا وهي تحاول أن تقدم إطارًا تاريخيًا - «في ذاك الوقت» - وتحاول أن تبرر - «هذه الأشياء كانت حتمية أيامها» - وفيات لا تستطيع إنكار وجودها المادي.

أُحتُجز زوجها لأول مرة سنوات قليلة بعد البرنامج المضاد للتاميل في كولمبو الذي بدأ الحرب، ثم اختفى بعد ثلاثة أعوام خلال قمع جبهة التحرير الشعبية، وهي جماعة قومية متطرفة. تجاهد تشاندريكا برغم إحباطها لإيجاد المغزى، في محاولة لإيجاد مكان لمقتل شخص ذي نزعة إنسانية في مشهد سياسي تُعرفه قراءات جامدة للاختلافات العرقية.

معاناة تشاندريكا للتماسك بينما تقدم تفاصيل عناية زوجها بها في زمن الوحشية تكشف عن حقيقة أخرى: أن المعاناة في حرب الظل غير الرسمية هذه لا تكمن فقط في المعاناة للحياة، بل أيضًا في المعاناة بحثًا عن الإنسانية، المعاناة لإيجاد أهمية الشعور في مواجهة الهلع.

أسأل عندها الأسئلة التي قد تخرجها من أراضي الظلال وتعيدها إلى يومنا الحالي. تخبرني أنها تجد الإلهام في أمها، التي تعيش معها الآن.

«لا تستطيع القراءة ولا الكتابة لكنها ربت ستة أبناء بعد وفاة أبي. علمتني أمي بكونها قدوة. أنا متعلمة، وعندي مكان أعيش فيه، لماذا إذن لا أفعل المثل لأبنائي؟ قوة أمي تجعلني قوية. كان زوجي من كلية فيديارثا، وحاولت أن أعمل هناك كمعلمة موسيقى، لكن وضع زوجي منعني من هذه الوظيفة. أنا الآن منسقة في مركز تغذية للأطفال في مرحلة قبل المدرسة، وأنا سعيدة بقيامي بهذا العمل الاجتماعي، تستطيع المرأة فعل أشياء لا يقدر عليها الرجال. تستطيع النساء العيشة دون أزواجهن، ولو أن لديهن أطفال، بوسعهن تكريس حياتهن لهم. وضعي السيئ نتيجة للظلم الاجتماعي. بعد زواجي لم يعد بوسعي الغناء، شُجعت ألا أفعل. الآن تدربت لأصبح كاتبة، هذا هو المكتوب على بطاقة هويتي. كتبت مقالة لمجلة عن حياتي وتقدمت بها إلى مسابقة، وتدربت في كولمبو. لدي خمسة وعشرون قلمًا في إناء زجاجي بجوار نافذتي -حبر خمسة وعشرين قلمًا!- لأكتب بهم قصتي، لكني لم أكتبها بعد لعدم توفر الوقت. أود التعبير عن ألمي بالكلمات.

«حاولت الغناء بعد وفاة زوجي، لكن ذلك لم يساعد، حاولت العمل الاجتماعي، لكنه لم يساعد، حاولت الالتقاء بالأصدقاء مثل سوجاثا، لكن ذلك أيضًا لم يساعد. الكتابة وحدي منحتني السند».

تبدو أعين تشاندريكا صافية وهي تنظر إلى الأفق، هادئة ثابتة. ثم، بينما تنهض، وجهها الجامد كتمثال لان وابتسمت لي.

قالت: «مضى وقت طويل منذ بكيت، أشعر الآن أني أفضل».

تركتني بقصة ممزقة مثل ألمها، قصة تكشف عن مدى تأصل ما يُدعى بالحرب في حقائق الحيّ، وكيف تتمدد جذور الظلم الاجتماعي في الأعماق، فتربط بين اختفاء زوجها وعجزها عن إيجاد وظيفة.

جريمة زوجها الوحيدة كانت التعاطف، شجاعته في مواجهة الحرب غير الرسمية. الرجال المسؤولون عن اختفاء زوجها وموته بلا علامة كانوا كثيرين. أن نضع المسؤولية على عامل تحول إلى واشٍ وحيد مرعوب، وقُتل هو أيضًا، لا يحقق العدالة، بل بالأحرى يختبر حدود معنى العدالة.

حاولت تشاندريكا خلال لقائنا الوجيز أن تربط بين الحقائق الرسمية والحقائق غير الرسمية، دارت حول حافة استيعاب ماذا حدث، حاولت أن تجد مغزى للجثث المتناثرة «هنا وهناك» وقد احترقت حتى لم يعد التعرف عليها ممكنًا، جثث كانت تعود إلى رجال لن تُعرف هوياتهم أبدًا. حاولت أن تتذكر رجلًا اختفى أمامها، رجلًا كانت آخر كلماته: «لا تقلقي، سأعود».

والآن، بعدما رافقتني عبر قصتها، قصته، قصة ماضي بلدها، وجدت أخيرًا الرابط الذي قد يفلح.

إنها كاتبة، رسميًا، ولديها خمسة وعشرون قلمًا في إناء زجاجي.

∞

(7) روبين هود السيلاني: ديكيري كيفاج ساراديبل Deekiri kevage Saradiel (١٨٣٢ - ١٨٦٤)، خارج عن القانون السريلانكي قيل إنه كان يسرق من الأثرياء ويوزع على الفقراء، ويربطه بعض الدارسين بمقاومة الاحتلال الإنجليزي. حوكم في منطقة كاندي وشُنق في ٧ مايو ١٨٦٤. [المترجم]

(8) كارونا عمان karuna amman: أحد قادة عشائر نمور التاميل المتمردة، تخلى عن القتال واحترف السياسة، حتى أنه أصبح نائبًا لرئيس سريلانكا في ٢٠٠٩. [المترجم]

(9) كارما Karma: مفهوم أخلاقي في المعتقدات الدينية الشرق آسيوية يشير إلى مبدأ السببية، أي أن أفعال المرء الحالية تؤثر على ما سيحدث له في مستقبله. [المترجم]

(10) براديشيا سبها Pradeshiya Sabha: الهيئات التشريعية التي ترأس البلديات في سريلانكا. [المترجم]

(11) الويساك Wesak: العيد الأهم في العقيدة البوذية، يحتفل بعيد ميلاد بوذا. [المترجم]

(12) أماراديفا Amaradeva (١٩٢٧-٢٠١٦): مغنٍ باللغة السنهالية وملحن وعازف كمان سريلانكي. [المترجم]

(13) يوليو الأسود Black July: الاسم الشائع الذي يشير إلى وقت للمذابح ضد التاميل وأعمال الشغب في أنحاء سريلانكا التي كانت في يوليو ١٩٨٣. [المترجم]

باتيكالوا

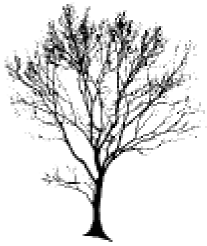

غناء الأسماك

بعد حلول الظلام، يمكن سماع غناء الأسماك، من أعماق النهر الذي يجري تحت جسر كالادي.

يسمع سكان باتيكالوا نداء الأسماك وهم عائدون إلى بيوتهم على الدراجات فوق الجسر بعد العمل. يوقف الصيادون في النهر قواربهم ويرفعون مجدافًا بالقرب من آذانهم لتكبير الصوت القادم من الأعماق.

هذه الموسيقى التحتمائية وُصفَت بأشكال عديدة، مثل صوت حافة إصبع تجري على الحافة المبتلة لكوب نبيذ.

مثل تزامن نغمة باص ونغمة حادة.

مثل همهمة عالية لسلك التلغراف.

هذه الأغنية السائلة تُرجمت إلى نوتة موسيقية للجمعية الملكية الآسيوية قبل عقود.

يُمكن سماع الغناء في الليل، عندما يسكن كل شيء عداه. وقيل إن الغناء يكون في أوضح حالاته خلال سكون ليالي البدر المكتمل، وقيل أيضًا إنه توقف خلال سنوات الحرب

الطويلة، لكنه عاد بعد انتهائها... عادت السمكة المغنية.

تبدو تلك النداءات، في تسجيل لـ BBC، شريرة وهزلية في الوقت نفسه.

تجشؤ ضفادع، عسر هضم، صرير متكرر لباب خشبي.

مع ذلك، وبرغم كل الأبحاث العلمية ودراسات السونار، تظل الأغنية التحتمائية مراوغة مثل المياه الجارية، ويظل مصدرها وطبيعتها غير معلومين.

كل شخص يسمعها بشكل مختلف.

لا أحد يعلم ماهية تلك الكائنات، تلك الجوقة.

∞

في مدينة ناولا، تدخل قلب الجزيرة وترى معسكر جيش سريلانكي، ويرتفع وراءه مباشرة جلمود عملاق من جبل يبدو كقبضة مضمومة.

ترى أيضًا من نافذة السيارة التتابع المتعجل للمزارات السياحية -معبد ماكالينا التاريخي، هابارانا، بولوناروا- وتمر على المزيد من معسكرات الجيش. بمداخلها الفخمة ومروجها المشذبة وشجيرات الزينة الأنيقة وباحاتها وملاعبها النظيفة، بدت هذه المؤسسات العسكرية أقرب إلى الشكل اللامع المرتب لأفخم منتجعات العطلات.كل شيء هنا معسكرات. معسكرات العطلات، معسكرات الجيش، وذكرى معسكرات اللاجئين التي كانت كلها، بأشكال مختلفة، تشير إلى ضياع وطن ومجتمع. تترنح البيوت والمتاجر، ويهيم الناس على وجوههم كالطيور الضالة.

الارتحال شرقًا هو ضياع. يتحول المرور إلى دوامات فوضوية، وأسماء المدن تتفتت مثل المكسرات المسحوقة، أودامافادي، كورالايباتو، فالايتشتشيني.

هي واعية بالحاجز الزجاجي للنافذة، ولعلامات المرور التي تفتقر إلى الوقع الأليف للسان السنهالي. هي هنا غريبة.

في باسيكوداه، حيث ستسكن، يمتد البحر ضحلًا منهكًا، والأرض هنا مسطحة مثل ورقة.

يُقال إن ذلك كان المكان الذي سلب منه تسونامي المحيط الهندي في ٢٠٠٤ أكبر عدد من الأرواح. لا أحد يعلم بالضبط كيف قتلت الأمواج كل هؤلاء الناس في المنطقة، لكن النصب التذكاري الأسود في الساحة القريبة من الشاطئ، يقول إن ٤٤١ شخصًا ماتوا من المدينة.

تستوعب أكثر فأكثر أنها الآن تسافر عبر أماكن غير موجودة في خرائطها الأولية. إنها تعرف عن هذا المكان من خلال لقطات مشوشة من زمن آخر؛ صورة فوتوغرافية صغيرة بالأبيض والأسود لها على الشاطئ مع أبيها، ذكرى من سن الخامسة لمرة رأت فيها سمكة طائرة من سطح سفينة. كل شيء يكمن على مسافة ومتكور في كبسولة من تعجب وهدوء الطفولة.

ثم جاءت الحرب، وعجّ المكان بأخبار المذابح -مذبحتي ساثوروكوندان وفانثاراmولاي- والاختفاءات من الكمائن والبيوت ومعسكرات اللاجئين.

قرأت تقارير منظمة العفو عن الاعتقالات الاعتباطية واحتجازات الشرطة، التي وجدت نفسها تجوب في أرجائها بعد سنوات، لتتعرف على ذلك العالم شبه المائي:

في الشمال الشرقي، تتضمن طرق التعذيب الروتينية «الغواصة الجافة»، التي فيها يُوضع كيس تسوق يحتوي الفلفل و/ أو البنزين فوق الرأس ويُربط على قاعدة رقبة الشخص، و«الغواصة الرطبة»، التي فيها يُغمر الشخص في حوض مياه أو بئر. كلا طريقتي التعذيب تسبب شعورًا بقرب الموت بالاختناق.

يشتكي كثير من المحتجزين من تعرضهم للضرب بمضارب الكريكيت والأنابيب الممتلئة بالرمل أو الأسمنت، ومن الحرق بالسجائر المشتعلة، ومن الصعق بالكهرباء... والحرق

بالبولي إيثيلين الذائب وثقب الأقدام وإدخال المسامير في الأقدام أو أماكن أخرى من الجسم، واغتصاب المحتجزات الإناث.

∞

غراب جيفة

فاديفيل يقترب مني بحزمة أوراق ويُعرفني على ابنه، الذي يظهر كحزمة من أوراق الجرائد يصدر عن حركتها الحفيف. ثمة صورة بورتريه بالأبيض والأسود ملطخة لمراهق يبتسم بغرابة ذي أعين براقة.

هنا: مقال عن ابنه سانجيفان، الذي كان في الثامنة عشرة عندما مات، نُشر في الصحيفة المحلية فيراكيساري.

يخبرني فاديفيل أن قصته وصلت إلى كل الجرائد المحلية، لكن هذا هو المقال الوحيد الذي لا يزال يملكه، كل المقالات الأخرى عنه ضاعت بعد التسونامي.

وهنا: إفادة خطية تُظهر الاستئناف الذي أقامه محاميه، الذي أخذ قضيته إلى محكمة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، أعلى محكمة استئناف.

وهنا: تقرير تشريح سانجيفان، الذي يذكر أن سبب الوفاة هو القتل.

كل من أقابلهم في باتيكالوا يأتون بأوراق رسمية مترعة بالمحتويات الصحفية والقانونية والطبية، باللغات الثلاث الرسمية، ومع ذلك سأعرف ما مر به فاديفيل من خلال كتابات من نوع آخر. إن جسده هو من يتحدث. هزيل رمادي الشعر، جسده مُختزل إلى عناصره الأساسية، يبدو نحيلًا مثل قلم رصاص لكن تدب فيه الحياة والخفة عندما يتحدث. يتثنى ويتلوى ويرتجف بالمشاعر، ويداه وذراعاه في الهواء، وعيناه تلمعان وتشتعلان.

وخلال كل ذلك نناديه بـ«عمي»، إذ إنه يتجاوز الستين عامًا.

وُلد فاديفيل في كالموناي، حيث كان والداه مزارعي أرز. كان الابن الرابع من ستة، وله أربع شقيقات، اثنتان أكبر واثنتان أصغر منه. يخبرني أنه لم يذهب إلى المدرسة، ثم يتذكر أنه ارتاد بالفعل المدرسة لعامين، وظل هناك حتى صار في السابعة. سنواته فيها كانت قصيرة مثل طفولته. بعد ذلك عمل في مزرعة الأرز التي تملكها أسرته ليساعد شقيقاته ويزوجهن. عمل هو وشقيقه الأكبر منذ كانا أطفالًا ليساعدا في تزويج شقيقاتهما. ذلك كان الصواب، ذلك ما يفعله الشخص المسؤول.

بعدما تزوجت شقيقاته، تزوج هو نفسه وعاش في بانديروبو. كان مجبرًا على الزواج بابنة عمه -ذلك كان تقليدًا شائعًا وقتها- ولم يعرف من هي زوجته المستقبلية. ظلت حماته تسعى وتطالب حتى تتأكد من إتمام الزواج.

كان في الثامنة والعشرين من عمره حينها، وزوجته كانت في السادسة والعشرين. زوجته الآن تقوم بالحياكة اليدوية، وتصنع السارونجات والساريات(14) بالخامات التي يوفرها لها المسلمون، الذين يدفعون راتبها.

زوجته هي العائل الرئيسي، «أدعمها في عملها».

والداه امتلكا حقول أرز خاصة بهما، لكن بعد ١٩٨٣ خسرا أرضهما ومصدر دخلهما، استولى السنهالا عليها وبات على السكان الكبار النزوح.

يحوم فوق تلك الحقيقة ويكنسها إلى سلة المهملات التاريخية الأكبر التي هي سنة ١٩٨٣، ومعها كل البقايا البشرية الأخرى المتبقية من ذلك الوقت. عندما أسأل من الذي كان مسؤولًا عن الاستيلاء على الأرض، يخبرني بلهجة تقريرية بلا ضغينة، أنهم كانوا فقط «العائلات السنهالية التي كانت تعيش قريبًا».

هل حاربتم لأجل أرضكم؟

«لو كنا أصررنا على البقاء في أرضنا، كنا سنُقتل».

بعد الزواج، عمل في حقل أرز، وقضى يومين من كل أسبوع في العمل بالنجارة. كان قد تعلم تلك الحرفة في بيت زوجته قبل ١٩٨٣. بدأ في قضاء المزيد من الوقت في النجارة، إذ لم يعد العمل في الأرز يوفر دخلًا كافيًا لإعالة أسرته المتنامية. صنع الأثاث وألواح السقف والأبواب، والمواد الضخمة التي يُصنع منها البيت. توقف عن العمل في آخر عامين بناءً على طلب أبنائه، إذ صارت نشارة الخشب تسبب له أزمات تنفس، ودخل المستشفى مرات عديدة.

عند فاديفيل أربعة أبناء؛ ثلاثة أولاد وبنت. سانجيفان، الابن المقتول، كان أكبر أبنائه. ارتاد سانجيفان مدرسة ويزلي الثانوية في كالموناي، وأبدى مهارة مبكرة. تجاوز المستوى O مبكرًا بسنة لأنه أخذ دروسًا خاصة، وكان بارعًا على الأخص في لغة التاميل والرياضيات. «وصلتنا نتائج امتحاناته بعد موته».

ألم المستقبل الضائع يكمن في هذه الكلمات القليلة.

كان سانجيفيان يذهب إلى الكوفيل(15) باستمرار، وانخرط في العديد من الأنشطة الدينية. كان شخصًا طيبًا، وأحب شقيقته الصغرى، نارمادها، التي كان عمرها ثمانية عشر شهرًا عندما قُتل.

«كان نوع الابن الذي تمنيته، حقق طموحاتي بدراسته وخططه. ابنتي الصغرى أصبحت الآن متزوجة وعندها طفل. وقعت في الحب بعدما اجتازت المستوى O. حققت أماني أخيها». تنفرج أصابع فاديفيل الطويلة وكأنه يمدهم ليصلي.

كان فاديفيل قد انتهى من عمله بالنجارة وعاد ليرتاح في البيتيوم أُخذ سانجيفان. ١٣ أكتوبر ١٩٩٨ كان يومًا دينيًا، صيام يوم جاوري، والأخير من بين أيام الصيام الواحد

والعشرين(16). كانت زوجته قد شاركت في الصيام وذهبت إلى المعبد خلال اليوم وعادت إلى البيت.

أنهى سانجيفان دروس بعد المدرسة، وذهب مباشرة إلى الكوفيل ليساعد في إعداد قرابين البوجا(17) لأجل المساء. بعدها بقليل، صعد صديق لسانجيفان على دراجة إلى الكوفيل، وطلب منه أن ينضم إليه في زيارة إلى كالموناي.

«لا أعلم لماذا كان ذاهبًا إلى كالموناي. رفض ابني الذهاب معه وقال إنه عليه المساعدة في تجهيزات البوجا. لكن صديقه ألح، وذهب ابني في النهاية معه على دراجته الخاصة. في الطريق، كانت هناك نقطة إيقاف وتفتيش تابعة للجيش السريلانكي، عند مكتب الاتصالات في كالموناي، كانوا يوقفون الناس بحثًا عن نمور التاميل.

أطلقوا نار أسلحتهم في السماء لجذب الانتباه. سمع الفتيان الصوت فتوقفا، ولم يعلما ماذا يفعلان، ظل ابني واقفًا في مكانه. حاولا أن يتراجعا، لكن أطلقوا عليهما النار. قُبض على ابني ومات صديقه، بل إن رجال الجيش استجوبوا ابني بشأن الفتى الآخر، خلعوا قميص ابني وقيدوا ذراعيه إلى عمود التلغراف وأخذوا يضربونه بتوحش. أخذوه إلى مركز شرطة كالموناي، وظلوا يضربون ابني طوال الطريق».

تدب الحياة في فاديفيل وهو يتذكر تلك التفاصيل المسجلة، يحتضن بذراعيه عمود تلغراف متخيل، ويأخذنا إلى فضاء في مكان ما بين يديه الممتدتين ويدي ابنه المفقود.

يستنشق، وتغيم عيناه في حين يدخل فضاء آخر.

حل الظلام ولم يعد سانجيفان إلى البيت. ذهب فاديفيل إلى الكوفيل ليبحث عن ابنه، وسمع من العابدين أنه ذهب. أخبروه أيضًا عن أن ثمة صبيًا أُطلق عليه نار في حادثة قريبة وأودع في المستشفى العام.

«كنا حتى خائفين من الذهاب إلى المستشفى»، قالها فاديفيل بلهجة ذات مغزى، فظلت الكلمات ترنّ لوقت طويل، «كان الوقت متأخرًا بالفعل، حوالي الثامنة مساءً. ذهبت إلى المستشفى العام لكن لم يُسمح لي برؤية الجثة. قضيت الليلة كلها أبحث عن الجثة».

كنا حتى خائفين من الذهاب إلى المستشفى.

عيناه ضربتنا، وضربت كل أرجاء الغرفة، بعثرت كل ما وقعت عليه.

جاء رجال الشرطة في اليوم التالي إلى بيته، وأخبروه بأن ابنه قُبض عليه وهو الآن في مركز شرطة كالموناي.

«أُصبت بالذعر والصدمة، وذهبت إلى حيث قُبض على ابني البريء. قال الناس الذين يعيشون على ذلك الطريق إن الولدين ركضا مذعورين عندما سمعا أصوات الطلقات، وإن ابني رفع يديه واستسلم. أخبرني أصحاب المتاجر بهذا، ثم ذهبت إلى مركز الشرطة وتوسلت إليهم أن أرى ابني، لكن لم يُسمح بذلك. كنت خائفًا طوال كل ذلك الوقت، كنت خائفًا حتى من مجرد تخيل ماذا حدث له. ولم يحدث إلا لاحقًا، بعدما تحدثت مع محامٍ، سمحوا لي برؤية ابني. عندما جاءوا به من زنزانته وجدته غير قادر على المشي». أصبح فاديفيل من هذه النقطة منقسمًا بين شخصيتين، توسع حديثه بإيماءاته التي جعلته يتنقل بين وضعه كشاهد على تعذيب ابنه، ووضع ابنه كضحية لهذا التعذيب.

هذا ما يعنيه أن تكون ناجيًا، أن تحمل معك الضحية في داخلك طوال الوقت.

سانجيفان كان يعرج، جسده كان متورمًا ومشوهًا بالجراح، وطلب شيئًا يشربه، مياهًا غازية.

توسل إلى أبيه أن ينقذه، قائلًا إنه لا يعلم لماذا هو هناك.

«كانت هناك كدمات في شتى أنحاء جسده، قال إنه مرعوب، وطلب مني أن أنقذه من هذا الموقف».

ونعم، عذبته الشرطة.

أحضروا له المشروب، لاحظ فاديفيل حينها أن أظافر ابنه مخلوعة.

«لم يستطع أن يبلع العصير، لم يقدر على البلع! لم يستطع أن يقف أو يجلس. ذلك كان كم العذاب الذي عذبوه لابني. هل بوسعك تخيل ما أشعر به؟ بلا جلوس، بلا وقوف، بلا أظافر».

غضب فاديفيل وألمه يرفعانه، مشهد مؤلم، يتذكر الفتى بشكل متقطع.

إنه نصف واقف، نصف جالس، معلق في الهواء.

لا توجد ساعة في الغرفة.

ثم ماذا؟ صوت المدقق الداخلي يقاطعنا ويعود بنا إلى الزمن الرسمي الخطي.

سُمح له برؤية ابنه لحوالي نصف ساعة. في اليوم التالي، سمع بشكل غير رسمي من «شخص معروف يعيش في مكان قريب» أنهم أخذوا ابنه إلى مستشفى تلك الليلة ليتعالج، وأعادوه إلى زنزانته، وأنه بات يشعر أفضل قليلًا بفضل الرعاية التي تلقاها في المستشفى.

«قال لنا ذلك الشخص إنه كان هناك بضعة صبية آخرين قُبض عليهم مع ابننا، وإن هؤلاء الصبية أُطلق سراحهم لاحقًا، وأخبروا هذا الشخص أن ابننا أُعيد من المستشفى إلى زنزانته».

يقول إنه تلقى عندها مكالمتين، إحداهما تخبره بأن ابنه سيؤخذ إلى بادولا بعد استجوابه في أمبارا، والأخرى تخبره بأن يذهب إلى مركز شرطة أمبارا.

يضطرب حكيه في حين يحاول تذكر تسلسل الأحداث. يقول إنه يتذكر كيف لم يقدر على رؤية ابنه ذلك اليوم، لأن الوقت كان متأخرًا جدًّا على التوجه إلى أمبارا.

مقال صحفي بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٩٨، نُشر بعد الحادثة بأسبوعين، يُناقض هذا وينص على أن فاديفيل رأى ابنه وتحدث معه ذلك الصباح. يقول في المقال: «بلغني أن الشرطة قيدت ابني في العمود ما إن قبضوا عليه».

هل تكمن حقيقة قصة فاديفيل في ذكرياته أم في التاريخ العام للحقائق الرسمية؟ أم أن هذه القصة -التي هي أيضًا قصة ابنه- تكمن في الرابطة التي خلقها الخوف بينهما، في مجهولهما المشترك، في الرعب الفوضوي لتلك الأزمنة؟

كنا حتى خائفين من الذهاب إلى المستشفى.

كنت خائفًا طوال كل ذلك الوقت، كنت خائفًا حتى من مجرد تخيل ماذا حدث له.

هل في وسعك تخيل ما أشعر به؟ بلا جلوس، بلا وقوف، بلا أظافر.

تتهشم الحقائق إلى معانٍ جديدة تحت ثقل الرعب التاريخي الممتد.

هل كان ابنه في مستشفى؟ هل كان في المركز؟ هل كان في بادولا أم أمبارا؟

يتذكر فاديفيل أنه قيل له أن يذهب إلى مركز شرطة أمبارا، لكن لم تكن هناك وسيلة مواصلات لنقله إلى هناك، ويظل يتحدث عن نقص المواصلات والساعة المتأخرة من اليوم، حتى يتذكر بأعين حادة، أن شخصًا ما يعمل في مستشفى كالموناي منحه المعلومة التي غيرت كل شيء، وأخيرًا عرف الحقيقة، الحقيقة الوحيدة المهمة في ذلك الوقت.

قال عامل المستشفى: «إنهم يكذبون عليك، ابنك ليس حيًّا. حالته كانت حرجة ونُقل إلى مستشفى أمبارا، وتلقينا رسالة أن الفتى مات. الشرطة كلمتك فقط لتأتي وتستلم جثته... استعد لذلك».

غطى على نبأ موته صيحة حزن هائلة.

كان الجميع يبكون، ولم يعلم ماذا يفعل. لم يستطع أن يتسلم الجثة في هذه الليلة، لم تكن هناك مواصلات. ذهب في اليوم التالي إلى الصليب الأحمر وأخبرهم بما يعرف.

تحول خوفه إلى غضب عارم في عندما كان يخبرني كيف أسرع إلى الصليب الأحمر، بعناد.

««لن أوقع على أية ورقة تقول إن ابني كان من نمور التاميل! ابني ليس نمرًا»، حسبت أن الشرطة ستجعلني أوقع على شيء مماثل».

طمأنوه في الصليب الأحمر أنهم سيدعمونه وسيساعدونه.

بهذه الطمأنينة، استأجر شاحنة لوري، واشترى تابوتًا وملابس جديدة لابنه.

«ذهبت أنا والسائق فقط لاستعادة الجثة إلى البيت».

من الجليّ أن فاديفيل كان يمر بتركيبة معقدة من المشاعر؛ الخوف الأليم من المجهول، تجربة أن يجد ابنه معذبًا، ثم النبأ المفاجئ بأن ابنه قد مات، الذي يبدو أنه طغى على كل شيء حدث قبله.

الطريقة الرقيقة التي يصف بها كيف اشترى لابنه ملابس جديدة، والتفاصيل اللوجيستية لاستعادته الجثة، يكشفان عن أب مخلص، ممزق بين احتياج عميق خاص لوضع الملابس على ابنه، وبين إدراك أبوي لضرورة إقامة الشعائر الجنائزية التي تضمن له أن يرقد في سلام.

يتحدث فاديفيل من فضاء بين الحياة والموت. وحده الجسد -جسد الأب وجسد ابنه- من يشهد على ما حدث.

يستمر في الحديث عن الجثة -بل إنه يذكر حتى تفاصيل بحثه عن جثة أخرى- قبل أن يتحدث عن الجثة المهشمة لابنه. يقوم بتمثيل الأحداث، بهذا يدخل في جسد ابنه؛ يقول إنه كان هكذا، ويضم يديه خلف ظهره ليوضح شكل ابنه مكبلًا بالأغلال، ويقبض على ساعده بأصابعه ليوضح شعائر البوجا، ويتشبث برقبته، ويشير إلى صدره، ويثني ظهره وينحني كي يُظهر كيف مشى ابنه، ويقف معلقًا، لا جالسًا ولا واقفًا، ينظر إليّ مباشرة ليتأكد أني أفهم الانكسار الذي لا يُحتمل ولا تصف كلمات الذي حلّ بابنه.

أرى ذلك، أستمر في ترديد العبارة، أرى ذلك.

لكن ما أراه ليس ما يراه هو.

لا أرى إلا ظل الأذى الذي نال ابنه.

أرى رجلًا مشوهًا، بشهادته وقائع وصلتني بشكل مختلف.

عندما ذهب فاديفيل لاستلام جثة ابنه، سخرت منه الشرطة وهددته.

«أتحسب أن ذهابك إلى الصليب الأحمر سينفعك؟»، وبخوه وسبّوه.

فاديفيل كان خائفًا، شرح لهم أنه جاء فقط ليرى ابنه ويأخذه معه إلى البيت.

«حنيت رأسي وظللت صامتًا، فغايتي الوحيدة كانت تنظيف الجثة وأخذها بلا مشاكل. مع أني كنت قادرًا على فهم السنهالية نوعًا، ظللت ساكتًا».

عندما دخل المشرحة، وجد ابنه ممددًا تحت كفنٍ أبيض.

رفع القماش بيديه ورأى صدر ابنه مشقوقًا مفتوحًا حتى معدته، وعاريًا من الملابس. «كان مقطعًا هنا وهناك، في حالة مزرية، وتُرك مفتوحًا بهذه الطريقة».

هل يمكن أن يكون ذلك نتيجة لفحص الطب الشرعي بعد الوفاة؟ «ربما هو كذلك، لكن كيف لهم أن يفعلوا ذلك دون موافقة أحد الوالدين؟ كيف صارت الأمور إلى هذه المرحلة؟ إلى هذا الشكل؟ أليس هذا ظلمًا؟ لم نعرف إن كان حيًّا أم ميتًا. نحن والداه، كيف لهم أن يفعلوا ذلك دون أن يسألوننا؟ لست شخصًا متعلمًا لكني أعلم أن هناك قانونًا يحكم كل شيء».

ماذا كان سبب الوفاة بحسب الشرطة؟

لكن فاديفيل لم يكن مستعدًّا بعد لأخذي في المسار القانوني الذي اتبعه وخاضه مرات لا حصر لها من قبل، سيخبرني المنسق بالمعلومات عما قريب. أعطاني بدلًا من ذلك إجابة سؤال لم أسأله، وأخبرني بالعوائق التي واجهها في محاولته استعادة جثة ابنه.

سألته الشرطة لماذا تريد الجثة؟ لا تستطيع أن تأخذها معك. لو تريد إقامة الطقوس الجنائزية، عليك أن تفعلها هنا.

«أصرت الشرطة على أن أدفن جثة ابني في أمبارا ذاتها، لم يكونوا راغبين في السماح لي بأخذ الجثة إلى بانديروبو. أخبرتهم أني جلبت شاحنة وكل ما هو ضروري كي أتمكن من أخذ جثته إلى لبيت، أريد جثته، أحتاج إلى أن أقوم بالطقوس، كنت أفكر في ابني، لم أكن قادرًا على مجرد التفكير في الحزن الذي يثقل أعماق قلبي. خفت، كنت مرعوبًا، تساءلت لو كان في وسع الشرطة فعل ذلك به، فماذا سيفعلون بعد ذلك؟».

أخيرًا أخبروه بأنه لو أراد أن يأخذ جثة ابنه فعليه أن يدفع كل التكاليف، وأنهم لن يعطوه تصريحًا. هكذا حنط جثة ابنه بمساعدة سائق الشاحنة وآخرين، وصارت الجثة جاهزة للنقل.

ثم واجهته عقبة أخرى: لن تمنحه الشرطة تصريحًا. قالوا إنه لو أخذ جثة ابنه، فسيفعل ذلك بلا رخصة، على مسؤوليته الخاصة.

«قالت الشرطة إنني بوسعي أخذ الجثة لو أردت، لكنهم لن يمنحوني تصريحًا، وحذروني من أن لو وقع شيء في الطريق فلن يكونوا مسؤولين، وأخبروني أيضًا أنني عليَّ ألا أبقي الجثة في البيت لوقت طويل، بدلًا من ذلك عليَّ أن أقوم بطقوس الجنازة في أقرب فرصة ثم دفنها. قال لي آخرون «لا تفعل ذلك، سيقتلونك». فليقتلوني، في وسعهم قتلي، لكني أريد حق ابني. يجب أن يُعاقب الشخص الذي ارتكب هذه الجريمة. على الناس أن يعرفوا ماذا فعل القانون السريلانكي بابني. ما حدث لابني لا يجب أن يحدث لابن شخص آخر. لست خائفًا، لم أرتكب خطأً، من ماذا إذن أخاف؟ كلنا سنموت على أية حال».

عاد جسد سانجيفان إلى البيت دون تصريح رسمي، في رحلة ليس لها أي وجود قانوني.

بينما هم مسافرون بلا رخصة رسمية، أوقفتهم نقطة شرطة في كارايتيفو، وظلوا منتظرين خمسًا وأربعين دقيقة. لم تسمح لهم الشرطة بالمتابعة، لكن بعدما شرح لهم «بالنذر اليسير الذي أعرفه من السنهالية» ما حدث، حذروه من الاحتفاظ بالجثة في البيت، وعليه أن يدفنها «في نفس اليوم». لكننا وصلنا البيت متأخرين هذا المساء، لذا قررت أنني مهما حدث لن أدفن ابني في نفس اليوم. «لقد قتلتم ابني، والآن تأمرونني بإخراج جثته من بيتي بأسرع ما يمكن؟ كيف أفعل ذلك بلا نقاش؟ أنا أب».

أخر الكلمات جاءت من أعماقه، وبدا أنها تشد من عزيمته.

في اليوم التالي أقاموا الشعائر الجنائزية.

بعد خمسة عشر يومًا، ذهبوا إلى المجلس الوطني للسلام لرفع قضية، بصحبة محامٍ من كولمبو. بعد ثمانية وثلاثين يومًا، «جاء مسؤولو الدفن وطلبوا مني توضيح المكان الذي دفنّا فيه الجثة»، أخذوا الرفات من المدافن العامة في بانديروبو إلى مستشفى باتيكالوا.

ستوفر جثة سانجيفان الأدلة المادية الضرورية لإثبات أنه تعذب.

مع ذلك، حاولت الشرطة تغطية الأرض حيث كان رفاته مدفونًا.

أخبرهم فاديفيل ألا يلمسوها، سيعود ابنه إلى هناك، ومنعهم من ردم الأرض.

مداراة ما حدث.

يضيف فاديفيل أن الرفات لم يكن أكثر من الهيكل العظمي، لم يبقَ الكثير من اللحم.

ثم ينخرط فاديفيل في مستوى آخر من الفهم، يأخذه إلى رعب لا يزال يحمله معه. يشرح أن جثة ابنه تُركت في الخارج بلا تابوت طوال الليل، في انتظار التشريح في اليوم التالي. عندما بلغ المستشفى ذلك اليوم، رأى غرابًا آكلًا للجيفة جاثمًا على شجرة.

انقض الغراب وأخذ قطعة من لحم ابنه في منقاره، وطار عائدًا إلى فرع الشجرة، وابتلعه.

«رؤية ذلك كان أسوأ شيء حدث في حياتي. لا يجب أن يحدث هذا لأي أب أو أم! رأيت ذلك في اليوم التالي».

انضم إلينا المنسق عندها ليقدم إلينا التفاصيل القانونية التي تركها فاديفيل. قاطع المنسق رعب الأب ليقدم إليَّ معلومات حولت قصته إلى سلسلة لا تنقطع من التعدي على حقوق الإنسان.

قال المنسق إن كان هناك تشريحان بعد الوفاة، التشريح الأول وقع بعد موت سانجيفان مباشرة. يشير تقرير التشريح إلى إصابة واحدة، ويقول إن سانجيفان أُطلق عليه النار. سبب الموت كان جرحًا سببته رصاصة من معتدٍ غير معروف. أيد هذه النسخة من الأحداث الضابط المسؤول، الذي قال إن نمور التاميل هم من أطلقوا النار على سانجيفان. ادعى أن سانجيفان كان يُنقل لاستجوابه في سيارة على الطريق إلى أمبارا، عندما قطع نمور التاميل الطريق عليهم وفتحوا النيران.

قال الضابط المسؤول إن سانجيفان قتله نمور التاميل من مسافة بعيدة.

يخبرني المنسق أن التشريح الثاني وقع بعد استخراج بقايا الجثة من مدفنها الذي دام اثنين وأربعين يومًا، بناءً على طلب من لجنة حقوق الإنسان. خاف المحامون المحليون من تولي هذه القضية، لذا جيء بمحامين من كولمبو. أدلى كل من فاديفيل وزوجته وشقيقات زوجته بشهاداتهم. نصّ تقرير التشريح الثاني على أن فاديفيل كان لديه ست إصابات، بما فيها كتف مكسورة نتيجة للضرب بأداة غير حادة.

ونصّ على أنه تعرض لطلق ناري من مسافة قريبة.

ونص أيضًا على أن لسانه انتُزع.

«قال قطاع المباحث الجنائية إن سانجيفان لم يقبل أي طعام».

منحني المنسق تلك المعلومات التي لا يستطيع فاديفيل أو لا يريد قولها.

صمت.

أنصت فاديفيل إلى الإنجليزية التي لا يفهمها، وحاول أن يترجمها من خلال تعبيرات وجهي.

الصمت، لا سبيل إلى الكلام، فاديفيل يخرج من عدم الفهم الذي يغلفنا جميعًا.

يصف كيف جمع بقايا عظام ابنه وأخذهم في حقيبة من الخيش عائدًا إلى المدافن العامة ليعيد دفنه. بعد ذلك، استدعوه للاستجواب في الطابق الرابع من قطاع المباحث الجنائية في كولمبو.

لم يرغب في الذهاب إلى هناك، نصحه محاميه ألا يفعل، ونصحه منسق المجلس الوطني للسلام أن يكتب خطابًا يقول إنه لا يستطيع أن يسافر إلى كولمبو، لكنه في وسعه الذهاب إلى كالموناي. استجوبوه في كالموناي من الصباح إلى المساء، بشأن موت ابنه.

«لا أستطيع تذكر الأسئلة كما ينبغي، ولا أستطيع تذكر إجاباتي. في النهاية سألوني لو أني أعرف من أطلق النار على ابني، قلت «لو كنت أعرف من فعل ذلك، هل كنت لأقضي كل ذلك الوقت في خوض كل هذه الإجراءات؟ ذلك السبب الذي جعلني آتي بقضيتي إليكم!»».

توقف فاديفيل، بدا مستنزفًا ومتأملًا. «ذهبت بقضية ابني إلى لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، أعلى الأماكن، ونُشر عنها في كل الجرائد، ولم أتلقَ حتى عشر روبيات تعويضًا من الحكومة. ولم يكن الناس في صف أن أتابع هذه القضية، خافوا أن شيئًا آخر قد يحدث للأسرة لو أني تابعت المضي في القضية. غير أني أخبرتهم بأنني لن أصمت ما دمت حيًّا، لا أمانع في التضحية بحياتي لتحقيق العدالة».

قصة سانجيفان ساثاسيفام هي مسألة تاريخ عام. نُشر عنها في عدة صحف في ذلك الوقت، ويمكنك أن تجدها على الإنترنت، حيث رُتبت الحقائق المتشظية المرتبكة ونُظمت كما ينبغي.

كما أن قصته ظهرت في تقرير منظمة العفو الدولية عن التعذيب في حجز الشرطة بسريلانكا، بغرض توضيح كيف تُدارى الجرائم. فاديفيل، بتوصيله القضية إلى المحاكم، قد فعل كل ما في وسع إنسان فعله لتحقيق العدالة من أجل ابنه.

والآن، بعد مضي عقدين، جاء ليتحدث معي. تجاهل الإجراءات القانونية -التي خذلته- وبدلًا منها قدم سردًا تختلف شخصيته تمامًا. حكيه تحدى الرسميات وكسر قيود السياق الرسمي الذي كان ابنه محكومًا به.

استرجاعه للأحداث يبقي القبر مفتوحًا، يبقى الوحشية والأذى أمام العيون، بينما يوضح الثمن الإنساني المدفوع.

وعلى الأرجح لم يكن ثمة مفر من تجنبه الحديث عن لسان ابنه المفقود، فقصة الفتى، القصة الكاملة، لا يُمكن أن تُروى. حكي فاديفيل يشهد بالكاد على البقايا البشرية، ومن تبقوا

من البشر.

∞

إنصات

في ماتارا، قابلت سامانثا، وهو موظف شاب في المجلس الوطني للسلام، راقبني عن بعد في حين أجري المقابلات. بدا مهتمًّا بالعملية، فذهبت لأتحدث معه.

أخبرني أنه قام بأبحاث في هارفارد بغرض الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، وقابل ناجين سريلانكيين من مختلف أنحاء الجزيرة، مثلما أفعل الآن.

قال: «ستجدين اختلافًا كبيرًا عندما تتحدثين مع أناس من شمال الجزيرة عن أولئك من جنوبها. ثمة اختلاف عن الطريقة التي يتحدثون بها عن الحرب. هم أكثر ثقة في الجنوب، وأكثر انفتاحًا. في الشمال، لن يتحدثوا بانفتاح، فهم أكثر ريبة».

ملاحظات سامانثا عن الاختلاف بين المتحدثين في المناطق المختلفة، جعلتني أتأمل في تأثير المُستمع على حكي حكاية. السامع هو من يوجه القصة، مثلما لاحظ كالفينو: ليس الصوت هو من يتحكم في الحكاية، بل الأذن.

السامع هو من يحدد ماذا يُقال. الشهود المصدومون يحتاجون إلى مساحة آمنة للتحدث، وللثقة في سامعيهم. وهناك بالطبع الشاهد الداخلي، ذلك الذي ينصت بداخلك عندما تتحدث.

أجد أن الإنصات، وأنا على مسافة لاعتمادي على الإنجليزية، أصبح مشاركة فعالة مع لغة تكمن وراء الكلمات. ولأني عائدة من الخارج، أنا واعية بوجود عوائق للثقة تحتاج إلى التغلب عليها. ربما تكون هويتي مائعة غير ثابتة، لكن اسمي الثاني البرتغالي يقدمني

كسنهالية جنوبية وعلى الأغلب مسيحية أو بوذية. أحاول حمل علامات هويتي بأخف ما يمكن؛ ألبس كامرأة من المدينة، أتحدث كعائدة من الخارج، أنصت ككاتبة تحاول أن تتواصل. وفي غضون كل ذلك، أنا واعية بأن كل متحدث يقرؤني بشكل مختلف.

نساء ماتارا وكاندي -وأغلبهن أمهات مثلي- يتحدثن بانفتاح عن الزواج والعلاقات، ربما يبتسمن بخجل عندما يذكرن الحب، لكن حكاياتهن تنتهي في الأغلب بتأملهن في قوتهن الشخصية. يقع الأبناء، أو النجوم اللامعة التي تُنبئ بمستقبل الأسرة، ضمن اختصاص الزوجات والأرامل والأمهات، والنساء قد حاربن من أجلهم، ووجدن ثقتهن بأنفسهن تنمو خلال ذلك. وجدت الكثيرات قوتهن من خلال المعاناة، وصرن أكبر من خلال الخسارة. قابلت في هذه الرحلة عددًا أقل من الرجال. غزل أغلبهم خيوط قصته من خلال عمله، الذي قاطعه العنف وخسره بسببه. تتمحور قصصهم غالبًا حول الخسارة الفادحة لذلك العامل الحيوي، وحديثهم يخوض في زمن مختلف، في محاولة لاستعادة نفس سابقة. باستثناء بياسينا قارع الطبول، وفاديفيل الذي يُعرف نفسه كـ«أب»، يبدو الرجال منكسرين من هذه التجارب، لم يعودوا واثقين بانتماءاتهم.

ونعم، ملاحظة سامانثا لها صدى حقيقي في الجزء الأول من رحلتي، كان من قابلتهم في ماتارا وكاندي بالفعل منفتحين، باستثناء ريفايدين الذي نجا من انفجار القنبلة، وتحدثوا بثقة قد تبدو مخيفة بالنسبة إلى البعض. لذا عندما حان الدور على باتيكالوا، أنا جاهزة لرؤية التبدل الذي حذرني منه سامانثا.

تحفظ، ريبة، نظرات حذرة، أعين باردة.

لكن بدلًا من ذلك يقابلني ما هو أكثر إرباكًا بكثير. صمت الانتظار المتجهم، أسلاك شائكة من الأوراق الرسمية المفعمة بالكلمات الحادة. فاديفيل جاء مسلحًا بالأوراق الرسمية والشهادات والخطابات القانونية. موهانامبيكاي وناداراجاه جاءا بحفيف مقالات الصحف وتصريحات الشهود والصور الفوتوغرافية وشهادات الوفاة. ثمة إحساس ملموس بأنه بدون هذه الوثائق لن يصدقهم أحد، وحتى بوجودها، لن تتحقق العدالة.

الصور الفوتوغرافية التي يحملونها لم تعد صورًا، بل أشكالًا من زمنٍ آخر. الموتى محمولون على أذرع آبائهم، على صدور أمهاتهم. الموتى لم يُنبذوا، بل صاروا جزءًا من الحديث. إنهم هنا لتقديم دعواهم.

في باتيكالوا، لم أكتشف فقط محدودية القانون، بل كذلك محدودية لغته، وما الذي يضيع عندما تتحول حكايات الفقد إلى «قضايا» حقوق إنسان.

هذه القضايا أمتعة محمولة، متخففة من فوضى المشاعر الإنسانية وتقلبات الأصوات. إنها تتشكل من ملاءات الأدلة المغسولة والحقائق الجامدة التي يشير مجموع وزنها الكلي على موازين العدالة إلى ما هو خطأ قانونيًا. بعض الأشخاص الذين أقابلهم، هنا وفي جفنا، منهكون من حمل وتفريغ وإعادة تحميل قضاياهم، ونقلهم من مكان إلى مكان.

انظري، هذا ابني، وهذا زوجي، وهذه شقيقتي. هنا التواريخ، هنا الوثائق، هنا الخطابات والردود عليها بالأختام الرسمية. هنا الدليل. ماذا تحتاجين أيضًا؟

عندما أنصت إلى حديث أولئك الناس، تكشف القصص عن ذكريات تنسكب وتمتد. ثمة غضب. ثم وجع مستقبل مفقود. ذاك هو المغني وتلك هي الأغنية.

∞

ما بين الشيطان وأعماق البحر

تقول أوراق المجلس الوطني للسلام إن موهانامبيكاي خسرت ثلاثة أفراد من أسرتها في ثلاثة أعوام متعاقبة، في مدينة أرايامباثي المطلة على بحيرة. تقول الأوراق إنهم جميعًا قد تم جرهم من بيوتهم ثم تم إطلاق النار عليهم.

لكني أكتشف أن ذلك لم يكن صحيحًا بالكامل، فمن سَجَّل الملاحظات اكتفى بحقيقة أساسية واحدة: أُطلق النار على أقارب موهانامبيكاي وقُتلوا في أماكن مألوفة كان يجب أن يشعروا بالأمان فيها. تكشف قصتها عن كيف يتداعى الإحساس بالرابطة المجتمعية تمامًا عندما يصبح البيت -الملاذ الأخير- غير آمن، عندما لا يعود هناك مكان آخر للذهاب إليه. وسأكتشف أن موهانامبيكاي عندها قصة أكبر لتحكيها. وبعد أسبوع من عودتي إلى إنجلترا، سترسل إليَّ حكاية مدينتها مكتوبة، وهي متضمنة هنا أيضًا.

شقيق موهانامبيكاي وأبوها وأختها، قُتلوا جميعًا على يد جماعة تاميلية انفصالية، منظمة تحرير تاميل إيلام (تيلو TELO)، المنافسون الرئيسيون لنمور التاميل (LTTE). كل القتلة قُتلوا لاحقًا على يد نمور التاميل.

تيلو كانت ذات يوم مكونة من تلاميذ متمردين، لكن، بعدما فقدوا زعيمهم، صاروا حزبًا سياسيًّا يبدل ولاءه على مر الأعوام. كان التيلو وقتما قتلوا أقارب موهانامبيكاي قد وهنوا إلى حد ملحوظ بسبب خسارتهم زعيمهم وبسبب تمرد نمور التاميل بعد انسحاب قوات حفظ السلام الهندية. بعض أعضاء التيلو أنشؤوا صلات مع الدولة.

قصتها تفصح عن الحقائق الفوضوية المحلية للحرب الأهلية، وتبدلات مراكز القوى، وصراعات الحدود بين البيوت، وتنافس المتمردين وتبدل الولاءات، ومسامية حماية الشرطة، وانحطاط القانون، وكثرة الأسلحة، والقتل الانتهازي، وجاذبية نمور التاميل، والرعب المتعاظم إلى أقصى درجة بينما يزحف العنف متجهًا إلى عتبة بابك الأمامي.

الموقع عامل مهم في حكايتها. مدينتها الأم، أرايامباثي، تقع على لسان ساحلي بين بحيرة والبحر. كانت خلال الحرب عالقة دومًا على خط النار بين المجموعات المتناحرة. موقعها هو تذكير دائم بعدم الاستقرار الجيوسياسي للمنطقة الشرقية التي، من أعلى، تبدو وكأنها مشتتة ومقسمة بعناية مع البحيرات والبوغازات الضحلة.

تتبع الأمور هنا منطقًا مائيًا مبهمًا. الوصول إلى المياه -الطرق السائلة- يسمح بهروب المُطارَدين، وغرق الأدلة، والولاءات الزلقة. إنها منطقة مصقولة حادة مثل نصل السكين، يسيل العنف فيها ويتناثر بسهولة كالدماء.

ليس من المفاجئ أن موهانامبيكاي تقيس السعادة بالحد الأدنى. تخبرني أن كل شيء كان في البداية على ما يرام قبل اشتعال العنف حولها، فعائلتها، حتى تلك اللحظة، كانت متروكة لحالها.

موهانامبيكاي رقيقة الحديث، شعرها رمادي أشعث ناعم، ذراعاها كبيرتان، عيناها عميقتان وكأنهما بئران. يختلط حديثها في المقابلة بدموعها، لذا فحكايتها لزجة مليئة بالشهقات. تلتف بسارٍ أحمر فاقع، بلون الكركديه الذي يبدو أنه يجعلها متماسكة. تخبرني عندما تقترب المقابلة من نهايتها أنها خسرت أخيرًا ابنة أخ في السابعة عشرة من عمرها. هذه الخسارة الجديدة تعيدها من جديد إلى صلوات الضياع التي خاضتها قبل ثلاثين عامًا تقريبًا. كانت من عائلة مترابطة من ثمانية أبناء، وهي الثانية منهم. أبوها كان مزارعًا عنده متجر صغير، وأمها ربة منزل. ارتادت موهانامبيكاي كلية حكومية، تُعرف حاليًا بالكلية الهندوسية، ودرست حتى المستوى O. هذه الفترة من طفولتها كانت أسعد فترات حياتها. «كان زمنًا بهيجًا!».

عندما كانت في الثالثة والعشرين، تزوجت صاحب متجر أكبر منها بتسع سنوات، في زواج رتَّبه مسبقًا والديَّ كلاهما. لا نناقش هنا زواجها، فتلك قصة الأسرة التي ولدت فيها، التي مزقتها ثلاث رصاصات أطلقها رجال لهم أسماء:

تخبرني بأسمائهم: ساراث، فيلا، أنور.

أحفظ أسماءهم كي يصبح هذا الكتاب سجلًا لتورطهم.

كانت في الثالثة والثلاثين عندما وقعت أول حادثة، متزوجة وتعيش في البيت المجاور لبيت عائلتها. أواخر الثمانينيات كانت زمنًا سعيدًا، لكن في أوائل التسعينيات -بعد انسحاب قوات حفظ السلام الهندية- زاد العنف بين نمور التاميل والجيش السريلانكي.

نمور التاميل كانوا يهجمون بطريقة «اضرب واجرِ»، خاصة بالقرب من مراكز الشرطة. عاقب الجيش القرويين بعد كل هجمة، وسحب الناس من بيوتهم. كانت هناك تهديدات واعتداءات من الجيش والشرطة في منطقتهم، لكن برغم ذلك، الحياة العائلية كانت طيبة والأمور مستقرة.

في ٥ أكتوبر ١٩٩٠، كانت في بيت عائلتها الأساسية، تشاهد الأخبار على التلفاز بصحبة أمها وأخواتها، عندما جاء رجل يُعرف بساراث ودخل بيتهم حاملًا مسدسًا. ساراث كان عضوًا في التيلو، وواشيًا للجيش. جذب شقيقها من بينهم وجره خارجًا من البيت، ملوحًا بالمسدس كي يتأكد من عدم تدخل أي أحد.

صرخوا: «دعه يذهب، دعه يذهب!»، بينما كان يجبر شقيقهم على المشي أمامه في حارة بجوار بيتهم.

تبعتهما الأسرة كلها، لكن فات الأوان، خرجت الرصاصة من المسدس. رأت شقيقها يسقط. مشى ساراث متجاوزًا إياه بلا مبالاة، فقد قام بوظيفته.

«كان سريعًا... حدث كل شيء بسرعة خاطفة. وقع إطلاق النار في غضون دقائق قليلة، الأمر كله حدث في نطاق نصف ساعة. لم نتلقَ أي تهديدات سابقة، لذا لم يكن لدينا أي سبب لتوقع حدوث شيء مشابه. خرج شقيقي دون مقاومة، وتلقى الرصاصة في صدره. مات، وجاءت الشرطة لأخذ الجثة ونقلوها إلى المستشفى، ثم سمحوا بخروجها في اليوم التالي».

بأخذ الشرطة للجثة سُجِّل الموت رسميًا. لم تتبع العائلة مسارًا قضائيًا قانونيًا خوفًا من استهداف بقية الأشقاء وعقابهم.

«كنا مذعورين، خفنا من العواقب، لم نكن متيقنين مما قد يحدث لبقيتنا لو تابعنا البحث عن العدالة».

بعدها تركت موهانامبيكاي بيتها وقضت شهرين أو ثلاثة بعيدًا عند أقارب آخرين.

لماذا؟

«لأن التيلو جاءوا وحذروني من تقديم أية معلومات للشرطة. هددوني في بيتي. جاء شخص غير معروف. لم يكن يرتدي قناعًا، لكني لم أعرفه. ظل زوجي يعيش في بيتنا. بعدما ذهبت توقفت التهديدات».

هل كنتِ الوحيدة من أفراد أسرتك التي تعرضت للتهديد؟

«نعم».

لماذا؟

«لأني كنت من اشتكى للشرطة».

بعدما عادت إلى البيت، صارت حياة الأسرة صعبة. شقيقها كان يعمل في بنك بيبولز، وراتبه كان جيدًا. دون مساهمته المادية أمست الحياة أصعب. صار أبوها ينام في كوخ على بعد ميل، بصحبة صديق، لحماية أرضه.

في ليلة ٢١ أغسطس ١٩٩١، سمعت موهانامبيكاي إطلاق نار لكن لم تكن لديها فكرة عن الذي أطلقه ومن كان هدفه. في الصباح التالي جاء صديق أبوها ليراهم، وأخبرهم أن

عضوًا من التيلو جاء وهددهم في الكوخ، وعندما ذهب ظل أبوها يقف في حراسة أرضه. سمع هذا الصديق لاحقًا صوت طلقة الرصاص في الظلام.

«لم يخرج على الفور ليخبرنا، لأنه خشي من أن يحدث له شيء أيضًا. لم يأتِ ويخبرنا إلا بعدما جاء الصباح». كان عليه الذهاب إلى العائلة وإخبارهم أن أباهم ربما يكون قد قُتل ليلة أمس.

«لم يكن هناك وقت للتفكير، هرعنا جميعًا إلى هناك. ركضت فوجدت جثة أبي في الكوخ. لم أعرف من أخبر الشرطة، فقد جاءوا وأخذوا الجثة. أُطلق على أبي النار في صدره، ضربوه بالنار بينما كان نائمًا، ممددًا على ظهره».

استجوبت الشرطة صديق والدها وعرفت أن القاتل شخص اسمه فيلا، ما يعني «أبيض». «كان عضوًا في التيلو التي كانت تعمل مع الجيش السريلانكي». ونعم، كانت موهانامبيكاي تعرفه، كان يعيش في قريتها في ذاك الوقت.

السرعة التي روت بها موهانامبيكاي قصتها تستدعي التمهل لنحاول أن نستوعب عمليتي القتل، حالتي الموت في العائلة، في أقل من عامين.

كيف تابعت قدمًا بعد ذلك؟ كيف تمكنتِ من الحياة في القرية وأنت ترين هذا الرجل في الأنحاء؟

«كان أفراد التيلو يمشون في القرية في الوقت الذي لا يجرؤ فيه أهلها على الخروج. لا ينظر أفراد التيلو إلى وجوهنا، ويخشى الناس من التعامل معهم. إنهم لا يخافون، نحن فقط من نخاف، لا نجرؤ على الخروج من بيوتنا من الذعر. لقد عانينا كثيرًا. في البداية شقيقي، ثم أبي. كان أبي الشخص الوحيد من عائلتي الذي له دخل في ذلك الوقت، لذا صارت الأمور ماديًّا صعبة».

حاولوا المتابعة. موهانامبيكاي لم تقدم أي شكاوى رسمية هذه المرة، لذا لم يتعرضوا للتهديد.

لم تشتكِ بسبب عدم تحقيق الشرطة بأي شكل في مقتل شقيقها، وبسبب التهديدات التي تلقتها سابقًا. كان عندها ابن في الخامسة من عمره في ذلك الوقت، ولم تحب أن تزور المتاعب أسرتها مجددًا. رأى ابنها جثة أبيها ممددة في الكوخ. علم أن جده كان ميتًا لكنه بلا تفاصيل. يعلم الحقيقة كلها الآن.

تبكي موهانامبيكاي الآن وتستنشق دموعها. يصعب عليها إيجاد الكلمات لوصف ما حدث لوالدها، لم تُشِر ولو لمرة إلى ما حدث على أنه جريمة أو قتل. تضع العنف على مسافة منها، وتشخصن تأثيره، وتتحدث بدلًا من ذلك عن وفاته وجنازته، و«ما فعلوه».

«لا زلنا لا نفهم لماذا فعلوا ذلك ببابا، لا زلت أحاول أن أعرف. لا علم لي بأي عداوة شخصية كانت موجهة إليه. أبي كان هادئًا ولم يسعَ إلى أي مشكلة في وقت انتشار العنف حولنا».

تخرج مقالًا في جريدة باللغة التاميلية يحتوي على صور لوالدها وشقيقتها وزعيم التيلو الذي قُتل أيضًا. تخبرني بأن المعلومات متوفرة على الإنترنت، وتقدم صورة لوالدها برفقة ابنها، وصورة أخرى لشقيقتها كانت قد استُخدمت في يوم إحياء الذكرى العائلية. تكمن هذه الذكرى الشخصية بين أوراق الجرائد، تتداخل القصة الرسمية والقصة الشخصية.

«كل من أساؤوا إلى أسرتي قتلهم نمور التاميل. لا زلت أشعر بالغضب تجاه التيلو والامتنان تجاه نمور التاميل لما فعلوه. التيلو كانوا يدعمون الشرطة، وذلك كان سبب قتل نمور التاميل لهم. لذلك السبب لم تحقق الشرطة في القضية، الشرطة...»، أضافت بحدة، «ربما تكون من حرضت على هذا القتل».

التفاصيل التي قدمتها ألقت بالقصة إلى مستوى جديد من البلبلة. اقتراحها أن الشرطة ربما تكون خلف عمليات القتل له وزن أكثر من مجرد الريبة... حقائق البيت تزن أكثر من

الادعاءات الرسمية. قُتل شقيقها وأبوها على أيدي ناس متحالفين مع الشرطة، ولم يُحقق رسميًا في مقتلهما. تلك التي تبدو وكأنها جرائم قتل عشوائية، تكاد تكون قتلًا غير رسمي بتحريض من ممثلي الدولة لأسباب غير معلومة.

موهانامبيكاي قامت بربطٍ لا يجرؤ عليه الصحافيون ولن تقوم به المحاكم. هذه هي الأسرار العامة التي تعيش فيها عائلتها كل يوم.

حقيقة أن القتلة قُتلوا لاحقًا بواسطة نمور التاميل، تجعل الأمر يبدو وكأن «العدالة» تحققت على أيدي هؤلاء الذين يُعدّون إرهابيين، ما يفصح عن الدرجة التي انحدر إليها القانون. عندما تفشل الدولة في تطبيق القانون، يسقط منطق القانون أمام منطق الانتقام الخاص والثأر وقواعد العدالة الأهلية... العدالة تصبح خارج نطاق القانون.

«الناس هنا يرون العدالة بشكل مختلف»، سيخبرني بهذا لاحقًا الأب بول من شرفة سانت ميشيل المفتوحة، «العين هنا بالعين، والسن هنا بالسن».

الحكي وقول الحقيقة يصبحان جزءين من عملية محاولة استرجاع بعضًا من العدالة. هذا ما حدث، هذا تسجيل حقيقي، اسمعي واكتبي.

موهانامبيكاي تتحدث بعد ذلك عن أختها، القتل الثالث، وتوفر سياقًا تاريخيًا قبل أن تصف الواقعة نفسها.

أختها كانت متزوجة بشخص يعمل في السعودية. كان الزوج قد رجع ليرى زوجته قبل مقتلها بفترة وجيزة ثم عاد لعمله. اليوم الذي سبق مقتل أختها، كان فيه نمور التاميل قد دمروا سيارة تابعة للتيلو بالقرب من بيتهم. اعتقد أفراد التيلو أن كوادر نمور التاميل يختبئون في بيتهم، وربما خططوا للهجوم منه، لذا قرروا استهدافه.

في ٨ فبراير ١٩٩٢ -بعد ستة أشهر فقط من موت الأب، وستة عشر من مقتل الأخ- اتجه إلى بيتهم عضو مسلم من التيلو يُدعى أنور. هرعت الأسرة لتختبئ في غرف مختلفة،

وأختها اختبأت في غرفة البوجا، التي كانت الأقرب للباب الأمامي. دخل أنور الغرفة وجرّ أختها إلى الخارج ناحية البوابة الأمامية. صرخات أختها الطويلة المتوسلة للمساعدة اجتذبت أفراد الأسرة من غرفهم. رأت موهانامبيكاي أنور يطلق النار على أختها في المعدة. كانت أختها حاملًا في شهرها الثاني في ذلك الوقت.

ثم تنزلق موهانامبيكاي إلى سجل شخصي بعدما أحالتها الواقعة إلى ذكرى ما خسرته. جعلت تحكي لي عن عطف أختها وحبها لابن عمها، «فتى مميز» لديه متلازمة داون.

تقول إن شقيقها المقتول أيضًا كان طيبًا وشديد الكرم. كان مغنيًا جيدًا، واستخدم دخله من البنك ليساعد الأسرة. كان بارعًا في السنهالية، بعد أن تعلم في التيار السنهالي بالمدرسة، وساعد آخرين في مجتمعهم على تعلم اللغة.

أحاول استيعاب هذه الحقائق (شقيقتها تهتم لأمر طفل يعاني، شقيقها يلعب دور الوسيط الثقافي، يحاول الوصل بين المجتمعات) بينما هي تكرر أسماء القتلى مثل صلاة المانترا: ساراث، فيلا، أنور.

أضيف أسماء من قُتلوا لأتأكد من أن الذكرى كاملة:

أخوها: جوروسينجام.

أبوها: إلايثمبي ثامبيراسا.

أختها: مالار.

أود معرفة المزيد عن شعورها تجاه نمور التاميل، لو أن طفولتها «بهيجة» مثلما وصفتها، فلماذا أصبحت تتعاطف معهم، ماذا حدث بين تلك الأزمنة؟ لكن مثل تلك الأسئلة ستكون قاسية في سياق معاناتها، والدموع التي تمسحها. أسألها بدلًا من ذلك عن الأحداث التي أثرت عليها، أسألها بطريقة قد تساعدها في فصل نفسها عن ذاك الوقت.

تفكر موهانامبيكاي مليًا قبل أن تجيب.

«توفيت أخيرًا ابنة أخي ذات السبعة عشر عامًا بحمى الضنك(18). عشت حياتي أعاني من تلك المشاعر، والآن يُضاف إليها ذلك. لم أذهب بقضية أختي إلى المحكمة، كنت أكثر خوفًا من أن أفعل ذلك. لكن لو أن من الممكن تحقيق العدالة الآن، فلدي القوة لتحقيقها. حتى برغم أن القتلة ماتوا». تخفض رأسها وتمسح عينيها.

«قُتلت أختي لأنها كانت في أول غرفة، كانت أول شخص وصل إليه. فعل ذلك ليخيفنا. أختي كانت أمًّا عندما حدث ذلك. أمست أمي مريضة طوال الوقت منذ ذلك الحين، طريحة الفراش وكفيفة. كلما لا تكون أمي ترعى أطفالًا، كانت تبكي. نتحدث جميعنا من بين دموعنا. البكاء كان الشيء الوحيد الذي يخفف الألم. بكينا في الكوفيل للآلهة. مر وقت طويل منذ تحدثت عن ذلك، منحني الحديث عنه الآن راحة كنت بحاجة إليها».

أسألها عن اهتماماتها، في محاولة لجذبها إلى الحاضر، فتخبرني أنها تحب الروايات، خاصة المسلسلة، وهي قارئة نهمة للصحف.

أسألها لو أن عندها رسالة للآخرين، خاصة للغرباء عن سريلانكا.

«أريد أن يتعاطف الناس مع عائلتي. بالطبع عندما يعرفون أن هذه حكاية خسارة ثلاثة أفراد من عائلة واحدة، سيتعاطفون. لا يجب أن يحدث ذلك لأي عائلة في هذا العالم».

ثم -بعد أن قادتني عبر الطرقات المظلمة الوعرة إلى قوات تطبيق القانون المحلية، وبينت لي كيف يتحول ذلك إلى انتقام سهل وإرهاب مفتوح يتمدد ويدوم من خلال آلاف التغيرات متناهية الصغر في القوة من شخص إلى آخر- تضيف بصراحة كاملة: «لا أستطيع أن أتحدث عن أشياء أكبر، ليس لدي المعرفة لمناقشة الشعب ولا البلد».

بعد أسبوع من عودتي إلى إنجلترا، سأستقبل خطابًا من موهانامبيكاي، فيه تشهد على العنف الذي استولى على مدينتها الأم. ها هي قد جلست ووجدت الكلمات المناسبة لتكتب

عن «أشياء أكبر». كلماتها تحتوي تفاصيل أحداث موت واختفاء واغتصاب، وكذلك أسماء بعض من قُتلوا. أقدمها هنا مثلما وعدت:

حصد الصراع العرقي في سريلانكا أرواح الكثيرين من التاميل الذين يعيشون فيها، وأرايامباتي هي واحدة من أكثر القرى تأثرًا بذلك في مقاطعة باتيكالوا. ثمة شابان، اسماهما كوتيماني وثانجاثوراي، كانا قد قُبض عليهما من جفنا في يوليو ١٩٩٣ بعد حادثة وقعت في نفس السنة، قُتلا في سجن ويليكادا. بهذه الحادثة صار الإرهاب بؤرة كل شيء.

بعد ذلك دخل الجيش مقاطعة باتيكالوا. عندما دخل الجيش أرايامباتي عام ١٩٩٤، أخلى أهل القرية بيوتهم وهربوا إلى أماكن أأمن ليحافظوا على حياتهم. بعض شباب المسلمين شاركوا في مساعدة الجيش. في هذه الأيام، حاولت أسرة عبور البحيرة القريبة على قارب، وانتهت محاولتها بمأساة. في خضم هروبهم المتعجل، غرق القارب ومات ثلاثة أفراد من نفس الأسرة، أسماؤهم: بوبالابيلاي لانجيثامالار، وبوبالابيلاي جيفامالار، وبوبالابيلاي ثانالاتشومي.

في الأيام التالية، نصب الجيش معسكرات في أنحاء أرايامباتي وحولها. عاد النازحون إلى بيوتهم. استمر الجيش لاحقًا في جمع أهل القرية وفحص كل بيت.

خلال عمليات البحث تلك، أُلقي القبض على كثير من الذكور في العائلات، وأُرسلوا إلى سجون ويليكادا وبوسّا. جاء الأهالي لتفقد أماكن أبنائهم وزاروهم باستمرار. أُطلق سراح بعضهم بعد سنوات قليلة، لكن أكثر من مئة لم يُطلق سراحهم. أحدهم هو ماهيندران يوجاراسا من أرايامباتي.

لاحقًا، عندما جاء الجيش مجددًا لإجراء عملية بحث، ركض شخص يُدعى موهان هاربًا من فرط الخوف، أُطلق عليه النار ومات. وذات يوم حصار عسكري آخر، شاب آخر اسمه نيرمالاناث (سوسو) ركض من الخوف طارده الجنود وضربوه بالنار ومات. ربطوا جثته في

عصا وحملوه على أكتاف الجنود وكأنهم في موكب، حتى وضعوه في أحد سياراتهم الجيب. كلا الرجلين كانا أناسًا كافحوا من أجل الحرية.

بعد ذلك، شخص اسمه كونامالاي مات بالرصاص عند تقاطع أراسادي، تبعه ثافاراسا الذي ضُرب بالنار وتُرك جسده معلقًا في شجرة قريبة من مستشفى أرايامباثي. ثم تلا ذلك قتل آخر لسانثانباكياراسا. ١٩٨٦ و١٩٨٧ كانا العامين اللذين أدى فيهما حكم الجيش السلطوي العدواني إلى مقتل العديد من الشباب الأبرياء. شباب مثل سوريش وكانثان وسانثرابوس قتلتهم في الشارع مجموعة يقودها شرطي اسمه بياسينا. قُتل شخص اسمه جونام أمام معبد كانداسوامي. موهانوساثيس وبريان كذلك أُطلق عليهم النار وماتوا.

عام ١٩٨٧، بعد وصول الجيش الهندي (قوات حفظ السلام الهندية)، هدأت تلك المشاكل نوعًا وصار هناك سلام. لاحقًا، عندما صار هناك صراع بين الجيش الهندي والنمور، قُتل العديد من شباب التاميل على يد الجيش الهندي. لاحقًا أُخذ بعض الشباب للتدريبات العسكرية قسرًا. خلال تلك المصائب قُتل شاب يُدعى مالي. لاحقًا، مع بداية مباحثات السلام، حدث وقف إطلاق نار وذهب الجيش الهندي، وصار هناك سلام مجددًا.

ثم قام الصراع مرة أخرى عام ١٩٩٠. في هذا الوقت، ارتبطت الكثير من المجموعات الميليشية بالجيش السريلانكي، ما أدى إلى فوضى عارمة. نُهبت الكثير من البيوت في هذا الوقت ودُمرت أيضًا. في السنوات التالية، خاصة في ١٩٩٠ و٩١ و٩٢، قُتل ثلاثة أفراد من عائلتي على يد مجموعة التيلو الميليشية. عام ١٩٩٠، قُتل تشيناثوراي بورانالاتشومي. اختفى الكثير من الشباب. أكثر من خمسة وعشرين رجلًا، بمن فيهم ت. سونثاراليnجام، ضُربوا حتى الموت. عام ١٩٩٠، نافاريتنام، الذي كان عائدًا إلى بيته بعد صيد الأسماك، قتله عضو مسلم في القوات المدنية، وتُرك جسده طافيًا في النهر. بعد ذلك قُتل شاب يُدعى فايران يوجان أيضًا.

شهد عام ١٩٩٥ موت صديقين اسماهما موثثا وكاروناكاران، قتلهما الجيش. قبل هذه الحادثة مباشرة قُتل أيضًا شخص يدعى بابا. ولم يفرق بشيء أن شقيق ذلك الشخص

تناول السيانيد ومات في نفس المكان الذي كان فيه الجيش الهندي حاضرًا.

وأيضًا قُتل قائد مجلس السلام كاناباثيبيلاي ومدرس متقاعد اسمه راساريتنام خلال زمن الجيش الهندي.

في العام ٢٠٠٠، قُتل كاهن كوفيل يدعى نافاريتنام. وشاب اسمه فاموثيفان كان يحاول عبور الطريق الرئيسي من طريق القرية الداخلي وأُطلق عليه النار. خلال تلك الفترة اغتصبت مجموعة ميليشية فتاتين صغيرتين وقتلتهما ورمت جثتيهما في النهر.

هناك العديد من الحوادث الأخرى التي وقعت ولم تبلغ علمي. نُهبت بيوت عديدة، بعضها هشموه حتى سُوي بالأرض. كل هذه الأشياء وقعت في قرية أرايامباثي في باتيكالوا. بالشكل نفسه قُتل آلاف الشباب في بقاع مختلفة من البلد أو ضاعوا أو اختفوا. اغتُصبت نساء كثيرات وقُتلت. مع أن هذا النوع من الحوادث وقع في أسرتنا، لم تتخذ الحكومة أي إجراء. أختتم قولي بذكر أن الحكومة لم توفر حتى بيتًا واحدًا.

موهانامبيكاي.

∞

الخوف والتعافي

مغادرة باتيكالوا، ٣١ أغسطس.

الطرق مستقيمة مثل نخل جوز الهند الذي يقف كالأوتاد طالبًا الانتباه، حاضرًا منتصبًا. على الطريق الخارج من باتيكالوا المئات من رجال الشرطة في الملابس الكاكية والأحزمة البيضاء، على دراجات نارية وفي سيارات جيب مصطفة جنبًا إلى جنب، يوقفون المرور. يوقفون التوك توك وشاحنات اللوري، أصغر العربات وأكبرها على حد سواء، ويطلبون من

السائقين الترجل. يفحصون بطاقات الهوية ويفتحون صناديق السيارات والحقائب والصناديق والزكائب، ويحققون مع الركاب.

ولكن يمكنك تسريع الأمر برمته ومتابعة طريقك مقابل ٥٠٠ روبية.

أما نحن فنظروا إلينا فقط، ولوحوا لنا، وتابعنا طريقنا على الطريق المرصع بالشرطة.

مضينا متجاوزين الحبيبات البشرية ذات اللون الكاكي المترب والأيادي المختلسة عديمة القفازات، عبر طابور لا نهائي بلون الروث.

كالكوداه وباتيكالوا، ١ سبتمبر.

نتناول الغداء في لايا ويفز، فندق جديد شاسع ذو شرفات واسعة، تحت أسقف عميقة التحدب سهمية الرأس، ترتفع بجوار بيت الضيوف على الشاطئ. شريحة نضرة من الأرض العشبية تعطي إيحاءً بالخضرة خلف سياج سلكي. حمام سباحة خاوٍ يلتمع كالفضة في القيظ.

نستطيع من مائدتنا أن نرى الموجات الواهنة تتقطر وتتداعى على خط الشاطئ. ثمة أوروبي في رداء سباحة أسود مسترخٍ بصحبة كتاب على أحد أسرّة التشمس الخشبية المصطفة في طابور. يتكور ثلاثة كلاب في ظل أحد القوارب؛ هم العنصر الوحيد في هذا الترومان شو(19) الذي يبدو محليًا أصليًا غير متوقع.

عند الباب الجانبي لقاعة الأكل، هناك رجل حليق الوجه ذو أعين متوقدة، يوزع أوامره على النُّدُل والسائقين القادمين بينما يتحدث في الهاتف الجوال في الوقت نفسه. يرتدي قميص بولو بلون أخضر غامق وبنطالاً أسود يدس فيه هاتفه وهو قادم ليتحدث إلينا. يبتسم بأناقة ويسألنا بإنجليزية مشذبة واثقة كيف كانت رحلتنا. نخبره أن هذه أول مرة لنا هنا ونسأله عن تاريخ المكان. يخبرنا أن المكان الذي نأكل فيه كان من قبل معسكر جيش، وبنى الفندق الجنود أنفسهم.

يبتسم، «حولناه إلى فندق لنساهم في تحسين المجتمع».

قادتنا خطانا إلى أرض عجائب عسكرية، مزارات الجيش السريلانكي الخاصة السحرية السياحية. عدا أن كل مؤشرات الاحتلال لا تزال هنا؛ في الدقة التي يُكنس بها الشاطئ، في النظام العسكري في رصّ أسرّة التشمس، في الأسطح كاملة النظافة، وبالطبع في الأصوات المشذبة والأعين المنتبهة للطاقم، الذين ينتظرون بثبات أن يوجه الحديث لهم. يبدو النُّدُل وبقية الطاقم هنا ضجرين، بلا محور ارتكاز، لهم هالة الأشخاص المنتبهين لكن الهائمين، غير متأكدين مما يفعلونه هنا. سيعتنون بك لكنهم لن يخدموك. هنا كياسة لا خنوعًا.

يثرثر الرواد الآخرون ويتضاحكون بيسر شديد مع بعضهم. يتحدثون بالإنجليزية والسنهالية ويبدون غافلين عن المكان الذين هم فيه. سلوكهم أكثر استرخاءً مما قد يُتوقع من السياح وأكثر سلاسة في التعامل مع الجنود في الملابس المدنية من أن يكونوا بلا علاقة بهم. قبل أن يغادرنا مُحدثنا، الذي اتضح أنه مدير الفندق، أود أن أستوضح أمر النُّطْق، وأسأله عن اسم المنتجع الذي يعني (استرخاء) بلسان قديم غير منطوق.

يجيب بلا أي إحساس بالسخرية: نعم، (لايا) تُنطق بالفعل بهذه الطريقة. وتمنى لنا يومًا سعيدًا.

نمشي في طريق من الأشجار الشائكة والشجيرات الجافة، حتى نصل إلى تقاطع بجوار مبنى بلون البسكويت أبوابه مفتوحة.

لا علامات على الطريق هنا، بل مجرد ألواح مربعة بيضاء عليها كتابة إنجليزية تقف على أرض رملية. الأشكال السوداء المرسومة عليها تمثل الرمز العالمي للإنسان. الرؤوس قذائف مدافع والأجساد والأطراف نقانق تخرج من نقانق. الشكل الأول عارٍ، ويقف تحت رذاذ من الخطوط المتقطعة، ويشير إلى (استحمام). الصورة الثانية تظهر شكلي نقانق يرتديان الملابس، أحدهما يرتدي بنطالًا والآخر تزينه تنورة تبدو كالمظلة، ويشير إلى (تغيير

الملابس). الثالثة هي مسقط جانبي لشكل زهرة توليب بيضاء ضخمة منفرجة، تقول (حمام).

نمضي عبر صف ضخم من عربات التوك توك الفارغة وصف من المتاجر الفوضوية التي تبدو متهدمة لكنها مترعة بالبضائع. مطعمان خاويان يعلنان عن غرف مجهزة بمكيف الهواء، مخبز ذو نافذة عرض زجاجية تعرض الكعك والفاداي(20)، متجر يحتوي على وفرة من المنتجات؛ كل شيء بداية من مصابيح الإضاءة وطارد الناموس إلى الفلفل الطازج والمثلجات. وراء ذلك نرى تكتلًا من الأشجار يكللها سقف هرمي ذهبي؛ هذا مجمع معابد مخصص لربة الأمطار. إنه خاوٍ من الناس، لكن هناك أعلام ملونة وصلوات ورقية ترفرف من شجرة ذات جذور متعددة. ثمة زهور نذرية بيضاء وصفراء بجوار الربة ذات الأذرع الأربع في غرفة الضريح. تتوهج أطراف عيدان البخور بلمعة برتقالية.

بينما نغادر، نرى رجالًا يتثاقلون في المشي على الطريق، يهمزون بقضبان معدنية طويلة المصارف وصناديق القمامة والأجمة، وتفوح منهم هالة لامبالاة مصطنعة تجاه من يمرون. مجموعة أكبر من رجال الجيش تجتمع تحت أيكة من أشجار الأكاسيا على الناحية الأخرى من الطريق، أزياؤهم المرقطة تندمج مع وهج أوراق الأشجار واللحاء.

بعد ساعة، نرى من المرفأ المفعم بضجة الأطفال السابحين في البحر خنفساء سوداء عملاقة لامعة تتسكع بين السحاب، تمخض الحرارة بين نصال مروحتها.

«رئيس الوزراء يمكث في فندق قريب».

نذهب إلى الأب بول في باتيكالوا في ذلك المساء. كنا قد لمحنا سابقًا لافتة لأحد مشاريعه (دريمكاتشر) على الطريق. الكل يعرف الكل هنا، ونحن قد اتصلنا بالرقم الذي مُنحنا إياه ورتبنا موعدًا لمقابلته. قيل لنا إنه يعيش في قصر متهالك عند نهاية الجسر، حيث يمكن سماع غناء الأسماك.

يستقر البيت في حديقة خضراء واسعة، حلم مليء بالأبراج والأعمدة والزوايا العميقة التي يستقر الحمام على أفاريزها. تحدق الدجاجات بأعين وهاجة من العشب وتهرول على الممر. البوابة الحديدية مغلقة، قيل لنا إن الأب بول خرج، وأننا سنجده في كلية سانت ميشيل عبر الطريق، وقيل لنا إنه يساعد التلاميذ.

نعبر الطريق وندخل حلمًا آخر من الحجارة، حيث يبدو الزمن متوقفًا. الكلية اليسوعية مبنى أبيض هائل فاخر ذو سلالم حجرية عريضة وممرات مقوسة يتردد فيها الصدى وباحة رباعية مصممة للتأمل والاسترخاء لا للعب. وصلنا خلال موسم تصحيح الامتحانات. الفصول تصطف على جانبي الممرات، عميقة ذات صدى، وعتيقة كأنها من روايات تشارلز ديكنز. معلق عليها المواد والأوراق الجاري تصحيحها. رأينا من خلال الأبواب نصف المفتوحة الممتحنين على مكاتبهم غارقين في الأوراق. إنهم ساكنون صامتون إلى حد أنهم قد ينتمون إلى صورة مؤطرة في متحف.

يسهل تخيل أنهم يحملون ريشات الكتابة في أياديهم.

صعدنا الدرجات الحجرية، ووجدنا الأب بول يجلس في شرفة مغطاة على كرسي خشبي طويل الذراعين يقرأ. يرتدي زيًا كهنوتيًا أبيض، ونهض ليستقبلنا فكشف عن قامته الكاملة، ممتدًا على نحو يتناسب مع أبعاد هذه المساحة. يذوب المساء في همساته المتمهلة الأجشة، بصوت كحفيف أوراق الأشجار، التي استقبلها بالانحناء مقتربة منه لأسمعه، فنبدو وكأننا نتحدث عن أشياء خاصة سرية. إنه حذر في اختياره للكلمات، مثل كل من ينصت بعمق.

يبدأ في مشاركة تجربته في تمكين ضحايا التعذيب «من الجانبين»، ويخبرني أن جلّ تركيزه خلال الحرب انصب على الأشخاص المصدومين.

«أنا مهتم بفعل التعاطف، بالإنسان العالمي، بمحاولة بناء كرامة الشخص. أعمل بالمبدأ الإنساني مع الأفراد، لا كمسيحيين أو هندوسيين، بل كبشر».

هدفه خلال عمله مع ضحايا التعذيب هو استرداد كرامتهم كي يصبح من الممكن أن يصيروا شهودًا صادقين، وإيجاد الشاهد الصادق داخل أنفسهم. يصف عمله بأنه تلامس أرواح.

«ما يجلب التشافي ليس التقنيات أو أي أدوات أخرى، بل إدراك الشخص. إن هذا التلامس الروحي، بين روح إنسانية وأخرى، هو ما يساعد الروح المشوهة على الصمود والعودة إلى الحياة، وخوض تجربة شمولية الحياة مجددًا».

يقف ليفكر في كيفية ترجمة ذلك على نحو عملي.

«يصعب أن تجعل زعيمًا دينيًا يأخذ موقفًا ليس مع اليسار أو اليمين، موقفًا متزنًا في المسار الوسطي. أكثر ما يؤثر في الضحايا هو ما يرونه في مستشارهم من سلوك وأفعال».

أسأل عن الوصمة الاجتماعية التي تصاحب المرض العقلي في البلد، يجيب محذرًا من أي رضا سهل عن النفس: كلنا عرضة للتحيز بأنواعه المختلفة، كلنا عرضة لوصم الأشياء. لذلك التغيير ليس سهلًا. أسأل عن أنواع الصدمات المختلفة، فيخبرني عن عمله مع المقاتلين السابقين العاجزين، الذين خرجوا غاضبين مظلومين بعد أن قضوا سنوات وسط الموت. بعد أن ضحى هذا الشاب بجسده لصالح نمور التاميل، نُبذ من المجموعات الميليشية عندما لم يعد جسده صالحًا. ثم، بعد أعوام من السخط المكبوت والاكتئاب، تعلم هذا الرجل أن يشارك أفكاره بشأن الحياة وتجربته مع آخرين. تعلم الصبر والتفهم بينما يساعد آخرين يعانون مثلما هو عانى.

يتحدث الأب بول عندها عن أقارب المختفين: «عددهم ضخم».

يساعدهم في إحياء الذكرى وحكي الحكايات، مع أن أغلبهم لم يصل بعد «إلى التأقلم بطريقته الخاصة» وعليهم أن يفعلوا ذلك. يشير إلى كيف تساهم مشاركة الخبرات في التمكين، خاصة مع ضحايا التعذيب والجنود «من كلا الجانبين». يتأمل مطولًا في الجنود

الأطفال الذين جُندوا قسرًا، فحل بهم غضب فوري من خسارتهم الفرصة في التعليم، وعندما كبروا لم يجدوا لأنفسهم أماكن عادية في المجتمع.

لا يمكنهم الحصول على وظائف في مجتمع عادي، لا يعرفون كيف يتأقلمون، والكثير منهم ينتحرون. «إنهم يعيشون في المستوى الغريزي، في المستوى المنفصل، وليسوا متسقين مع ذواتهم الأصلية»، ثم يلجأ إلى لغة الأطباء النفسيين ويناقش الفصام، والطفل الكامن في الشخص الناضج الذي يتفاعل بطرق عنيفة، يتحدث عن الانحرافات الجنسية والإدمان، ويتأمل في كيف أن ليس لدى الحكومة أي فهم في الإرشاد أو المساعدة النفسية، وأنهم ينهون عنها لأنهم «يحسبون الناس قد يعطوننا معلومات لنسربها إلى العالم الخارجي. الحكومة جاهلة. إلى الآن لا تزال المباحث تراقبنا، ولو عرفوا أنكم مهمتون بما نفعل فسيراقبونكم أيضًا».

أصبح واعيًا خلال كلامه أن هذه لم تعد مقابلة، أو حتى محادثة عادية، بل هذا هو الأب بول يفكر بصوت عالٍ، يتحدث إلى نفس داخلية.

إنه لا يتحدث عن خبراته بل من خلالها، والرحلة تدفعه إلى أفكار تبدو خاصة جدًّا وجلية وبلا تزيين.

لكنه يقول إن هناك حدودًا لقدرته على المساعدة، يستطيع فقط مساعدة أولئك «الذين هم قادرون على التواصل مع مشاعرهم»، أما الفصاميون، الذين يفتقر الحديث معهم إلى المنطق، فخارج نطاق قدراته.

يتابع مشيرًا إلى أن العامل المفتاحي للحكي ومشاركة القصص يكمن في التعرف على المشاعر. عندما يشارك الناس القصص، عندما يرون أن معاناتهم تتشابه مع معاناة الآخرين، يمكن أن يبدأ التعافي.

أسأل: وماذا عن العدالة؟ هل من دعوة إلى إعادة التوازن إلى العالم، لإيجاد مركز أخلاق؟

لا تزال كلمات الأب بول تخرج من أعمق أعماق وجدانه.

فهمهم للعدالة مختلف. إنهم يريدون القصاص، العين هنا بالعين، والسن هنا بالسن.

في هذا البلد ترتبط الصدمات بالاكتئاب والبكاء، يضيف بابتسامة حزينة: «التاميل في هذا البلد شاعريون جدًّا».

ومرة أخرى، ومثلما فعل من قبل، يحيد عن الأفكار الكبرى وينزل إلى الحقائق الواقعية للخبرات الإنسانية الأرضية، متحدثًا عن حالات مساعدة وشفاء فردية يراها بعين عقله.

امرأة تطلب حفاظات تحتاجها للاعتناء بزوجها.

أم قضت ثلاثة عشر عامًا في رعاية ابنها الكبير العاجز حتى مات، والتي صار زوجها بعد ذلك أيضًا عاجزًا، فأصبحت تقضي حكمًا أبديًّا بالرعاية القسرية.

«صدمة تلو صدمة»، معاناة بلا نهاية. «عملنا ليس مؤثرًا لأنهم يواجهون مشاكل أخرى؛ مشاكل قانونية واقتصادية...»، وتستمر القائمة حتى يبدو التخفيف من المشاكل مستحيلًا. ثم يقتبس من الشاعر البنغالي طاغور، الذي قال إن ولادة كل طفل هي رسالة من الرب مفادها أنه لم ييأس من هذا العالم بعد.

يعيش الأب بول في باتيكالوا منذ ثلاثين عامًا، رأى خلالها المدى الكامل للحرب، وعمل بلا كلل لتخفيف أثرها. أخبرني عن باكت -الأداة الاستشارة المحمولة سهلة الوصول portable accessible counselling tool (PACT)- التي طورها مع بول هوجان ومايكل مكنولتي، لكن تمويلها توقف في نهاية الحرب في ٢٠٠٩، وأخبرني عن عمله مع حديقة فراشة السلام، التي تساعد الأطفال على تجاوز خسارة والديهم. بينما أنا على وشك الذهاب، نهض منتصبًا وشرفني أكثر بقوله:

«أغلبنا يعيش في وهم معرفي، نوع من الشلل الفصامي، لذا لا يكون التغيير سهلًا. لقد تعلمت أن أكون سعيدًا بالخطوات متناهية الصغر وبالتغيرات الصغيرة التي أراها، أنا سعيد بذلك».

∞

تحت عين الرب

أول ما تلاحظه في نادراجاه هو عينه، ينظر عبرك وكأنه يرى شيئًا -أو شخصًا- آخر.

يتحرك بمهابة، لديه جبهة حكيم أو زعيم ديني، يسهل تخيلها متربة بالرماد المقدس، لديه أيضًا كتفان عريضتان مثل عامل بناء، ويشع نوعًا من القوة الروحانية. سأكتشف عما قريب أنه لعب هذين الدورين.

قصته، مثل رؤيته، تمر عبر مصفاة معتقداته. من كل ضخامة خسارته، من كل الحيوات التي أثر فيها، أعلم أني لا تصلني من حقائقه إلا الشظايا.

يحمل نادراجاه حزمة أوراق، يضعها على المائدة ويجلس. ينظر إلى يديه المضمومتين في حين ينصت إلى شرح موجو الدقيق للمشروع، ويرتب أفكاره. أقضي الوقت في إعادة تعلم الحقائق.

يشير ملف نادراجاه إلى أنه خسر عددًا من أعضاء أسرته في هجوم عسكري معروف في جفنا يوم ٩ يوليو ١٩٩٥. ونزح إلى باتيكالوا عندما اشتدت رحى الحرب في الشمال. القصة التي سيرويها ستتناول الحياة في جفنا عندما كانت تحت حكم نمور التاميل. المدينة كانت معقلًا لنمور التاميل حتى ١٩٩٥، وكانوا يشيرون إليها باعتبارها العاصمة المستقبلية لدولتهم الجديدة. قوات حفظ السلام الهندية استولت عليها لفترة وجيزة في أواخر ١٩٨٧،

لكن نمور التاميل استعادوها، وفي يوليو ١٩٩٥ أمطرتها القوات السريلانكية الجوية بالقنابل.

عائلته كان فيها ثمانية أطفال، ونادراجاه كان سابعهم. أبوه كان مضيفًا في معبد القرية، ما يعطي فكرة عن الطريقة التي نشأت بها الأسرة. قال إنهم نشؤوا على عقيدة الدارمام dharmam، وتعلم كيف يكون ملتزمًا، وكبر مع إحساس قوي بالواجب الاجتماعي والصواب والخطأ. بينما اختار أغلب أشقاؤه العمل كموظفين مدنيين، اختار هو مسارًا مختلفًا: «كنت الوحيد الذي اختار العمل الاجتماعي، ودُعيت إلى الانضمام إلى منظمة السارفودايا، فانضممت».

السارفودايا تجد إلهامها في تعاليم المهاتما غاندي: لو فعلت الخير، فالخير سيكافئك. لا تتوقع أي عائد مالي، فذلك سيأتي. العمل الرئيسي الذي ينخرط فيه الشباب هو الشارمادهانا، الذي يعني «مشاركة المرء وقته وفكره وعمله وطاقته» لمساعدة فقراء الأرياف.

إنه يعني التحول المجتمعي غير العنيف والنهضة الثقافية لبناء مجتمع معتمد على نفسه.

أي بشكل عملي، يعني التعليم والتنمية الجماعية وبناء أنظمة الصرف والري وتوليد الطاقة.

انضم نادراجاه إلى المنظمة كمتطوع، وبنى برفقة آخرين روضة أطفال.

«وحفرنا بئرًا أيضًا. أغلب المشاركين كانوا صغارًا. فعلنا كل هذه الأشياء دون توقع أي مقابل. هذه أصبحت الفلسفة المؤسسة للسارفودايا: الشارمادهانا التطوعية والإيمان بأن الرب سيكافئك. آمنّا بذلك صدقًا، ولإخلاصنا في إيماننا، لم يخذلنا الرب. ساعد الرب في إعانتنا اقتصاديًا في أوقات حرجة».

ذكر النظام السماوي، أن الرب يمنح أولئك الذين يعملون من أجل الآخرين، يتخلل حديث نادراجاه مثل تسبيح. يتحدث بقناعة عميقة واعية وساحقة، تجذبني إلى عالمه.

«كانت هناك أوقات تلقيت فيها النقد حتى من والديَّ بشأن ما أفعل وانتقدوا ما أبذله في سبيله، مثل إيثار الآخرين على نفسي، لكني أسعد عندما أرى البئر في قريتنا ثولبورام. إنها المصدر الوحيد لمياه الشرب النظيفة، بقية المصادر ملوثة. يأتي الناس لاستخدام هذه البئر»، يقولها بفخر، «تستفيد حوالي ثلاث مئة أسرة منه الآن. وابني أنا نفسي صار يدرس في روضة الأطفال التي بنيناها».

موجو، التي كانت مشدودة مثلي وهي تترجم، أوضحت لي أن ذلك يعني على الأرجح أن حوالي ألف وخمس مئة شخص ينتفعون من هذه البئر.

نادراجاه رصين وحذر، يقلب حبات التفكير بين يديه مثل مسبحة. من الواضح أنه يرغب في الحديث مطولًا عن عمل السارفودايا وفلسفته في الحياة، ومن الواضح أيضًا، من إشاراته المتواصلة للإله والنظام الأخلاقي والمبادئ الدينية والفكرية، أنه يقرأ الأمور بشكل غير تاريخي ويعيش في نطاق خارج الزمن. وبما أني هنا لأسأله عن الأحداث التي أدت إلى خسارته، أترك المجال للمدقق الداخلي ليتولى السيطرة. إنني مدركة لأني أقوم بتوجيه حديثه في إطار سعيي إلى الحقائق التاريخية، وغير مرتاحة لتفكيكي لشرنقته الروحية.

متى بدأت هذا العمل؟ هل كان قبل الحرب؟ «قبل الحرب، بدأت في ١٩٧٩».

أسأله عن حياته الأخرى، زواجه والأشياء الدنيوية العادية، لكن ذلك أيضًا جعله يدور عائدًا إلى ملاذ معتقداته المنظم، وربطه بعمله في السارفودايا.

«لم أتزوج حتى سن الخامسة والثلاثين. الشخص المسؤول في السارفودايا كان عازبًا، وشجعنا على أن نحذو حذوه. عندما جاء جيش التحرير الهندي إلى المنطقة، اعتقلوني وعذبوني، اشتبهوا في أنني أساعد نمور التاميل لمعرفتهم أني أعزب. جعلني ذلك أقرر ألا أظل كذلك. رتبت الأسرة لزواجي وتزوجت من بين أقاربي».

قاده العنف السياسي للبراجماتية والمساومة. اختار حياة الزواج الدنيوية ليحمي نفسه من المزيد من الأذى.

أسأله إن كان في وسعه إخباري المزيد عن التعذيب، إن كان مرتاحًا للحديث عنه، وأنا واعية لكونه ذكره كشيء عادي، جزء روتيني من الحياة. يخبرني بأنه اعتقلته قوات حفظ السلام الهندية ثلاث مرات وعذبوه في كل مرة.

«كنت أدير متجر بقالة يرتاده نمور التاميل باستمرار. حسبني الجيش الهندي داعمًا لهم، لذا كانت هناك أوقات اعتقلوني فيها وعذبوني في ثكناتهم. صعقوني بالكهرباء في أذني ولساني، أرادوا أن يسمعوا مني اسمًا أو اثنين، أسماء لأعضاء من النمور. غير أنهم فهموا حينها أن أعضاء النمور هؤلاء كانوا فقط زبائن معتادين لمتجري وليس لي أي صداقات عميقة معهم. كانت هناك أوقات خشيت فيها أن أموت، لكني أثبت لهم مقصدي بعد ذلك، جعلتهم يفهمون موقفي. أدركت أني بحاجة إلى أن أتزوج، تلك كانت الطريقة الوحيدة لتفادي مثل تلك الحوادث».

تلك هي ثاني مرة أسمع فيها بالتعذيب، ونادراجاه يربطها مباشرة بالحديث؛ صعقوه بالكهرباء في لسانه وأذنه ليجعلوه يتحدث. يذكرني ذلك بابن فاديفيل والفجوة في قصة فاديفيل عندما لم يذكر لسان ابنه المفقود، وصرت واعية بأني أنجذب إلى خيط تفكير أكاديمي يربط قصصهم بادعاءات أن التعذيب «غير قابل للحديث عنه». يقول المُنظرين إنه متجاوز للغة ومُدمر للغة أيضًا.

خلال إنصاتي لنادراجاه، الذي هو شاهد رئيسي على حوادث تعذيب، أبدأ في التساؤل إن كان قد خسر مُدخلًا شعوريًا وهو يحكي مثل هذا الفعل العنيف الحميمي، وأتساءل أيضًا إن كان غياب مثل هذا المُدخل الشعوري قد يجعلني أنا أيضًا أخسر شيئًا حيويًا في قدرتي على حكي حكايته.

تصفيتي لقصته بالنظريات الأكاديمية تجعلني أبدأ في الانفصال. لا أعرف ما الذي يوترني أكثر: رباطة جأشه الكاملة وهو يصف التعذيب، أم حقيقة أني بدأت أصير محصنة أمام سماع تأثيراته.

يتحدث نادراجاه عندها عن زواجه ويقول إن زوجته كانت فقيرة جدًّا، لكنه أحبها. فهِمت أن حياته يقودها العمل الاجتماعي. لاحقًا سافر أشقاؤها إلى الخارج وساعدوا الأسرة ماديًّا، بل وحتى دعموا بعض عملهم الاجتماعي. كان نادراجاه في هذا الوقت قد أصبح منسق السارفودايا في بلدة فادوكوداي. في عام ١٩٩٠ أنجب طفلًا، جاناثيبان، الذي كان ابنه الوحيد وقت وقع الهجوم.

هجمات التاسع من يوليو ١٩٩٥ بدأت في السادسة صباحًا. أخذ الناس يتحركون عندما سمعوا القنابل والقذائف. زوجة نادراجاه وابنه وأمه وشقيق زوجته وشقيقتاه وأبناؤهم تركوا بيوتهم ساعين إلى اللجوء إلى بيت شقيقه بالقرب من كنيسة سانت بيتر في نافالي. الكنيسة تقع على بعد ثلاث كيلومترات من منطقة القتال وستة كيلومترات من جفنا.

حادث قصف الكنيسة يقع ضمن السجل التاريخي للحرب. الشيء المذهل في رواية نادراجاه للأحداث هو كيف يوفق بين الحقائق التاريخية وكيف يظل الكثير منها غير منطوق.

يخبرني كيف وجدت عائلات شقيقتيه وشقيقي زوجته ملجأً في البيت القريب من كنيسة سانت بيتر، بينما تخلف هو نفسه في ثولبورام ليساعد القرويين واللاجئين. ظل هنا ليمنحهم الطعام وليحمي البيوت التي شبت فيها النيران من المقذوفات.

«ركزت على مساعدة أهل القرية الذين كانوا يتنقلون، بتوفير مواد الطعام الأساسية للاجئين الوافدين. سارعنا لإطفاء النار التي شبت في كوخ قشي. كنا منهكين في ذلك المساء، ولم نمتلك طعامًا كافيًا. صنعنا عصير البرتقال، فذلك كان كل ما لدينا. لم نعتقد أن شيئًا بهذا القدر من الدمار قد يحدث لنا بينما نحن منهمكون في خدمة الآخرين».

يتوقف نادراجاه ليستقبل الذكريات العائدة، التي تعود، مثل كل الذكريات، بترتيب مختلف عن الذي يحب أن يحكي به.

في وقت ما من عصر ذلك اليوم، حوالي الرابعة والنصف مساءً، بينما هو يساعد في ثولبورام، وقعت قنبلة على بيت أخيه، على بعد ستة كيلومترات، حيث تحتمي عائلته كلها تقريبًا. زوجته وابنا أخته نجوا، نجوا لأنهم كانوا قد عادوا إلى بيت العائلة لالتقاط كلابهم الأليفة التي تركوها خلفهم سابقًا.

«كانوا يحبون هذه الكلاب بشدة. وكان في خلال ذلك الوقت أن وقعت القنبلة على بيت شقيقي. خسرنا ثلاثة عشر فردًا من عائلتنا ذلك اليوم، بمن فيهم ابني وأختي وابن لأختي وحماتي وشقيقين لزوجتي. مات حوالي ١٧٥ شخصًا في هذه المنطقة. سقطت تسع قنابل يومها».

يتحدث نادراجاه بالأرقام الآن ويبدو متأثرًا بكلماته نفسها. لا يوجد الكثير من العزاء لاستخلاصه من هنا، ولا حتى حقيقة أن رعاية نادراجاه للقرويين أنقذت حياته بالفعل. عندما أذكر أنه ربما كلابهم الأليفة هي التي أنقذت حياة زوجته، يسعل ضحكة تبدو مجوفة على نحو مقلق. أحتاجه لأن يتابع.

كيف سمع عن هجوم المدفعية الذي قتل أسرته؟

«أحد القرويين سمع بالنبأ وجاء وأخبرني بما حدث لعائلتي. قال لي إن البيت قد دُمر تمامًا، لم يبقَ هناك أحد على قيد الحياة. بدأت في استيعاب الأشياء بالتدريج»، يتوقف، «علمت أن زوجتي كانت في طريق العودة لجلب الكلاب، لذا افترضت أنها فلتت. لم يحاول أفراد عائلتي أن يخبروني بما حدث، فقد كانوا غير قادرين على استيعاب الخسارة وفي حالة صدمة. إحدى شقيقتيّ وابنتاها كانوا مصابين بشدة ونُقلوا إلى المستشفى. لم نستطع تبين أي تفاصيل، لأن الظلام كان قد حل تقريبًا وقت أن بلغنا الخبر. كانت الساعة حوالي ٨:٣٠

مساءً عندما وصلنا هناك. لم نستطع إيجاد أي تفاصيل بخصوص أي شخص. ولم يكن قبل العاشرة مساءً حتى علمنا أن في المستشفى بعض أفراد عائلتنا».

نادراجاه يأخذني معه إلى الفوضى الناشئة عن محاولته لتحديد أيًّا من أفراد عائلته ماتوا وأيهم ربما قد نجوا. يتحدث بسرعة أكثر بينما يخوض غمار ذكريات الأحداث التي مر بها.

«ثم وصلنا إلى المستشفى، لكن حتى حينها لم تسمح لنا منظمة الصليب الأحمر بالدخول إلى العنابر، فقد كانوا مثقلين فوق طاقتهم.

قيل لنا إن ثلاثة من أسرتنا على قيد الحياة -أخت وابنتي أخت- ولم نعلم أي أخت قد نجت. لم يحدث قبل اليوم التالي أن عرفنا ما صار، إذ رأينا الأجساد ممددة هناك واستطعنا التعرف عليها».

يصعب الخوض في الرعب الذي تثيره هذا الحقيقة، لذا أسأله إن كان قد وجد أقاربه، محاولة أن أختار كلمات محايدة، ولا أتوقع ما هو على وشك أن يقول.

«نعم».

يتوقف وينظر إلى يديه وإلى الأوراق والصور على المائدة، ينظر إلى هذه الأشياء لكنه يرى شيئًا آخر كليًّا، شيئًا يراوغنا.

«كان ذلك مريعًا. ذهبت وحدي، لم آخذ زوجتي لأنها لم تكن في حالة عقلية مناسبة لمواجهة هذا. لم تكن من بين جثث أقاربنا من تصلح لأخذها لإقامة طقوس الحرق الجنائزية إلا جثتان، أحد أبناء شقيقتي وشقيق زوجتي. بقية الجثث فتتها الانفجار».

لم يستطع حتى إيجاد جثة ابنه. يتذكر أنه كان عليه ترك البيت المُنفجر والبحث في المستشفى.

«لكن أغلب الأجساد لم تُجلب إلى المستشفى. أحرقنا ما تبقى من الجثث جنائزيًّا في نفس المكان، بمساعدة القرويين في نافالي».

أقام الشعائر الجنائزية لمجموعتي الجثث في كلا المكانين.

سرد نادراجاه -المتناثر المشتت- قد جمع بين فوضى عدم اليقين والأنقاض المادية للنكبة، هنا تكمن صعوبة خوض أنقاض الحقائق وشظاياها، في الانحدار المباغت إلى قاع الحقائق المادية النهائية. بحثه عن أفراد أسرته تفتت إلى بحثه عن الجثث في البيت وفي المستشفى، ثم أمسى بحثًا عن أشلاء أجساد لحرقها. هذا تفكك للنفس وللقصة، هذا تفكك للنفس في القصة، ضياع للإنسان في أثناء بحثه عن أشلاء الأجساد.

«لم أكن أعلم أن مثل هذه الأشياء يمكن أن تحدث في العالم الطبيعي. كنت أتحرى الخير فيما أفعله للآخرين على الدوام، وأخر شيء توقعته هو أن يحدث لي ذلك».

ينطوي نادراجاه على نفسه ويلتزم الصمت. لا يتوقع منّا شيئًا. انعدام التوقعات هذا يغير موازين الأمور.

أسأل عن الرب، أسأل عن الإيمان، عن إن كانت وجهة نظره فيهما قد تبدلت.

«لا، لم تتبدل، لأن ذلك كان يحدث للجميع في القرية».

يتوقف، يتفكر، ويتذكر ما يبدو أنه كان معركته الأولى مع معتقداته، وهي معركة ساهمت في شحذ عزيمته.

«حدث ذلك مع ستة من أصدقائي الذين عملوا معي في مشاريع الشارمادهانا، وانضموا لاحقًا إلى نمور التاميل. كُشفت هوياتهم واختُطفوا وقُتلوا ودُفنوا على أيدي أعضاء البلوتي Plote. تأثرت بذلك جدًّا، لم أقدر على العمل لثلاثة أشهر، بكيت كثيرًا. بعد الأشهر الثلاثة عدت إلى العمل على حلمنا المشترك. كانوا شبابًا صغارًا مفعمين بالطاقة والحماس، لطالما

أرادوا رؤية مشاريعنا مكتملة. أردت أن أتابع عملهم لأحقق رؤيتهم من أجل أن تصل أرواحهم إلى الشانتي؛ السلام. تابعنا العمل وأتممنا المشاريع في ذكراهم. تبنينا أحلامهم وعملنا على تحقيقها بدلًا من الحداد».

قتل أصدقاؤه الشباب عام ١٩٨٤ جماعة البلوتي (مجموعة منظمة التحرير الشعبية لتاميل إيلام)، وهي جماعة انفصالية تاميلية منافسة لنمور التاميل في أعوام الحرب المبكرة. منذ ذلك الوقت، شعر أنه قادرٌ على التأقلم بشكل أفضل مع موت الآخرين.

يتابع: «لم يكن هناك مجال للركود، كان علينا أن نمضي قدمًا، وأردت أن أتابع العمل. أؤمن أن الرب سيساعد فقط أولئك الذين يبذلون الجهد سعيًا إلى شيء ما، أولئك الذين يعملون. علاوة على ذلك، علينا أن نكون ممتنين للذين عملوا معنا عندما كنا بحاجة إليهم، علينا أن نتابع عملهم لإحياء ذكراهم. أخبرك بكل ذلك فقط لأنك سألتيني، لكني أفضل عمومًا أن أقوم بعملي في صمت، مؤمنًا أن الرب سيكافئني بشكل أفضل. أؤمن بأن علينا المتابعة حتى في أحلك الظروف والأحوال، فقد أقسمنا أن نعمل بأقصى ما نستطيع».

ها هو مجددًا عمله مع السارفودايا يصبح مرساته ومنارته، وملاذه من العاصفة.

بعد الهجوم الذي أهلك عائلته، نزح نادراجاه إلى كيلينوتشي، حيث ظل على مدى العامين التاليين. أصبح هذا النزوح أقل وطأة عليه رغم حنينه إلى بلدته لأن مجموعته في السارفودايا وأقاربه قد انتقلوا معه. مغادرة مجموعة سارفودايا من مكان تعني أن البنية التحتية هناك قد انهارت. قصته هي قصة عن العزيمة البشرية في مواجهة الظروف السيئة.

أسأله إن كان بوسعه أن يخبرني عن ابنه، الطفل الذي يحمل صورته.

ينفجر نادراجاه بغتة في شلال من الدموع. «كان طفلًا ماهرًا وحنونًا ومحبًّا للجميع. كان منذ البداية شغوفًا بعملي، من عامه الثالث أو الرابع قال إنه يود أن يصبح مثل أبيه ويقدم

المساعدة. كان قريبًا من أعمامه واعتاد على اللعب معهم، كان محبًّا للعب»، يبتسم، يومئ، يرى أننا نفهم، «كان لديه ثلاثة أعمام وأراد أن يلعب معهم على الدوام. لكن ماذا نفعل؟»، يمسح عينيه، «لا نستطيع الوقوف أمام القدر».

ثمة صورة فوتوغرافية. أمامنا وجه طفل في الخامسة يبتسم بحياء، ينظر تجاه شخص أو شيء ما على يمين العدسة. يقطع حزام حقيبة قميصه الأبيض المتموج قطريًّا. جاهز للذهاب إلى الروضة.

ما اسم ابنك؟

«جاناثيبان».

على اسم جانيش، الرب الفيل.

جانيش، رب الحكمة، المفضل عند التلاميذ الصغار. جانيش، مُزيل العوائق، الذي ينظف الطريق من فوضى الأرض والعقل.

أسأله عن ابنته، الحالية، الابنة الناجية.

وُلدت في باتيكالوا عام ١٩٩٧، بعد رحيلهم عن فاني.

«بعد ولادتها عادت زوجتي إلى حالتها الطبيعية، وشاركنا ذكرياتنا عن أخيها معها. تعلمت ابنتي قبول الماضي بقلب سليم، لأنه كان تحت عين الرب».

اسم ابنتك؟

دكشاياني.

ربة، زوجة الرب شيفا.

أطلق على أبنائه أسماء الآلهة ليجلبوا المقدس إلى العالم.

ولادة كل طفل هي رسالة من الرب أنه لم ييأس من هذا العالم بعد.

آخر كلمات نادراجاه لي -الرسالة التي أرادني أن أوصلها- نبعت من ثراء القناعات التي ساعدته على النجاة، وتعرب أيضًا عن كيف يبدو أن البلد قد هجر جوهر عقيدة الدين الذي تقره الدولة: التعاطف البوذي. يرسم خريطة بلده بخطوط دينية ويرى نفسه غريبًا يسعى إلى التواصل مع أناس كسروا ميثاقهم الأخلاقي.

«أتمنى أن يتصرف الجميع على نحو إنساني. لو اتبعوا جميعًا البوذية بشكل سليم، وفهموا أننا أيضًا ناس تثق بالرب، سيصبح عندها كل شيء على ما يرام. تعلمنا منذ الطفولة المبكرة أن العلاقات أكثر قيمة من الثراء. وحيثما توجد علاقات طيبة، توجد إمكانية للوحدة أيضًا. لا نحتاج إلى أن نكون أثرياء كي نحظى بعلاقات جيدة، يمكننا التشارك في كل شيء. هذا هو ما علمتنا إياه الإيديولوجيات المهمة في السارفودايا».

هكذا عزم على متابعة عمله.

وعندما أسأله إن كان حكيه لما حدث ساعده، يفك يديه ويقول بأسى إنه رأى في المقابلة «فرصة من الرب» للحديث.

يختتم نادراجاه قصته مثلما بدأها، بربطها بقناعاته، هكذا تبدو مكتملة الأركان. لقد عاش خلال زمن انتهك كل ما آمن به، ونجى بالتمسك بقناعاته. ضُرب كثيرًا، لكنه يظل متماسكًا. هذه القناعات ساعدته على التأقلم مع فجيعته، وساعدته أيضًا على مقاومة ومواجهة وحشية ما شهده. التزام نادراجاه المستمر تجاه مجتمعه يعرب عن قراءة كريمة للزمن وللبشرية بأسرها.

لا توجد هنا مناشدة بالعدالة الكاملة، بل فقط نداء لتحقيق نظام أخلاقي وسلام.

مع ذلك، وبينما يتحدث نادراجاه، كنت واعية بأن حديثه يأتي من وراء حجاب، وأنني -لأنني أبدو بوذية- أقف على الناحية الأخرى من نظامه الأخلاقي، وأنتمي إلى مجتمع كسر القواعد التي يلتزم هو بها. إنه يتمنى أن يهذبني بقصته، أن يرشدني إلى فهم أن الأخطاء المُرتكبة ضد عائلته لم تكن مجرد جرائم بشرية، بل جرائم في حق النظام المقدس للأشياء. هناك صراع بين حاجته إلى توعيتي ووعيه بأن خلفيتي تضعني في جانب المنتصرين في الحرب، الذين يستمرون في إخفاء جرائمهم. لذلك أنا لا أحصل إلا على الحقائق التي يشعر أنه يستطيع أن يخبر بها غريبًا، حقائق آمنة.

هذه الحقائق تنتمي إلى مسار قد يسميه الأب بول (طريق النجاة النفسية)، وتترك بعض الحقائق التاريخية دون ذكر، وتلك الحقائق ترتبط بسياق أوسع للهجمات التي دمرت أسرته، وربما لو كانت متضمنة لغيرت نداء نادراجاه بإرساء نظام أخلاقي إلى طلب تحقيق العدالة وحقوق الإنسان. أضيفها هنا، لا لإتمام قصته -فقصص الفقد لا يمكن أن تكتمل- بل كملحق بها، كي يُمكن أن تُحكى قصة أخرى. الحقيقة أن كنيستي سانت بيتر وسانت بول في نافالي كانتا بعيدتين كل البعد عن منطقة الحرب، وأن القوات الجوية كانت قد ألقت منشورات على المنطقة في الأسبوع السابق للهجوم.

والحقيقة أن هذه المنشورات أخبرت المدنيين بأن يلجؤوا إلى هذه الأماكن بالتحديد في حال بلغهم القتال.

والحقيقة أن هذه الأماكن الآمنة المحددة تضمنت مستشفيات وأماكن عبادة مثل الكنيسة الضخمة والمشهورة التي سوتها القنابل بالأرض، والتي بالقرب منها التمست عائلة نادراجاه الملاذ.

والحقيقة أن في صباح التاسع من يوليو، زارت الحرب المنطقة لأول مرة في عملية اسمها الكودي «عملية القفز إلى الأمام»، متخذة شكل تسعة قنابل ألقتهم طائرة من نوع بوكارا.

والحقيقة أن الحصار الاقتصادي الذي كان مطبقًا على جفنا، تسبب في عدم توفر أي مواصلات بمحركات تنقل الجرحى إلى المستشفى. استُخدمت الجرارات. وأن في يوم الهجوم، لم يكن في مستشفى جفنا التعليمي سوى جراح واحد في الخدمة وقتها.

والحقيقة أن الضمادات والمضادات الحيوية والأسرَّة كلها نفدت من المستشفى.

والحقيقة أن منظمة الصليب الأحمر العالمية قد نشرت أسماء ١٢٥ مدنيًا قُتلوا في الكنيسة، وأن من هؤلاء الموتى ثمانية وأربعون متطوعًا كانوا يوفرون الطعام والماء للاجئين، وأن كل الأجساد التي عُرفت هوياتها كانوا مدرجين بأسمائهم وجنس كل منهم وأعمارهم وعناوينهم، وأن أعضاء عائلة نادراجاه الثلاثة عشر -لأنهم لم يكونوا في الكنيسة بل قريبًا منها - بمن فيهم ابنه جاناثيبان ذو الأعوام الخمسة، لم يكونوا في تلك القائمة التاريخية.

ربما ذُكروا في نصب تذكاري للتاميل في فرنسا الذي كشف لي نادراجاه عن وجوده، لكن يظل أفراد الأسرة الثلاثة عشر مفقودين من التاريخ، أضرار جانبية، غير موثقة.

والحقيقة أن هذا الهجوم بقنابل القوات الجوية السريلانكية، صُنف كجريمة حرب، على الأرجح لن يُحقق فيها أبدًا.

∞

(14) الساري Sari: زي شعبي أنثوي شائع في سريلانكا وغيرها من دول جنوب شرق آسيا. [المترجم]

(15) كوفيل Kovil: تعني بالتاميلية (بيت الرب)، أي المعبد. [المترجم]

(16) صيام الجاوري Gauri Fasting: أحد أنواع الصيام في الديانة الهندوسية. [المترجم]

(17) بوجا Puja: نوع من الصلاة في الديانات الهندوسية والبوذية والجاينية تتضمن تقديم القرابين إلى الآلهة. [المترجم]

(18) حمى الضنك: مرض يُنقل بالبعوض وينتشر في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية من العالم. [المترجم]

(19) The Truman Show: فيلم أمريكي شهير صدر عام ١٩٩٨ بطولة النجم جيم كاري، يحكي عن بطل يكتشف أن عالمه بالكامل، بكل ما فيه من أماكن وأشخاص وأحداث، برنامج تليفزيوني عملاق مفتعل، وهو محور ذلك العرض التليفزيوني. [المترجم]

(20) الفاداي Vadai: نوع من الوجبات الخفيفة المقلية، الشائعة الشعبية في سريلانكا. [المترجم]

جفنا

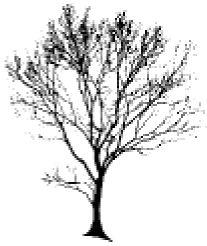

بيض مسروق

نمر في طريقنا إلى جفنا على أماكن ذُكرت في كتب التاريخ، لكن لا يبرز فعلًا إلا التفاصيل النثرية.

توك توك عابر بإطارات ذات صرير كُتب على مظلته السوداء: المسيح قادم.

تمثال حديث البناء لبوذا، رأسه مغطى من ضوء الشمس، فيبدو جسدًا فقط بأذرع مطوية وأرجل مطوية.

قواعد عسكرية فاخرة مترامية الأطراف، وحدائق فارهة تمتد بشموخ عسكري.

مراكز شرطة باللونين الأبيض والأزرق، غيوم رمادية، شجيرات رمادية، ثلاث بنات في فساتين حفل زهرية برفقة امرأتين يرتدين الساري القرمزي، زهور ساطعة على طرق متربة، مساحة أرض بيضاء مرتفعة على شكل عظمة فخذ عملاقة، حدود حقل أرز جاف.

تتناثر نخلات جوز الهند وعدة منازل ظهرت فجأة، علامات على رجوع الماء بعد أربع سنوات من الجفاف.

قطيع من الماشية البنية هائم بعظام صدر ناتئة.

مزيد من الماشية. لا بشر. أين ذهب الجميع؟ تمثال بالحجم الطبيعي على قاعدة للجندي بيريس، عمره كان ثلاثة وعشرين، قُتل في آخر سنة من الحرب.

المسيح قادم.

بعد لافتة تقول (فافونيا)، نمر بمعسكر القطاع رقم ٥٦، ثم لافتة أخرى: السرعة المفرطة تقتل.

يقول السائق، نيل، إننا دخلنا أرض اللابشر.

تلك المنطقة التي تفتقر إلى السكان كانت خارج سيطرة الجيش السريلانكي ونمور التاميل.

يخبرنا نيل عن التواجد الأمني العنيف الذي كان عليه مواجهته في نقاط التفتيش هنا أيام الحرب، عندما كانت الشاحنات تُفرغ حمولتها لتُفحص، ثم تُحمل مجددًا، وحتى إطارات السيارات الجيب الاحتياطية كانت تُفحص. من الجلي أنه لا يزال في وسعه رؤية هذه الحدود غير الرسمية داخل عقله، أرض خيالية تقع خارج نطاق القانون، صحراء الروح.

أصدر نمور التاميل وثائق سفر تقوم بدور الفيزا في إطار بنائهم لدولتهم. لو أن كمية من شيء ما -سجائر أو وقود أو كاميرات- كانت ضخمة، يجب دفع ضريبة. كان نيل يقود من كولمبو في سيارات رسمية على طول طريق A9 خلال وقف إطلاق النار الأخير، خلال أعوام الأمل الثملة هذه. كان يأخذ مفاوضين من دول غربية وعاملين بمنظمات غير حكومية إلى مفاوضات السلام، والتاميل كانوا يؤسسون برامج إعادة تأهيل لمن نزحوا بسبب الحرب. كان نمور التاميل ودودين وشديدي التهذيب على الدوام، ويلوحون له بالمتابعة، أخبرنا بذلك بنبرة تضمر الإعجاب.

نيل، الذي كان في ستينياته ويخاطبني دائمًا بكياسة كلاسيكية («هل تحبذ المدام التوقف لتناول المرطبات؟»)، كان محبطًا من اختيارنا الرخيص البطيء للسيارة المستأجرة، التي

تبدو ككرية ذهبية على عجلات. ألاحظ عينيه العجوزتين المتوقدتين عبر المرآة الخلفية للسيارة فيما نعبر أرض اللابشر، فيهما نظرة بعيدة تشي بنوستالجيا قريبة لأعوام السفريات الرسمية المميزة تلك، والاحترام من المتقاتلين الأسطوريين، نظرة تَذكُّر لرحلات تاريخية وأشباح.

عند مركز بريد أومانثاي، ثمة كنيسة متداعية ومنزل منخفض عليه لافتة تقول: (مطعم بيت أما اللذيذ).

أفكر في أمي، وأتذكر من ذكرياتها الخاصة أيامها الروحية في جفنا، عندما زارتها وهي طالبة زراعة من جامعة بيرادينيا. كانت جزءًا من أول دفعة من سبع طالبات تدرس هذا المجال، ومن أواخر من أتممنه مع الرجال أيضًا، بعد ذلك باتت الشابات تُكلفن بمهام تتطلب مجهودًا بدنيًا أقل. عمر هذه الذكرى سبعون عامًا، وهي الرابط العائلي الوحيد الذي يربطني بهذا المكان.

إنها ذكرى مغلفة بسعادة الاستقلال والحماس لقيادة الجرار. أمي ضئيلة الجسد، التي أخذت عنها جسدها، والتي تصدح ذكرياتها في الظلام مع مرور كل ساعة، والتي لم تقد سيارة قط بعد الزواج لأن أبي خاف من أن تتلف السيارة، قادت ذات مرة جرارًا!

أسافر على طريق ذكرياتها وأرى أشجار النيم والتمر الهندي، وأجيالًا من نخل الكوريفة المنتصبة الشائكة، وأخيرًا أبلغ نصب (معبر الفيل) التذكاري، حيث التاريخ مُسجل، ويتحول إلى ما بات ينص عليه.

معبر الفيل، الموقع شديد التحصين حيث نقطة الدخول إلى جفنا، يُعدّ المكان الذي تعرَّض فيه الجيش السريلانكي لواحدة من أشنع هزائمه. تمت الآن مراجعته ليُعدّ المكان الذي انتصر فيه الجيش وأعاد توحيد الأرض.

يتراص حول النصب التذكاري موقف سيارات ومنطقة لعب للأطفال. كل من يمر يبدو أنه يتوقف ليلتقط الصور قبل أن يعود إلى سيارته ويعبر الطريق الضيق، الذي تحده المياه البيضاء الغنية، فقط ليتوقف مجددًا عند تمثال النصر على الناحية الأخرى من الطريق، ليلتقط المزيد من الصور ويتسلق قمة التل التذكاري الحلزوني على أقدام حاج.

بين كل تلك اللافتات، التي تصنع التاريخ بكتابة التاريخ، بين كل تلك اللوحات النحاسية والنُّصب الطويلة المنتصرة التذكارية، التي تطري على مجد تضحيات الجيش السريلانكي، يسهل تفويت اللوحة الخضراء التي وضعها قسم الحياة البرية، التي تشير إلى حدود متنزه تشونديكولام الوطني، وهي محمية طيور تعود حتى إلى ما قبل الحرب. كُتب على لافتة المتنزه التعليمات بثلاث لغات: السنهالية والتاميلية والإنجليزية، اللغات الثلاث الرسمية للبلد. لا شك أن من كتب بالأخير كان لا يعرف الإنجليزية، وينسخ الكلمات بمجرد النظر، يعكس ذلك ارتباك الناسخ الأعمى عن المعنى، الذي كتب أن التالي ممنوع: «صيد أو قنص أو قتل أو جرح أو أخذ أي حيوان بري، وأخذ أو تدمير أي بيضة لأي طائر أو زاحف أو عش لأي طائر»، ناسخ الكلمات على الأرجح ملَّ من نقل الكلمات التي لا تعني له شيئًا، فقد تبع ذلك بجمل مضطربة بلا معنى: «وقع أو بدع أو إيذاء أو خلع أي نبات، أو بناء أي مبنى على الفريق، وإزالة أو حراثة أو تعدين أو حشو أو إلقاء الفمامة».

العشوائية الغاضبة للفمامة اكتسبت معنى جديدًا في خضم صخب النصب التذكارية وصخب باقي اللافتات واللوحات، جعلت تصدح معهم فيختلط حديث كل اللافتات هنا في صوت واحد ممسوخ. تخبرنا كلها أن السنوات الأخيرة للحرب كانت عملية إنسانية، أن الجيش والدولة يخدمان كحماة للأرض الموحدة، وأنهما يحميان ليس فقط الناس، بل والبيوت والأعشاش والحياة نفسها، وأن حمايتهما للأرض ستحافظ عليها نظيفة نقية. أي أن هذه اللافتات تدلل ضمنيًا، أن حماة هذه الأرض لن يؤذوا شيئًا حيًا، أبدًا، لا زاحف ولا طائر، ولا حتى بيضة.

∞

متعدد الأشكال

سيركانثي امرأة مهيبة ملتفة في سارٍ حريري أخضر ومزينة بعقد من الجواهر وقرط من الذهب. تمشي بفخامة وخطوات واثقة، وتجلس.

تقول مبتسمة: «أنتِ تفعلين شيئًا جيدًا، أقدر ذلك».

هل تواجهك أية صعوبة في مشاركة قصتك معنا؟

«لا على الإطلاق، هذه قصص حقيقية».

ثمة شيء في سلوكها وحديثها يشي بثقة اجتماعية ونزعة خطابية. سأعرف لاحقًا أنها مديرة مركز الأشخاص المفقودين في مقاطعة جفنا، أحد ثمانية في البلد.

سيركانثي بحثت في قضيتها، وانخرطت في سردية متجذرة في التفاصيل التاريخية ومتأصلة في سياسة الزمن. إنها تسمي أفراد الجيش وتحدد تواريخ وأماكن بعينها وقعت فيها الأشياء وتضع كل ذلك في سياق أحداث أكبر. مع ذلك، ورغم أقصى جهودها ووفرة تفاصيلها السياقية -رغم كل التواريخ والمؤشرات التاريخية التي تقوم بدور معالم الطريق في حكايتها الجوالة- ينتهي بها الحال ضائعة في بئر مظلم من عدم اليقين، ما يجعلني أتوقف مجددًا لاسترجاع الحقائق الصلبة.

أسمع نفسي أقول: هل أنتِ متأكدة مما سمعت؟ هل تصدقينهم؟ ما الذي تعتقدين أنه قد حدث فعلًا؟

قصتها قصة مشتتة مشردة ذات شهود عديدين، ذات عيون وأصوات كثيرين. خلال تنقلها عبر الزمان والمكان، الحقيقة والإشاعة، والمكالمات من مجهولين وتبدلات الهوية، تترجم الأحداث بطريقة تشي بمركز هائم للمعنى في قصص الاختفاء التي تعتمد على المشاهدات المُبلغ عنها والأخبار المنقولة شفاهة عن آخرين. لا يوجد منطق ولا تبرير واحد في غزل

خيوط الحقائق معًا، ربما لأن في مسعى الذاكرة لإيجاد مغزى من الضياع في الحرب، لا يوجد منطق ولا تبرير.

وفي ترجمتها للحقائق إلى سردية، يصبح بارثيبان ابن شقيقة سيركانثي، والذي يُعرف أيضًا باسم رامانان، ضحية وناجيًا طيفيًّا في نفس الوقت، ابن شقيقتها وابنها. كل ما تعرفه هو أنه كان ضحية لاختطاف من الجيش، اختفى فقط ليظهر بعد عدة سنوات في زي عسكري رسمي في عدة معسكرات جيش. والحقائق التي تشير سيركانثي إليها هي أنه اتخذ هوية أولئك المسؤولين عن اختفائه، لا تستقيم مع القراءة الثنائية للصراع، حيث الفارق بين المعتدي والضحية جلي.

أين الطفل الذي سُمي بارثيبان لكنه يُدعى رامانان؟ هل سيعود؟ هل الفتى الذي ذهب ضاع إلى الأبد؟ هل سُرقت هويته؟ حياته؟ تظل قصته لغزًا مُحاطًا بالنبوءة والأمل، وسرد سيركانثي لها تجعلها أشبه بحدوتة لعازرية(21) عن ابن ضال متخيل.

سيركانثي كانت الأصغر في سبعة أبناء، والطفل المدعو برامانان كان ابن شقيقتها الأكبر الثاني. عمل والدها في قطاع الكهرباء، وكانت أمها، بحسب قولها، سنهالية.

والد أمها عمل أولًا في محاكم القانون بماتارا. والدة أمها جاءت إلى جفنا عندما كانت في الخامسة من عمرها، وكانت الزوجة الثانية غير الرسمية لجدها الذي عاش مع ثلاث نساء -زوجة وأخريين- في بيت شاسع. جدتها من أمها ماتت عندما كانت أمها في الخامسة، وربت أمها زوجتي أبيها الأخريين. عايرها أبناء أعمامها بحقيقة أن أمها سنهالية. تأخذني سيركانثي إلى تعقيدات نسبها الثري، تقودني عبر المتاهة حتى أسألها عن تعقيد شيء ما فتقول نعم، هذا صحيح، هي في الواقع ربع سنهالية.

«الجانب السنهالي كان منسيًّا، لم نعرف عنه إلا ونحن نكبر، تلك لم تكن مشكلة في هذه الأيام، كبرنا جميعًا معًا».

شقيقة سيركانثا الكبرى، إنبراني سلفاراجه، تزوجت عام ١٩٧٤، وأنجبت ابنًا بعد عام، وابنًا آخر سموه رامانان عام ١٩٧٦.

«كانت أكبر مني بثلاثة عشر عامًا، وكانت لي مثل أم، أحبتني جدًّا، ورتبت لي زواجي. لدي شقيقتان وشقيق في فرنسا -أغلب عائلتي هناك- وشقيق في ألمانيا مات إثر أزمة قلبية في ٢٠٠٤. في ٣ نوفمبر ١٩٧٦، ولد بارثيبان، ولقبناه رامانان. كان طويلًا على نحو استثنائي، وشديد الوسامة رغم كونه داكنًا. أبوه كان طويلًا، وشقيقه الأكبر في لندن عنده طفلان بينهما ثلاثة عشر سنة، نفس الفارق بيني وبين شقيقتي. أخته الصغرى تدرس الماجيستير في العلوم».

ثم تنجرف سيركانثي من الشتات إلى المحلي: درس رامانان في ستانلي كوليدج بضاحية أريالاي في جفنا. كان الطالب المثالي وكابتن فريق الكريكيت، وقدم في جامعة جفنا لدراسة التجارة. كان قد تجاوز المرحلة الأولى من التقديم للجامعة قبل أسبوع من «وقوع ذلك»، أي اختطافه واختفائه. ثم تأخذني إلى قبل عام من اختطافه، إلى النزوح الذي يؤشر إلى أول خسارة كبرى في حياتها.

«نزحنا جراء العمليات العسكرية في أكتوبر ١٩٩٥ إلى بوينت بيدرو، وعدنا إلى المنطقة في يونيو ١٩٩٦. كان برابهاكاران [قائد نمور التاميل] في ١٩٩٥ يسيطر على جفنا. انسحب وطلب من المدنيين الذهاب معه. الناس التابعون لبرابهاكاران [نمور التاميل] أرادوا القيام بمهمة ضخمة ومطاردة الجيش السريلانكي بعيدًا، وأرادوا منا أن نظل بعيدًا لستة أيام، ولم يكن لدينا خيار ونحن تحت سيطرتهم. نُقل الكل إلى بوينت بيدرو. منحونا خمس أو ست ساعات للخروج من جفنا، أعلنوا هذا في مكبرات صوت عالية في حوالي السادسة مساءً وهم يتجولون في الطرقات. لم يكن هناك وقت لحزم المتاع، طريق جفنا بأكمله -طريقA9 - صار مكتظًّا. ماذا نأخذ؟ ماذا نترك؟ عمت الفوضى. ساد الزحام إلى حد أن وضع خطوة أمام أخرى كان يستغرق ساعات. لم يكن الناس فقط من يتنقلون، بل كانوا

يأخذون متعلقاتهم؛ سياراتهم وأواني الطهي والأبناء وكل ما هو ضروري للنجاة لستة أيام».

ماذا أخذتم؟

«في الواقع، بعدما رفض أبوانا أن يغادرا البيت، شعرنا أن لا شيء أهم وأغلى منهما يمكننا أن نأخذه. أبي كان متصلبًا حتى أنه رفض أن يتحرك.

قال: «لا يهمني ما يحدث أيًّا كان، أفضل الموت في بيتي على الانتقال». وبقيت أمي لأنه بقي. طلبت مني أن آخذ مجوهراتي وأرحل، لكني لم أفعل ذلك، أخذت فقط طقمين من الملابس، مجوهراتي لم تكن أغلى من أمي وأبي. لكننا لم نتمكن من الخروج من البيت تلك الليلة جراء الاكتظاظ المروري الثقيل على الطرقات. كان المطر ينهمر. أناس كثيرون أخذوا يخرجون من بيوتهم وجاءوا إلى بيتنا طالبين الملاذ. كانت هناك امرأة أنجبت طفلًا فورًا وعائدة من المستشفى، ولجأت إلى بيتنا مع رضيعها. انتهى الحال تلك الليلة بقرابة ألفين شخص في بيتنا. لمت برابهاكاران على متاعبنا، ومعه الجيش السريلانكي، الذي كان السبب الجذري، وليس السنهاليين. قررت اتباع تعليمات نمور التاميل للقضاء على حصار الجيش لنا، لكني اضطررت إلى البقاء والمساعدة. كان هناك أطفال رضع، عليَّ أن أساعد أهل هؤلاء الأطفال والعائلات التي فيها مسنون. قضيت الليلة كلها أغلي ماءً وأحضر حليبًا. لم أغادر إلا بعدما غادر الآخرون، بعد تنظيف البيت ومساعدة أمي. غادرت يوم ١ نوفمبر. أمي كانت في السادسة والخمسين. وكنت قد تزوجت منذ أربعة أشهر فقط».

أخت زوج سيركانثي كانت تعيش في بوينت بيدرو، لذا ذهبت العائلة بأسرها لتعيش هناك. «بدأ الهجوم على نمور التاميل في جفنا في ذلك الوقت. بيتنا في جفنا كان ضخمًا نسبيًّا، فحسب الجيش أن ربما يختبئ فيه نمور التاميل، فأطلق المدفعية على بيتنا... وقعت عليه حوالي ثمانٍ وعشرون قذيفة. اختبأ أبي وأمي تحت الدرج في الطابق السفلي. وجدهما الجيش واعتقلهما وأخذهما إلى معسكر أتشوفيلي تحت إشراف روهاندالوات. وقع قتال حامٍ في المنطقة، وسرت شائعات مفادها أن بابا وماما قتلهما الجيش لأنهما ظلا في البيت.

لم نستطع التأكد مما سمعنا، حسبنا أن والدينا ماتا في المعركة. لم يكن هناك تواصل بالهاتف وقتها، بل بالخطابات فقط. بعد ثلاثة أشهر، ابن عمي في النرويج تواصل مع منظمة الصليب الأحمر العالمية -وقد كانوا هم وحدهم الذين يتتبعون المفقودين- وسمع أن والديَّ كانا في المعسكر. اعتنى بهما الجيش هناك على ما يرام».

سيركانثي حريصة على التأكيد على هذه الحقيقة، لكن ثمة تبدلات في قصتها تفصح عن ازدواجية تجاه كلٍّ من الجيش السريلانكي ونمور التاميل، عميلي الحرب. بينما تتكشف قصتها عن ابن أختها المفقود، ستسمو إرادة النجاة فوق السياسة وستنزاح الأخلاق إلى المكان الذي فيه مقياس الخير هو أن تكون حيًّا.

«لم يكن هناك معاملة متحيزة ضدهم في المعسكر. أبقوهما في البيت ورتبوا إرسال الطعام إليهما، لكن بعض الناس -لو تعلمين- يختارون ألا يأكلوا إلا الطعام الذي صنعوه بأنفسهم، وأبي كان عنيدًا ونيقًا وقال إنه لا يستطيع أن يأكل هذا الطعام. أذعن الجيش وأعطوه كل أنواع الطعام التي أرادها. بفضل العناية الإلهية تلقيا رعاية جيدة. ثم بعد ثلاثة أشهر من البكاء سمعنا أن والدينا على قيد الحياة. عندها قلقنا من ألا نراهم مرة أخرى. سُمح لنا بعد إبريل بالعودة إلى جفنا، بالعبور من نقطة تفتيش في نافاتكولي حيث كان علينا التسجيل قبل دخول المنطقة التي يسيطر عليها الجيش».

سألت عن كيف كانت الحياة خلال فترة النزوح، وماذا كان رامانان يفعل في تلك الآونة.

«لم تكن هناك مرافق في بوينت بيدرو. انضم ابن أختي إلى معهدٍ ليدَرِّس، وقدم دروسًا مجانية في التجارة للأشخاص النازحين. كان لديه وقت فراغ كبير، وكان هناك أطفال حوله يفتقدون المدرسة. كان فتى جادًّا، وعندما توجب عليه أن يَدْرُس انغمس في ذلك بكل جوارحه» تقول ذلك وهي تستحضره، «وكان رياضيًّا ممتازًا. لم تكن له صلات بنمور التاميل، كان صبيًّا مذهلًا، ومرحًا أيضًا. أذكر أنه عندما كانت طائرات القنابل تحوم قريبًا، ويسود بطبيعة الحال مناخ من الخوف، كان يهرع راكضًا إلى الخارج ويقطف وردة، ويعرضها علينا قائلًا: «سأحتفظ بهذه تحت قدميّ، لأني لو متّ فلن يكون هناك من يضع

عليَّ الزهور». أذكر فعله ذلك. كانت زهرة حمراء، زهرة كركديه. هكذا كان حسه في الدعابة».

عندما عدتم إلى البيت، كيف كان الحال؟

«بيتنا بات حطامًا. النوافذ والأبواب مهشمة، وحتى البوابة مكسورة. ولما كان بيتًا من طابقين، فقد تمكنا من العيش في الطابق الأرضي».

سيركانثي واعية على الدوام بالسردية الأكبر وتعدل قصتها طبقًا لها، تضبط الوقت والمكان بطريقة تساعد في عقلنة الأحداث. ربما يكون ذلك ضروريًا لأن ما ينتج هو حكاية تتحدى المنطق والمعنى، وتؤكد على عدم استقرار الزمن وأيضًا على عدم استقرار ذلك الزمن.

«خلال حكومة تشاندريكا عام ١٩٩٦، كان هناك اختلاف، تبدل بمقدار ساعة في توقيتنا العادي، وأدى ذلك إلى ارتباك في روتيننا. كان هناك حظر تجوال عام واضطررنا إلى الالتزام ببيوتنا قبل السادسة مساءً. لم تُفتح المدارس ولا الجامعات بعد، وذهب رامانان للعب الكرة الطائرة مع أصدقائه. أخوه الأكبر، الذي كان لطيف الكلام ورقيقًا -كان من الصعب جدًّا أن تستخرج الكلام منه- كان جزءًا من اتحاد الطلاب الذي كان نشطًا جدًّا في هذه الأيام. قلقنا من ذلك، لم نشعر أنه شيء آمن لينخرط فيه الشقيق الأكبر، وأردنا إرساله إلى الخارج حيث سيكون آمنًا. أخذته أمه إلى كولمبو لتشحنه إلى خارج البلد».

أتذكر التطرف الطلابي في هذا الزمن، وأصبح ممتنة لتحويل سيركانثي ذلك إلى معنى بهذه الطريقة.

«كان رامانان على وشك بدء الدراسة في الجامعة، لذا تركاه خلفهما. لم تراودنا أية مخاوف عن أمنه، لذا كنا مطمئنين نوعًا»، تبتسم، «ذهب كل يوم للعب الكريكيت في أرض قريبة من بيتي، كان يمر ببيتي وأنا أنتظره، وفي ذلك اليوم رأيته يمر ولوَّح لي. كان ذلك يوم الجمعة الثامن من سبتمبر».

يحضر التاريخ بسهولة، إنها شاهدة متمرسة. يحملني تيار القصة.

«كانت أختي وابنتها في كوفيل آمّان الذي يقع بين بيتي وبيتها. رأته أختي يمر من هناك خلال عودته من لعب الكريكيت، فهرعت إلى البيت مع ابنتها لتحضر له الشاي. انتظرته في البيت. لم يكن بين بيتها والكوفيل سوى ثلاثة أو أربعة بيوت. عندما لم يصل بحلول الخامسة مساءً، خرجت إلى البوابة لتبحث عنه، لكن رجال الجيش أمروها بالعودة إلى الداخل لحلول موعد الحظر. حسبت أنه ربما كان مع أصدقائه في أحد البيوت على الطريق، ثم...»، تتوقف وهي تتجهز لإفساح الطريق لدخول غريب في الحكاية، غريب محوري الوجود في القصة لكنه من خارج شبكة الأسرة التي ترتكز عليها حكايتها، «امرأة كانت تعمل في بيتي -زوجها يعيش أمام نقطة تفتيش قريبة من الكوفيل- جاءت في اليوم التالي وقالت إن زوجها رأى ضباط الجيش يوقفونه ويأخذونه إلى المعسكر. كان ذلك في التاسع من سبتمبر، وفي ذلك اليوم كان ابن أختي الأكبر سيطير خارجًا من كولمبو، لذا أمي كانت هناك برفقة زوج أختي الذي كان ناظر محطة فورت بكولمبو، بالتالي كانت أختي وابنتها وحدهما في البيت. جعلتا تبكيان طول الليل عندما لم يعد إلى البيت، مضطرتين للبقاء فيه بسبب حظر التجوال».

ثم ماذا؟

في الصباح التالي ذهبت إلى معسكر الجيش السريلانكي في مقاطعة ثوندي القضائية، «بعدما سمعت من الجار -الذي جاء يجري- أنه رأى ابننا يؤخذ إلى هناك».

ذهبت إلى معسكر ٥١٢ وذهبت أختي إلى معسكر ثوندي، الذي كان المعسكر الرئيسي في المنطقة. هذان المعسكران كانا على جانبي طريق A9. اختفى قرابة الخمس مئة شخص من منطقتنا في ذلك الوقت. كل هذه الاعتقالات وقعت خلال ثلاثة أشهر، وأغلبها حدث في أريالاي. رامانان كان من الأوائل، اختفى شخصان فقط قبل ابن أختي. الأول هو شخص يدعى موهان، وكان يدير فصل محاضرات، وهو أيضًا الجراماسيفاكا للقرية في هذا الوقت. عرفته شخصيًا، فقد كان مدرسًا لي. قال لي إنه قد يتعرض للاعتقال ويفكر في

مغادرة المنطقة بالحصول على جواز مرور. كان متلهفًا على إيجاد سبب يحصل به على جواز، واقترحت، بما أنه أعزب، أن بوسعه القول إنه سيتزوج بالخارج ويحتاج إلى المغادرة. عندما ذهب لاستخراج جوازًا، اختفى. ابن اختي كان ثالث من اختفوا. قيل لنا إن ضابط الجيش خبط على كتفه وشد ذراعيه وأخذه إلى المعسكر. هذا ما رآه الشاهد قبل أن يعود إلى بيته بسبب الحظر، ولم يرَ أي شيء آخر».

بدأت قصتها تغلبني، ثمة تفاصيل كثيرة أحتاج إلى استيعابها. متى أصبحت تلك القصة تاريخًا؟ ليست حكاية واحدة بل وابلًا من الحقائق التي هي بذور لحكايات عديدة! ثمة إسراف في القصة هنا، فائض ينسكب منه اختفاء آخرين ليسوا منهم وضياعهم.
سيركانثي، كما هو واضح، تنوي جعل قصتها تحل محل قصص آخرين ربما لا تكون لهم أصوات تُسمع.

في اليوم التالي ذهبت أخت سيركانثي إلى معسكر ثوندي حيث كان المقدم جايوارديني هو المسؤول. أخبرها أن رامانان قد أُعتقل ليُستجوَب وسيُطلق سراحه إثر ذلك. لم يسمحوا لها برؤية ابنها. آخر من رآه في الهوية الأليفة للطالب المدني -آخر الشهود- كان الجار الذي يعيش قبالة نقطة التفتيش.

ثم تتحدث سيركانثي عن بحث العائلة، الذي يفقد اتجاهه ومنطقه الزمني أثناء تحوله إلى بحث عن المعنى والمغزى، بحث يجعلها ترتد عائدة إلى أصول أسرتها العرقية المختلطة.

«كان بوسع أمي التحدث بالسنهالية، ومضت في جميع أنحاء البلد من معسكر إلى معسكر. ذات يوم كانت على وشك مغادرة معسكر أتشوفيلي مع أختي وتنتظر في موقف الحافلة، عندما سمعت ضابط جيش يقول إن حفيدها على قيد الحياة. شدد هذا من قناعتهم أنه موجود فعلًا. كان ذلك في عام ٢٠٠٠. ذهبت أمي إلى كل معسكرات البلد، حتى أنها ذهبت إلى مدينة كالوتارا. ثم عادت الخدمة الهاتفية إلى جفنا، واتصل بنا شخص غير معروف يطلب ٥٠٠.٠٠٠ روبية مقابل إطلاق سراح رامانان. وافقت على الفور، خمس مئة ألف مقابل حياة ابننا لا قيمة لها! هكذا قيل لنا أن نذهب إلى فافونيا لنرتب الأمور. لكني أردت التيقن

من أنه سيخرج رسميًا عبر المحاكم، فلم أكن أريدهم أن يدوروا من خلفنا ويقبضوا عليه مجددًا. لم نكن حتى متأكدين من حالته الصحية. لكنهم لم يتصلوا بعد ذلك. ثم وقع هجوم معبر الفيل، وسُمح لكثير من جنود نمور التاميل بالعلاج في مستشفى جفنا، فقد حدث هذا خلال فترة وقف إطلاق نار. ابن جاري، وهو عضو في نمور التاميل، كان جريحًا وفي رأسه شظية، وتلقى العلاج هناك. قال إنه رأى ابن اختي خلال المعركة، وإنه كان في ملابس الجيش الرسمية، وإنه طلب منه أن يوصل رسالة إلى الأسرة بأنه على قيد الحياة. سأله ابن جاري لماذا يرتدي زي الجيش، لكن بينما يتحدثان استدعى جندي رامانان. عندما سمع ابن جاري ذلك كان في مركز التأهيل، حيث أخذه الجيش».

أنا الآن مشوشة. إنها أول قصة أسمعها عن شخص مختفٍ يبدل الأدوار، ويظهر كشخص آخر. أسألها إن كانت واثقة بهذه الرؤية. في بلد ممسوسة، لا يستبعد أن تكتسي الأشباح باللحم.

قالت سيركانثي بحزم: «هذه المعلومة حقيقية، لم يكن بحاجة إلى اختلاقها».

حتى نقطة اختطاف ابن شقيقتها، تمكنت سيركانثي من بناء حكايتها على أساسات زمانية خرسانية. حتى تلك النقطة، ظل رامانان الصبي الذي عرفته.

غير أن المشاهدات والمكالمات الهاتفية، لها نفس تأثير الفجوات الزمنية المربك لفترة حظر التجوال؛ فهي تؤشر إلى نظام زمني جديد. تقع الوقائع الآن مبعثرة مثل هوية ابن أختها المفقود، الذي قيل لها إنه رُئي في زي عسكري.

إنها تحاول أن تتمسك بتواريخ زمنية وحقائق -سنوات وأسماء وأماكن بعينها- قد تعمل على وضع أسس لحكايتها وتوفر حقيقة مُدلل عليها. بيد أن حكايتها باتت جامحة عصية، هائمة في تضاريس ضبابية. يحيرني ذلك التبدل في الهوية، التلميذ التاميلي المتدين المطيع الذي يختطفه الجيش في كمين، ثم يظهر مجددًا كجندي يخدم في الجيش الذي لا

يستخدم مجندين من التاميل. لكن سيركانثي حريصة على توجيهي بعيدًا عن التأويل، وتركز عوضًا عن ذلك على ما تعرفه.

قالت إنها أصبحت سعيدة لكونه على قيد الحياة. وفي ٢٠٠٢، أبلغوا رابطة المختفين باختطافه، ورفعوا قضية في محاكم جفنا.

قالت: «أردنا العدالة، لكن شيئًا لم يحدث». ثم في ٢٠٠٩، بعدما انتهت الحرب، أطلق الجيش السريلانكي المحتجزين، قرية تلو قرية.

«زوجي كان الجراماسيفاكا، وكان جزءًا من هذا. خلال وصول الناس، تقدم ابن أختي وتحدث إليه، بهيئة مختلفة إلى حد كبير، ومرتديًا الزي العسكري. تحدث إلى زوجي وقال: «تشيثابا(22)، ألا تعرفني؟ أنا رامانان». لكنه ما إن فعل حتى جاء الجنود وأخذوه وذهب معهم. كان قد مر على اختفائه زمن طويل، وبدا مختلفًا. قال لي زوجي تلك الليلة: «لم أستطع التعرف عليه، فقد كانت تغطي وجهه قماشة سوداء، وكان جزءًا من كتيبة الدراجات النارية»».

تلك كانت المشاهدة الثالثة لابن أختها الذي لم يستطع زوجها التعرف عليه، الذي لم يره منذ كان صبيًّا.

في اليوم التالي، ذهبت سيركانثي وزوجها إلى المعسكر وظلا طوال اليوم هناك، أملًا في رؤية رامانان. «لكن الجيش لم يأتِ به هنا مجددًا بسبب ما حدث من قبل، والذي أُبلغ عنه». ثم في ٢٠١٢، تلقت مكالمة أخرى من مجهول تقول إن رامانان يمكن أن تطلق سراحه محكمة فافونيا بشرط أن يسافر إلى الخارج. بل إنهم سيجهزون له جواز سفر وتذكرة طيران ويأخذونه إلى المطار، بشرط أن تدفع خمسة ملايين روبية. «كانوا يريدون خمس مئة من قبل والآن صاروا خمسة ملايين. وافقت، وجهزت كل شيء، تواصلت مع أقارب لنا في سنغافورة وفرنسا. أنا وأمي كنا نجهز لأخذه من محكمة فافونيا إلى كولمبو. أعطانا المتصل رقم هاتفي، لكن عندما اتصلت به كان مغلقًا. ظللنا منتظرين في فافونيا طوال

الوقت وظل الهاتف مغلقًا. بعد ذلك، لم تأتِ أية أخبار. في ذلك الوقت كانت تحدث مكالمات كثيرة مثل تلك لمن يبحثون عن ضائعيهم. كانوا يسألون عن التفاصيل البنكية، وبعض الناس وثقوا بهذه المكالمات، بل وأودعوا مبالغ مالية هائلة في حسابات بنكية. عرفنا من خلال مشغل الخدمة أن الرقم يعود إلى شخص مسلم. أعتقد أن المتصل كان يعرف عائلتنا شخصيًا، لأني عندما أجبته قال إني لست أم رامانان. كان هذا الشخص يعرف معلومات شخصية، لذا صدقت المعلومات التي قدمها. تلك كانت آخر مرة أسمع منه».

أنا صامتة، أحاول استيعاب كل تلك المعلومات.

المشاهدات الطيفية غير المباشرة، الهوية العسكرية، الأصوات عديمة الهوية على خط التليفون، الرجل المقنع ذو الصوت المألوف، الفدية المطلوبة، والمعلومات الآتية من الذين تحدثوا معه أكثر تفصيلًا ودقة من أن تُرفض.

الحقائق تشير إلى أن ابن أختها، الذي أخذه الجيش السريلانكي للاستجواب عام ١٩٩٦، عُين في الجيش وكان على قيد الحياة عندما انتهت الحرب في ٢٠٠٩. لقد نجا بشكل ما مع الجيش لأكثر من ثلاثين عامًا، وعاش ليشهد نهاية الحرب.

تواتيني خاطرة لا يجب أن أصرح بها، أسأل بدلًا من ذلك: ماذا تظنين أنه كان يفعل في الجيش؟ هل يعرف السنهالية؟

«لا أعرف، ربما غسلوا مخه. رجل الشرطة العسكرية الذي قال إن ابن أختي في الجيش، قال إنه بخير، «لا تقلقي، ابن أختك في مكانة عالية بالجيش». لم يكن يعرف السنهالية، لكن ربما أصبح يعرفها الآن. لا نمانع انضمامه إلى الجيش، لكننا نود رؤيته، هذا يكفينا. مات أبي في ٢٠٠٧ ولم يره قط. كان قلقًا عليه».

هل كان ابن أختك شخصًا مطيعًا للأوامر؟ «لم يكن تابعًا، لكنه كان يخاف من القوات المسلحة. لقد ولد في ١٩٧٦، وشهد القنابل. كان يخاف الجيش، والخوف يجعلك تفعل أشياء. ليس لدينا مشكلة مع كونه في الجيش. ما دام حيًّا فنحن موافقون. لكننا نريد مقابلته ولو لمرة على الأقل».

إنها تسعى، مثلما فعلت من قبل، إلى سياق قد يوفر لها استمرارية وسببية ويربط بين الأحداث، ليقودها إلى الزمن الحاضر.

تخبرني بأن المقدم جايوارديني، الذي كان مسؤولًا عن المعسكر الذي احتُجز فيه ابن أختها، يفترض به أن يشهد في المحكمة في السادس من الشهر؛ لأن صديقة لها تعرفها من مركز فافونيا للأشخاص المفقودين تعرفت على ابنتها في صورة ظهر فيها الرئيس الحالي، مايتريبالا سيريسينا، يزور مركز أفساويلا التأهيلي، وعندما استجوبوه بشأنها قال إنه لا يعرف شيئًا عن الطفلة، وتخبرني أنها تتمنى أن يُطلق سراح كل من اختطفهم الجيش السريلانكي واختفوا.

أقرأ بين تلك القطع المتفرقة من المعلومات، محاولة إيجاد رابطًا بينهم لأفهم ما الذي تحاول قوله. ثمة معلومات هنا لا يُمكن أن تُمنح بشكل مباشر. إنها تتحدث بإلحاح في مطالبتها بالعدالة، وبحذر في الوقت نفسه، مستخدمة المعرفة العامة المتاحة -الصورة التي انتشرت على أوسع نطاق للفتاة المختفية التي تورط الرئيس- والمشاعر المشتركة للضغط من أجل قضية خاصة.

«إنه [سيريسينا] قد قدم إجابات غير مسؤولة. كيف لنا أن نصدق هذه الحكومة؟ الكل يعيش معًا. نمور التاميل يمارسون السياسة. ليس عليَّ مسؤوليات عائلية، لذا أنا قوية. أريد أن أساعد الناس. ليس لدينا المال، لكن عندنا الطاقة البشرية»، تمسح أنفها وتبتسم، «لا شك أن رأسك يؤلمك من الإنصات إلى كل تلك الحكايات».

ثم، وبينما أنا قد بدأت فورًا في إيجاد مغزى مما لم يُنطق، من المعنى الكامن بين الكلمات، تعيدني إلى الماضي الأكيد، إلى تاريخ الشاب متعدد الأشكال، الذي رسمت تحولاته مسار القصة التي تحكيها، أخذتني إلى ذكرى الطفل الذي كانه والمستقبل المُتنبأ به.

«قُرئ طالعه عندما كان في الرابعة. قال لنا الفلكي «لن يظل هذا الولد معكم طويلًا، سيضيع دهرًا ثم يعود لكم». تحققت طوالع أخرى لهذا الفلكي، عائلتنا متيقنة من أنه سيعود».

أخيرًا أسأل سؤالًا، قد يبدو عديم الأهمية فيما يتعلق بالاختفاء الطويل والمكالمات من مجهولين وتبدل الهوية الدرامي للذين حكت عنهم، لكنه ما انفك يتردد بداخلي منذ بدأت في الحديث: لماذا أنت من جئت بهذه القصة؟ لماذا لم تفعل أمه؟

أوضحت: «أمه مريضة عقليًا، مصابة بالنسيان وفقدت ذاكرتها بمرور العمر والحرب. كانت دائمة التفكير في ابنها. كنت أنا من ربيته، وقضى أغلب الوقت معي. ليس عندي أبناء، فكان هو ابني. عندما تزوجت أختي أنجبت طفلين ذوي أعمار متقاربة، لا يفرق بينهما سوى ثلاثة عشر شهرًا. ذهبت لتنضم إلى زوجها وربيت أنا أطفالها. كان يناديني يا أمي»، قالتها بأيدٍ مضمومة.

∞

يوميات جفنا

٣ سبتمبر، ٧:١٥ ص

إفطار مكون من إيدياباام[23] وبيض مقلي وحمص وكاري اليقطين ونوعين مختلفين من الفاداي والقهوة، يقدمهم ديلان، مالك البيت الذي نقضي فيه ليالينا في جفنا.

يخبرنا عن الضرر الذي تعرض له المبنى جراء قصف المدفعية، وعن مرات نزوح عائلته المتعددة عبر السنين، وعمله التالي في منظمة الصليب الأحمر الدولية الذي منحه الهدف والأمل. لقد غير شكل بيته، وجعل من منطقة الجلوس في الشرفة المغطاة ملاذًا شجريًا تحفه أوراق الشجر.

شريحة من شجرة تقوم بدور الطاولة، وتخرج من الأرائك فروع تحط عليها الطيور.

ديلان طويل وشديد الوسامة. ابنه ذو الثلاثة أعوام يقف بجواره ويقبض على ساقيّ أبيه بينما يتحدث. يراقب الطفل زوجي، الذي هو أوروبي نادر وجود مثله في بيت مفعم بالنزلاء التاميليين. يقبض زوجي على نظرته، يبتسم، ويمد يده إلى الجيب العلوي من قميصه.

يخرج قطعة ورق وقلمًا معدنيًا بعناية مبالغ فيها، ويرفعهما عاليًا كي يستطيع الولد رؤيتهما. يستمر الولد في المراقبة في حين يدفع زوجي بالقلم عبر الورقة ويخترقها، ويتنامى تعجبه في حين يسحب زوجي القلم مجددًا ويترك الورقة سليمة.

ينظر إلى زوجي بأعين متراقصة.

سحر! هذا القلم، هذه الرصاصة، تذهب دون أن تترك خلفها ندبة.

٩:٠٠ ص

نذهب عبر طرق ذات مرور هادئ على نحو إعجازي إلى بيت سكني على طريق ثانوي. أربع نساء ينتظرن جالسات ساكنات في شرفة مفتوحة، يحملن حزمًا من الأوراق في أياديهن. ينظرن إلينا بفضول إبان وصولنا.

تخبرني موجو أننا سنجري المقابلات في هذا البيت، لأن من سنقابلهن لم يشعرن بالأمان للقدوم إلى اللقاءات في فندق أو في أي مساحة عامة أخرى. أسأل إن كنّ يفضلنّ أن تكون

الغرفة بأعلى درجة خصوصية ممكنة، فيوافقنّ جميعًا.

أنسحب أنا وموجو مع سيركانثي، شاهدتنا الأولى، إلى غرفة ضخمة باردة تطل نوافذها على أوراق شجر، حيث يمكن إحكام غلق الباب. تحف المائدة تشكيلة مقاعد، مقاعد بلاستيكية مختلفة الألوان من النوع الذي تجده في الحدائق ومقاهي الشواطئ، لبعضها مسند للذراع. هناك أيضًا عدة مقاعد مكتبية، بوسادات على المقعدة والظهر.

هل سيكون من الممكن أن نجلس جميعًا على نفس نوع المقاعد كي نحافظ على تحقق نوع من التكافؤ؟

يسرع المنسق الشاب في الموافقة ويعيد ترتيب الأشياء.

تُقام المقابلات ونحن جميعًا جالسون على مقاعد بلاستيكية متماثلة، لهم جميعًا ذات الحجم والشكل، بل لهم حتى نفس درجة لون البيج الرخامي.

٥ مساءً

يركن نيل السيارة ونخرج ونمشي على صف المتاجر وعبر حواجز الشرطة، في اتجاه مجمع معابد نالور. الشرطة تعاملنا بتهذيب، نحن الأغراب، لكنهم مع ذلك متوترون ومرتبكون. نرتدي صنادلنا لأن رمال مجمع المعابد أسخن من أن نمشي عليها بأرجلنا العارية. بعض العابدين يمشون بخطوات متعجلة محترقة في اتجاه ممر المعبد، حاملين في أياديهم زهورًا نذرية ومظلات مفتوحة ذات مقابض طويلة. أصحاب المتاجر يرشون المياه من الخراطيم، فتغمق الرمال قبل أن تختفي المياه بسرعة فيها.

ستكون الشمس فوق الجزيرة مباشرة لأسبوع كامل سنقضيه عالقين في وهجها. تتغضن بشرتي وتغمق في أقل من نصف ساعة.

ينتصب نصب ثيليبان التذكاري بالقرب من مجمع المعابد، ويسهل تفويته وسط التكتل البشري عند أكشاك السوق. ثيليبان كان من كوادر نمور التاميل ودخل في إضراب عن الطعام اعتراضًا على وجود القوات الهندية في جفنا. الاعتراض السلمي واختيار العدو جعلاه النصب التذكاري الوحيد الباقي لأي من أعضاء نمور التاميل في البلد. النصب في نسخته الثالثة، ويقف عاليًا على نفس الأرض التي وقف عليها سلفاه السابقان اللذين دُمرا.

إنه بناء بسيط، بوابة أسمنتيه مربعة ذات درجات منخفضة تقود إلى عارضة قصيرة ملونة، تحمل صورة لشمعة تحترق وصورة فوتوغرافية لشاب ذي لحية ونظارة طبية يشبه بشكل عابر تشي جيفارا. لا توجد زهور أو مصابيح نذرية، بل فقط ملصق كبير يقتبس تصريح ثيليبان بأن المقابر هي أرحام الحرية، وعروش الآلهة.

رجل يعتمر خوذة على دراجة نارية يوقف دراجته وينظر إلينا بريبة، يحدق إلينا ونحن نلتزم الصمت لدقيقة عند البوابة. تحديقه حاد وطويل ولا يرحم كما الشمس. نلتمس الملاذ منه في مقهى ريو، حيث تنزلق المثلجات كزيوت التشحيم في حلوقنا الملتهبة. وبينما نغادر المقهى، يضيف نيل إلى الأسطورة المتنامية عن الرجل الميت.

يقول: «لم يكن الإضراب عن الطعام وحده ما قتله، كان مصابًا بالسرطان».

البطل، الشهيد، أمسى فانيًا من جديد.

مركز مدينة جفنا نظيف وهادئ ومنظم، يعرف الجميع أدوارهم. بالقرب من معبد بألوان الطيف، ثمة لافتة فوق برميل أبيض معدني تطلب بأدب: «ابصق في الدلو».

ثم تصل الطرق الهادئة إلى أطلال بيوت ضخمة. التنقل لمرات متعددة مع نيل يجعل بعض الأسماء مألوفة -طريق ستانلي، طريق كروس- والتنقل في الذاكرة يحول مستشفى جفنا التعليمي إلى المكان الذي جاء إليه نادراجاه بحثًا عن أفراد عائلته بعد القصف.

ربما حدث ذلك قبل ثلاثين عامًا، لكن خسارة نادراجاه في كل مكان، وجفنا تصبح مكان الجثث المتناثرة، وأشلاء الجثث، لذا يصبح الناس الذين أراهم وكأنهم يتحركون بنظام وسكون في زمن موازٍ. أجد نفسي تتوق إلى الأرض الواسعة والعشب الطويل والسماء النقية على الطريق الساحلي.

لافتة ذات صور توضيحية وضعها قطاع الآثار تقول إن التدخين والشرب والسيارات وكاميرات الفيديو ممنوعون في قلعة جفنا، وكذلك «الأفعال السوقية»، والتي توضحها صور لأزواج يتبادلون القبلات أو يجلسون ظهرًا إلى ظهر بأرجل مقوسة.

صاحت طيور اللابوينج ذات اللغد الأحمر على طول الخندق المائي وطارت من شجرة إلى أخرى من تلك الأشجار التي تقبض جذورها الطويلة على الشقوق في الجدران المحيطة بالحصن. ظل الحصن صامدًا طوال عمره البالغ ٣٦٠ عامًا حتى جاءت الحرب. تقف الأطلال الآن مثل مدينة مهجورة خارج نطاق الزمن التاريخي. لا شيء عدا الآبار الضخمة التي تردد الصدى يقترح وجود حياة مجتمعية سابقة.

جندي يمشي الهوينا بالقرب من سارية علم.

قميصان غامقان معلقان على حبل يحيط بجلاميد صخرية. سقف قبو تحت الأسوار مغطى بسرب من الوطاويط الخافقة، ويتدلى ملصق ملون للمارشال تيتو مبتسمًا فوق الهيكل الحديدي لسرير عسكري وكأنه ملاءة مشرقة.

∞

الطفلة السادسة

يؤطر وجه روجينا الشاحب خمار أسود يجعلها تبدو منفصلة وخارج نطاق الزمن على نحو غريب. لديها عينان رقيقتان مثل ثغرها، بشرتها ملساء لطيفة. إنها في الواحدة والخمسين

من عمرها لكن فيها سكينة عذبة تشعرك أنها قد تكون في أي عمر. تقاسيمها شديدة السكون والهشاشة وكأنها قد تنكسر في أي لحظة.

في رفقة روجينا ابنتها نوزرات التي تلتمع عيناها وهي تحييني بأرق الابتسامات. تقول الأم إنها لا تمانع أن تُصور فوتوغرافيًا، لكنها لا تحب أن تكون في فيلم. ترفرفان في حجابيهما بينما تجلسان. قد تبدو قصة روجينا هزيلة، لكن خلفيتها ثرية بالتفاصيل، خاصة مع حيادية المسلمين في الحرب. ثمة الكثير من التفاصيل الضائعة هنا، الكثير من الفجوات التي تحتاج إلى الملء، وصمت روجينا، وغياب التفاصيل التاريخية عندها، يقولان الكثير عن الصمت الأعم والأشمل المتبقي.

إنه صمت يساعد على إخفاء كيف كان المسلمون عالقين في الصراع القومي بين نمور التاميل والحكومة، وكيف أمسوا مستهدفين من الأولى وتُركوا بغير حماية من الثانية، وكيف وصلت الأمور في الشمال عام ١٩٩٠ -مع مشروع نمور التاميل لإقامة دولة قومية- إلى مذابح تطهير عرقي غاشمة، جعلت حياة الناس الذين كانوا مُهجرين وغير مستقرين في الأصل، بلا أية قيمة، إلى حد يُختزل معه الشخص المختفي إلى حبر على ورق -اسم في وثيقة حقوق إنسان- وذكرى ضخمة لا تنفك تتسع حتى تملأ الخواء في بيت العائلة.

روجينا تكاد تكون الأكثر هشاشة بين كل من قابلتهم، وهي بلا شك الأكثر هشاشة بين النساء. المقابلة معها قصيرة وتبدأ بالدموع.

مع الوقت، تلتقط ابنتها طرف خيط قصتها. هي ابنة أكثر ما تعرفه عن والدها يأتي من حكي أمها عنه، ابنة تظهر بجلاء عنايتها بأمها من نظرتها الحامية التي تجلس في ظلها الأم، ومن خفة لمسات أناملها لها، ومن ابتسامتها المشجعة لها بينما تستجمع شتات الذكريات وتشاركها.

إنها قصة عائلة مفتوحة النهاية ولا تزال مستمرة، وتُحكى كأغنية حب يغنيها دويتو.

أبدأ بسؤال روجينا عن زواجها، إذ جاءتني لتحكي لي عن زوجها وكيف اختفى في صباح ٢٨ مايو ١٩٩١.

الوثائق التي أراها تقدم أكثر من تهجٍّ لاسمه بالإنجليزية: عبد المجيد نجيب، وعبد المجيث رجيف، وأبثول مجيث نجيف، وأبو بكر مجيد نجيب، الاسم الأخير من شهادة الميلاد. جلبت حتى جواز سفره. كل تلك الوثائق تُظهر أنه عاش، أنه كان هنا. زوجها الغائب يكمن في مكان ما بين هذه الأسماء المتعددة.

تشرع في الحكي: كانت في التاسعة عشرة عندما تزوجته عام ١٩٨٦، تفلت منها ابتسامة، كانت تعرفه من قبلها، مع أن الزواج كان مُرتبًا.

«كان ودودًا»، تضحك، وتنضح ملامحها بوفرة من ذكريات الحب، تختنق فتلتقط نفسها، ثم تجهش في النحيب.

مبكرًا جدًّا، هذه ليست إلا أول ذكرياتها.

كيف نتابع ومجرد تذكر صورته تؤلم؟

أستطيع رؤية صورته في جواز سفره -رجل ذو أعين ثاقبة وشارب جليل- وأعلم أنه معها وهي تتحدث بجمل مكسورة متقطعة.

كان في الثلاثين عندما تزوجته، وكان يكسب قوته من توريد الماعز إلى المذابح في كولمبو.

كان واسع الكسب، واعتنى بأسرته كما ينبغي.

كانت ابنتاهما في الثانية والرابعة، وهي كانت حاملًا في الشهر السادس في ابنها الوحيد، عندما نزحوا من جفنا إلى بوتّالام عام ١٩٩٠.

لم تكن منطقة مألوفة له، لم يعرف تلك المنطقة، كررتها وجعلت تبكي من جديد.

لم يجد وظيفة مناسبة عندما ذهب إلى ثانديكولام، حيث اختفى، كان يبحث عن عمل عندما اختُطف.

تكمن قصة روجينا في المسكوت عنه، مأساة اختفاء زوجها تتفاقم بغياب أي سجل لخسارتها. تنكشف الحكاية بترتيب من الذاكرة، وتجد لنفسها بالتدريج محلًّا تاريخيًّا.

لم يكن وحيدًا، كان بين مجموعة تسافر من مكان إلى آخر، أخذهم نمور التاميل كلهم، وأطلقوا سراح بعضهم، لكن احتفظوا بسبعة رجال.

كانوا كلهم جيرانًا من بوتّالام. لم يكن الهجوم –الاختطاف- شخصيًّا. كانت هناك مشاكل بين نمور التاميل والجيش السريلانكي في ذلك الوقت. كانوا ميسوري الحال، لكن عندما نزحوا جردهم نمور التاميل من كل ثرائهم وذهبهم. لم تقع حوادث اختطاف من قبل، تلك كانت الأولى من نوعها.

ثم تتذكر عندها تفصيلة غير تاريخية بالمرة، تؤكد على شخصية مأساتها. عندما كان الرجال في طريقهم للبحث عن عمل في فافونيا، قابلوا امرأة عجوزًا تريد الذهاب إلى ثانديكولام، منطقة تابعة لنمور التاميل، وطلبت من الرجال المساعدة.

ذهب عشرة أو أحد عشر رجلًا معها إلى ثانديكولام، «مجهود كبير ليوصلوها إلى ما بعد الحدود»، وعندها جاء نمور التاميل واحتجزوهم. هرب بعضهم لكن ظل سبعة في قبضة النمور.

قصة روجينا تتبدل -لم «يُطلق سراح» الرجال، بل «هربوا»- وتقع السردية كلها تحت ظل كلماتها الأولى عن النزوح، عن التشرد، عن ضياع البيت، وخطوات زوجها العمياء في الظلام.

لم يعرف تلك المنطقة، كان غريبًا فيها.

عندما أسألها عن كيف عرفت بما حدث، تقول: «لم يخبروني بشيء، لأني كنت حاملًا». أخبر الهاربون بقية أفراد العائلة، والديها وأشقائها الخمسة الأكبر منها. كانت في الرابعة والعشرين في ذلك الوقت، وأشقاؤها كانوا يدعمونها ويحمونها.

كانت تنتظره، وقيل لها إنه سيعود لاحقًا. ظلوا يقولون لها ذلك.

ثم ذلك المساء، أخبروها أخيرًا بأنه اختُطف وسيُطلق سراحه عما قريب. بحثت أسرتها عن زوجها، وتتبعوا الطريق الطويل لأيام بدونه، طريق سيأخذهم أخيرًا إلى مكتب لجنة حقوق الإنسان للأشخاص المخطوفين، حيث سجلوا شكواهم.

أخيرًا في الأعوام الخمسة الأخيرة استنتجوا أنه قد مات. استلمت شهادة وفاته في ٢٠١٣. وصلوا إلى هذه الحقيقة بعد عشرين عامًا. ظلت تنتظر عشرين عامًا.

تتوقف روجينا، وتتحدث ابنتها التي كانت تراقبها وتلمسها. تفتح قصة روجينا وكأنها نافذة زجاجية تغير زاويتها لتعكس مشهدًا آخر.

تقول نوزرات إن عمرها كان عامين عندما كان أخوالها يعملون في مناجم الملح.

كانت ترغب في الدراسة، لكنها لم تفعل بسبب الوضع المادي. انقسمت الأسرة، تبعثر الأشقاء بين بيوت الأخوال. تأثر أخوها -لم يتمكن من تحقيق أمانيه- وتعرض للتنمر، افتقد دور الأب في حياته، افتقد الأب الذي لم يحظَ به قط.

ثم تتحدث روجينا بصوت محايد، وكأن هذا حدث في حياة أخرى لشخص آخر: تلقت العديد من عروض الزواج بعد الاختفاء، لكنها رفضتهم جميعًا لتوقعها أنه سيعود.

«لم أتفاجأ عندما تلقيت شهادة الوفاة، لأني عانيت وخسرت بالفعل. أنا الآن في الواحدة والخمسين من عمري. حياتي انتهت، ولا يشكل ذلك أي فارق، فقد مر وقت طويل منذ

فقدته. أجد في أبنائي الدعم والمستقبل، أنا هنا لأنهم معي».

تخبرني أن كلًّا من أبنائها الثلاثة متزوج، وأن عندها أربعة أحفاد، وأن نوزرات حامل في حفيدها الخامس.

تقول روجينا: «أنا عبء على أسرتي»، وتتوقف عن الكلام.

نوزرات تتجه إلى عيني أمها قبل أن تنظر إلى عينيَّ.

«إنها تخشى عمل أي شيء وحدها».

بعد ذلك، فقدت الثقة بنفسها. تتابع نوزرات: «أصبحت أمي خوافّة. كانت هادئة في طفولتها. درست أمي حتى الصف السادس. الآن لم تعد تفعل شيئًا بدوني. نعتني بها مثلما نعتني بأطفالنا، صار لدينا ستة أطفال»، قالتها وهي تضع يدها على بطنها المنتفخة، «بوجود أمي صاروا ستة أطفال، إنها طفلتنا».

روجينا، شاهدتي، أصبحت ثانوية في حكايتها الخاصة.

أسألها عن طفولتها، وتخبرني روجينا أن والديها كانا ميسوري الحال. تقول إن أباها كان جزارًا، وتعيدها هذه الحقيقة إلى ذكرى زوجها. كان عندما اختُطف يبحث عن الماعز، ساعيًا إلى إقامة عمله.

حدث الاختطاف بعد ستة أشهر. نوزرات الآن في التاسعة والعشرين، وكانت وقتها ابنة عامين.

أسألها بماذا كانت تنادي زوجها، عن اسمه عندها، في محاولة مني للمس النهر الجاري بينهما، فتخبرني أنها لم تنادِ زوجها باسمه قط.

كانت تقول أشياء مثل: تعال هنا، العشاء جاهز، وهو كان يفهم من ذلك.

لا حاجة إلى الأسماء عندما يكون هناك هذا النوع من التفاهم، تبكي روجينا برفق. حدث كل ذلك في الماضي، بماذا يفيد الحكي؟ تقاطع نوزرات: «ليس من ورائها أمل يُرجى. لو سمع أبي بالحكاية وعاد، فسيكون ذلك شيئًا طيبًا، لكننا لا نتوقع حدوث ذلك. لكن هذه الحكاية ستظهر كيف أن المسلمين أيضًا تأثروا، وأن ذلك نتيجة للحرب».

تمنيت أن أعرف المزيد عن زوج روجينا، كيف كان يبدو، كي أستطيع رسمه بشكل أفضل في السرد، لكن الإكثار في السؤال سيكون قاسيًا. إنه لا يزال حيًّا بالنسبة إليها. ضياعه بمثابة نبضة مفقودة من قلبها. أحتاج إلى ختم محادثتنا.

أسألها كيف تشعر حيال إخباري بحكايتها، ونوزرات هي من تجيب وتتحدث نيابة عن كلتيهما: أنت اخترتينا لفعل ذلك، وهذا بالنسبة إلينا أمر كبير.

وتبتسمان.

نوزرات عندما تلمس ذراعي الممدودة، وتلمس أمها، تربط بيننا.

نوزرات هي من أرشدتها إليّ.

حسرة روجينا -افتقارها للملاذ بعد الخسارة- تجعل قصتها مختصرة. سردها يبتره التردد والافتقار إلى المؤشرات التاريخية التي يوفرها بقية من أقابلهم.

سردية العنف العرقي بالنسبة إليها شيء مبهم مغلف بالسجلات الشخصية: نزوح الأسرة واختفاء الزوج، الذي تشير إلى أنه اختطفه نمور التاميل. هذه الكلمة وحدها هي التي تُرسي لوحشية وهمجية الفعل.

توضح بلا لبس أن النزوح كان عاملًا محوريًّا في وقوع اختطاف زوجها، وأن افتقاره إلى المعرفة بتضاريس المكان جعلته غريبًا في المنطقة. هذا النزوح يتعلق بحادثة ضخمة يجب أن تُحكى: التطهير العرقي للمسلمين على يد نمور التاميل في الشمال والشرق.

مثلما مع كل تواريخ أفعال العنف الضخمة، يصعب إيجاد ماضٍ لأصل هذا التطهير، وتتبعه إلى المنبع الأساسي، وتتبع التطور البطيء للكراهية.

هل بدأ التطهير مع أفعال الخطف في ١٩٨٩؟ مع قتل المسلمين في بيوتهم في الليل؟ أم مع قتل ١٤٧ رجلًا وطفلًا في أغسطس ١٩٩٠ في مسجد كاتانكودي على يد كوادر تنكروا في شكل مصلين؟

أم بدأ بشكله الكامل الصريح يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٩٠، عندما أعلن نمور التاميل أن أمام مسلمي مقاطعة جفنا جميعًا ساعتين للمغادرة؟ عندما خرجت ١٤.٠٠٠ أسرة مسلمة، أي بالتقريب حوالي ٧٢.٠٠٠ شخص، منهم روجينا الحبلى وزوجها وطفلاهما، مُجبرين على النزوح من المناطق التي يسيطر عليها النمور؟

أم ربما بدأت قبل ذلك، في اليوم الذي لا يمكن أن تجد له لوحة تذكارية أبدًا، اليوم الذي جاء قبل عام تقريبًا من نكبة روجينا، ١١ يونيو ١٩٩٠، عندما اقتحم نمور التاميل مراكز الشرطة في الشمال والشرق. الرئيس، الذي كان يحاول الوصول إلى اتفاقية وقف إطلاق نار مع النمور، أصدر أمرًا مباشرًا إلى الجيش ألا يدعم رجال الشرطة المحاصرين، وأمر رجال الشرطة ألا يردوا بالمثل و«ألا يواجهوا مهما كان الثمن»، وأن عليهم بدلًا من ذلك أن يستسلموا للنمور، الذين وعدوا في المقابل بتأمين ذهابهم. هكذا عندما عصت وحدة الشرطة ٣٢٤ في كالموناي الأوامر تحت قيادة إيفان بوتيجو، وردت على اعتداء النمور -اعتداءً قويًّا بفضل الأسلحة التي وفرتها الحكومة- وقاتلت لثلاث ساعات وهي تستجدي إرسال دعم جوي، بذل الرئيس قصارى جهده لتوضيح أن لا مفر لهم من الاستسلام، وأرسل المفتش العام للشرطة إلى المنطقة ليأمر رجال الشرطة المحاربين بالتوقف، كي يستسلم في النهاية ست مئة -أم كانوا سبع مئة؟ ٧١٤؟- شرطي، وأُخذوا بعيدًا مكبلين ومقتولين، مثل «قربان حي مُقدم على طبق» في ثانديكولام (نفس المكان الذي سيضيع فيه زوج روجينا)، وتلك الكارثة لن تؤدي فقط إلى خسارة فادحة في الأرواح، بل أيضًا إلى خسارة في السيطرة الإقليمية المتزعزعة بالفعل، وتركها تحت سيطرة الكولونيل كارونا عمان

(الرجل الذي يحتقره بياسينا قارع الطبول بينما يُعاد تقديمه كرجل سلام محترم)، وقد صار أقوى وأنشط وأكثر تسليحًا وجرأة بعد هذا الانتصار السهل. هل ذلك الاستسلام الحرفي لنمور التاميل في ذلك اليوم هو اليوم الذي بدأ في تطهير المسلمين؟

أم كانت بداياته في تلك اللحظات الخالية من العنف، في خواء متاجر المسلمين، والابتسامات الساخرة والكلمات المريرة، والعيون التي تنظر بعيدًا عندما تمر امرأة محجبة؟

أرتني روجينا وثائق توضح بحثها، وبينها وجدت شهادة ميلاد زوجها.

أسألها أيضًا عن شهادة الوفاة التي ذكرتها من قبل، فتبدو مرتبكة. تقول إنها حسبت تلك هي شهادة الوفاة، كلا الشهادتين بالإنجليزية ولا تستطيع تمييزهما عن بعضهما.

تشير شهادة الميلاد إلى أن والدي زوجها كانا هنديين موريين(24) من جنوب الهند، وأن أباه كان تاجرًا هاجر إلى سيلان(25). وُلد زوجها في ٢٠ يوليو ١٩٥٦، العام الذي صدر فيه قانون اعتماد اللغة السنهالية فقط، والذي ضرب أول وتر مدوٍّ في لحن الانقسام القومي بالبلد.

زوج روجينا المفقود، الذي صدرت شهادة وفاته في غياب جسده، يمكن إيجاده الآن في ذكريات روجينا المفقودة، في إرث نوزرات، وفي النداء الدولي لمنظمة العفو الدولية الموجه إلى نمور التاميل للمطالبة بالمعاملة الآمنة للمسلمين الاثنين وثلاثين المخطوفين في جفنا، بين ١٩٨٩ و١٩٩١.

قائمة أسماء المفقودين موجودة في ملف مكتظ على شكل صفوف طويلة. ليس للقائمة أي ترتيب معين، لم يُبذل أي مجهود لرصّ الأسماء بشكل يجعل أسماء الأشخاص المفقودين في نفس الوقت والمكان قريبة. الأسماء مصطفة في خط يبدو أشبه بطابور من شواهد

القبور في مقبرة عامة. أجد اسم زوج روجينا في منتصف القائمة، يقول شاهد قبره (بنفس الاختزال والنقصان في حكي روجينا):

١٧- عبد المجيد نجيب، ٣٦، حَمّال، احتُجز في ٢٨ مايو ١٩٩١ في مقاطعة فافونيا.

∞

يوميات جفنا

٤ سبتمبر

كل موقع أثري يقع تحت مراقبة وسيطرة الجيش، بدءًا من مجمع المعابد الضخم في نالور وحتى الحصن الهولندي على حافة الجزيرة. يمشي الصيادون في مياه ضحلة تكاد تكون سرابًا، ويلقون شباكهم الخفيفة الرقيقة.

اليوم، نيل الذي كان يرشدنا ذهنيًا عبر كل الطرق الرسمية في المنطقة، ضائع تمامًا، ومبتهج لهذا.

يقول مبتسمًا: «لم أسافر في هذا الطريق من قبل».

يندفع عبر حقول البصل وأراضي القرع العسلي والقرى الخفية، عبر أماكن تصبح مألوفة على نحو غريب مربك ونحن ندور حولها للمرة الثالثة.

يقول: «إنكم تأخذونني إلى أماكن جديدة». هناك أماكن موضحة على الخريطة، مثل المنارة في بوينت بيدرو، وهناك تلك الطرق المنسية بالقرب من حيث عاشت سيركانثي وابن اختها/ ابنها رامانان. نهيم على وجوهنا في نطاق بلا لافتات ولا بشر، نمضي على أرض متدرجة، حيث الأدغال المتهامسة تطلق سراح بعض الطيور من حين إلى حين.

الأرض محروقة. نغوص أعمق في الخواء، لا يرشدنا إلا سياج لا نهائي من الأسلاك الشائكة والصمت المتنامي الذي يخبرنا بأننا دخلنا منطقة محرمة. لا شيء هنا إلا الهياكل الصامتة لخمسين بيتًا خلف السياج السلكي. بيوت مجوفة بنوافذ مفتوحة وأسقف مهشمة وجدران متداعية. حتى الريح يبدو أنها هجرت المكان، المكان الذي أتتبعه لاحقًا إلى موقع ما قريب من طريق كيريمالاى.

ننجرف عبر سكون البيوت المهشمة حتى يوقفنا خفير ويخبرنا بأننا ضللنا طريقنا. إنه حاد لكن بتهذيب. يلين عندما أذكر اسم موقع أثري بوذي قريب.

الستوبات(26) الصغيرة في كاثوروجودا تتراوح ارتفاعاتها بين ثمانية وثلاثة وعشرين قدمًا.

أحب أحجامها وبساطتها، وأحب أكثر تقاربها المتلاحم الأليف.

إنها قطع بودنج بيتية منقطة باللون الرمادي، يفصل بين كل مربع منها والآخر ممر صغير يبرز مهارة صنعة البنّائين. يقول علماء الآثار إنها مدفون فيها رهبان متأملون قبل مئات الأعوام، وإن كل ستوبا تنتصب فوق قبر، وإنه كان هناك ذات يوم ستون ستوبًا، لكن لم يتبقَ الآن إلا عشرون. ومع ذلك، ومثلما يحدث مع كل المواقع الأثرية العتيقة، ثمة تواريخ متعارضة.

«مات الرهبان من المجاعة».

«لا، بل ماتوا من أكل الكاري بالفطر المسموم، بأمر من ملك منتقم».

لكن بالنسبة إلى حكّاء، لا تعارض هناك، القصة واضحة.

الرهبان كانوا عصبة متمردة أزعجت الملك الذي أراد أن يتخلص منهم، فأطعمهم كاري بالفطر المسموم خلال زمن مجاعة حصدت أرواحًا كثيرة إلى حد يغطي على موتهم (وعلى

جريمته). أظهر الملك احتقاره للرهبان بالتغطية على البقايا بأكوام رملية صغيرة، وطعمها بالطوب واللعنات.

نتبع من هنا إرشادات عديدة إلى معبد سانجاميتا، حيث لن يعود هناك خطر فقدان الطريق. تصبح كل لافتة عالية في هذا الخواء بمثابة أمر. بُني هذا الموقع بعد الحرب لتخليد ذكرى وصول راهبة بوذية. جاءت من الهند على سفينة ومعها شتلة من الشجرة التي جلس تحتها بوذا حتى بلغ التنوير، أو هذا ما يُقال. قصة وصول الشتلة هي جزء من ماضي البلد الميثولوجي، أما المكان الذي ترجلت فيه الراهبة لأول مرة على الأرض فغير معروف بالتحديد.

غير أن اللايقين الجغرافي لم يعد ذا أهمية بعد بناء مجمع المعابد هذا، إذ يحتوي على نسخ ملونة جديرة بمدن الملاهي للراهبة الواقفة والسفينة الذهبية التي ربما أحضرتها هنا. هذه المباني تنتصب بجوار شاطئ أبيض كالسكر مُحبب إلى السياح، ومرفأ، وقاعدة بحرية مناسبة تمامًا لمراقبة الخط الساحلي والشاطئ. ويمكنك أن تطري على نفسك بالقرب من موقف السيارات من كانتين المشروبات المرطبة الذي يديره أفراد البحرية.

لا داعي إلى خوض غمار التخمين التاريخي، مراجعات السياح على الإنترنت لهذا البناء المعاصر تعتمد هذا المكان كمحل نزول الراهبة سانجاميتا. كرر شيئًا كثيرًا بما يكفي وسيبدأ في أن يصير حقيقة.

نيل يأخذ منعطفات خاطئة في المنطقة التي تعيش فيها تشيتر-اديفي، آخر من سأقابلهم، فنجد أنفسنا على الطريق المؤدي إلى جزيرة كاراينجار. الطريق الطويل سلس ومسطح مثل البحر، وتحده براعم أشجار المنجروف التي تحيط بها أنابيب بلاستيكية للحماية ومرتبة بعناية. تبدو الجزيرة مهجورة. كان ذات يوم يسكنها مجتمع صاخب من ٤٥.٠٠٠ نسمة، لكن بعد ١٧ عامًا، فقط قبل عامين من نهاية الحرب، رحل الجميع تقريبًا، لم يبقَ إلا تسعة آلاف شخص.

أعجوبة عسكرية أخرى أمامنا في المياه الضحلة: حصن هامنهيل البرتغالي المشكل على هيئة سفينة، الذي يتباهى بمنتجعه الفاخر المليء بحمامات السباحة والصالات الرياضية.

ثلاثة من أفراد البحرية يجلسون في البهو بكسل، وقد أنهكهم القيظ. قيل لنا إن طبق اليوم هو النودلز السنغافورية، وهو الوحيد المتاح. لو أن للملل وجهًا، فهو ذلك المختوم على وجوه هؤلاء الرجال المسطحة اللامبالية.

كل ما يصلنا من دفء الضيافة هنا يأتي من جندي رزين جاء ليقدم إلينا المشروبات.

يسألنا من أين جئنا، وترتسم على محياه ابتسامة عندما نجيب.

يقول إن ماتارا هي مسقط رأسه، إنه أيضًا من الجنوب، ويرحب بنا هنا.

قبل أن نذهب يلتقط منشورًا عن مميزات المنتجع: مقابل رسوم إضافية، بوسع الضيوف أن يلعبوا دور السجين، ويقضوا ليلة في أحد الزنازين الإصلاحية.

∞

نازحة داخليًا

تشيتراديفي لا تريد منا أن نلتقط أي صور فوتوجرافية أو تسجيلات فيديو. لا يجب أن تظهر أي صور لها أو لزوجها لأنها أم بنات، وذلك قد يؤثر على احتمالات زواجهن. انتظرت بصبر في الشرفة بينما أتحدث مع بقية السيدات. إنها في نفس عمر موهانامبيكاي وروجينا، وتبدو هادئة.

قصتها أنثوية بالكامل. قصة بحث عن الأمان، وهو ما يعني بالنسبة إليها الاستقرار المادي والجسدي، وبيتًا آمنًا من العنف الذكوري، فهي عليها أن تحمي ست بنات.

إنها قصة امرأة ضائعة، تُحكى في عجالة، مثل ريح بحرية تنساب بين مجموعة من البيوت المتداعية.

ثورايسينجام، زوجها المفقود، كان ابن عمها، وتعرفه منذ الولادة. كان زواجًا عن حب، وقعت في حبه عندما كانت في الخامسة عشرة. أحبته فعلًا، «لم أدرك أنه كان حبًّا إلا عندما ذكر والداي الزواج». كانت في الثامنة عشرة عندما تزوجته وكان هو في الواحدة والعشرين. «أكملت دراسة المستوى O، ولم يشجعني أحد على المتابعة للمستوى A. هكذا كانت تمضي الأمور في القرية. كنا قرويين. يعرف الناس الآن قيمة التعليم».

تتحدث تشيتراديفي بسرعة، صوتها جميل، مثل مطر خفيف على سطح معدني.

أبوها كان صياد سمك، وكانوا جميعًا جزءًا من مجتمع الصيادين. لم يكن في الأسرة إلا طفلان، هي وشقيقها الأكبر. بعدما تزوجا عاشا مع والديهما.

«بعد بضعة سنوات، انتقل والداي إلى بيت آخر وتركا لي بيتهم القديم، فأنا عندي ست بنات».

قبل الحادثة التي وقعت في ١٩٩٦ مباشرة، «ذهب زوجي للصيد كالعادة وظللت في البيت أقوم بالخياطة، كنت أوفر المال من أجل تعليم البنات، كان لدينا ما يكفينا من المال لحياتنا القروية».

بحلول عام ١٩٩٦، كانا قد أنجبا البنات الست كلهم، أكبرهن في التاسعة عشرة وأصغرهن في السابعة.

«الوضع لم يكن جيدًا في ذاك الوقت، لذا أردنا الانتقال إلى فافونيا. أخي متعلم جيدًا ويعمل معلمًا. إنه الآن محاضر في كلية كوباي لتدريب المعلمين. كان في عام ١٩٩٦ يُدرس في فافونيا، لذا انتقل إلى هناك. كان معيلنا الرئيسي، بل إنه حتى أعان والدي. لم نأخذ معنا الكثير عندما انتقلنا».

قصة تشيتراديفي عن زوجها المفقود تتحرك بدافع واحد: معاناتها من النزوح والمعركة الطويلة لتأسيس بيت.

بعد يومين أو ثلاثة من الانتقال إلى فافونيا، «قرر زوجي العودة إلى بيتنا لالتقاط بعض الأشياء، كتب مدرسة وملابس للبنات. ذهب بالقارب من فافونيا إلى جفنا، وكانت أمي تبكي وهي تطلب منه ألا يذهب عن طريق البحر. جعلت تحذرنا وتبكي طوال الوقت، كانت حتى تتشاجر معنا من السرير وتصيح بعدوانية. شعرت عندها بالخوف، وحذرته أنا أيضًا. أمي عنفته طوال الوقت، لكنه قال إن الكتب مهمة للبنات، «لست غبيًا، سأتفقد الوضع قبل أن أذهب، ولن أذهب إلا إن بدا الوضع مستقرًا»».

هل يمكنها أن تخبرني بالضبط ما الذي كان يحدث؟ «كان من الشائع أن يأخذ الجيش بعض الناس. لم نعرف متى قد يحدث هذا، قد يحدث في أي وقت. ولمَّا لم تكن هناك أي علامة فورية على وقوع هذا قريبًا، ذهب». تأخذنا تشيتراديفي معها عائدة إلى لحظة القرار الذي غير كل شيء: قرار زوجها بالعودة لاستعادة كتب المدرسة والملابس لبناته ليساعد في استمرار الحياة الطبيعية بقدر الإمكان، قرار زوجها بالمخاطرة بحياته لأجل ذلك.

ما لم تخبرني به - لكنها ستفصح عنه عما قريب - أن انتقالها إلى الحياة مع شقيقها أخذها وأسرتها مباشرة إلى معسكر لاجئين. رغبة زوجها في استعادة كتب بناته المدرسية وملابسهم تشير إلى محاولة لاستعادة بعض النظام البيتي في سياق الخسارة.

«لم يكن وحده، كان بعض من الأقارب في نفس الحال وذهبوا معه، كانوا ثلاثة غيره، وأربعتهم مفقودون. لقد سافر من مانار. خرج من المعسكر بالحافلة. رأيته يخرج من البيت. لم تكن المدارس تعمل في ذلك الوقت، لم تكن هناك إلا مدارس معسكر إيلوبيكادافاي. ظللنا نحن أيضًا في المعسكر، كنا نعيش في بيت داخل المعسكر. عشنا في مبنى مدرسة، حيث يفصل بين العائلات في الغرف أزياء الساري المعلقة. أحد الرجال الذين ذهبوا مع زوجي كان قد غادر بدون علم أمه المريضة. أراد أن يأتي بها إلى المعسكر عندما تصبح أفضل حالًا».

لا تستخدم تشيتراديفي لغة سياسية. تتحدث عن الملابس والكتب والمدارس، تتحدث عن البيت في المدرسة، وعن أزياء الساري، وعن الأقارب المرضى المتروكين. تبحث عن العادي في خضم الفوضى. الأسرة حافظت على رسوخها، ولا تزال تفعل.

«انتظرنا عودته لأسبوع، ثم تواصلنا مع ناس من قريتنا، كانوا قادمين من جفنا، نازحين. بعض الناس من قريتنا قالوا إنهم سمعوا صوت طلق ناري في البحر. لم أعرف إن كان قد أُصيب جراء ذلك أم لا. جزعت من الانتظار. بعد ثلاثة أيام، قالت ثلاث عائلات في منطقتنا إنهم سمعوا إطلاق نار في البحر. لم أستوعب أنه لم يعد موجودًا، حتى عندما سمعت ذلك. عندما أرى شخصًا يشبهه، أشعر أنه قد يكون هو».

حسرة تشيتراديفي تأخذها إلى مكان آخر.

«عملت بشكل محدود، في الحياكة وأعمال بسيطة أخرى. أخي كان المسؤول عن إعالتي. كان أكبر مني ولم يكن قد أنجب في ذلك الوقت. لم ينجب إلا بعد عشرة سنوات من زواجه. انتقلنا مرتين بعد ذلك. إنه أخ صالح».

أخ صالح، أكرر خلفها وأوافق. لكن يبدو أن هناك الكثير مما يكمن وراء هذا الصلاح عندما تخبرني عما حدث بعد ذلك.

توضح: «تزوجت ابنتي الكبرى بابن عمها عام ١٩٩٨، كان زواج عن حب. ذهب لتعيش في مكانها الخاص، مع عائلة زوجها في منطقة فيلاناي.

أغلب الناس انتقلوا إلى فيلاناي. نزحنا إلى نافالي في جزيرة فيلاناي سنة ٢٠٠٠. حصلنا هناك على بيت في أسوأ حال، اضطررنا إلى القيام بتصليحات عديدة. ثم أرسلنا بناتي إلى المدرسة بينما أعيش مع أسرة أخي. التحقت البنات بالكلية الهندوسية للبنات. عشنا في ذلك البيت المهجور الذي كان يعود إلى أسرة انتقلت إلى كولمبو. سمح لنا أقاربهم بالعيش هنا. كان بيتًا قديمًا، منحونا إياه بلا مقابل».

تتوقف، تتفكر في المكان الخاوي الذي تركه زوجها الضائع في هذا البيت الجديد. «قال الناس إنه لم يعد له وجود، وأن بقائي بهذا الشكل عبث. كانت الحكومة قد أخبرتنا أخيرًا بغلقها هذه المسألة وإعلان وفاته رسميًا. شهد الكثير من الناس وقوع الهجمات في البحر وقتما خرج فيه. لذا، بعدما أخذت كل ذلك في الاعتبار، بدأت في ٢٠٠٦ هذه الإجراءات وسجلته كمتوفٍّ، ونتيجة لهذا تلقيت ٥٠.٠٠٠ روبية، وتلقت كل ابنة ٢.٥٠٠ روبية. كنا قد تعرضنا لمعاناة مالية فائقة، لذا اقترح الجميع عليّ أن أعلن وفاته وأطالب بالمعونة المادية التي كانت تُمنح في ذلك الوقت».

نهائية الأمور كلها جعلتها تنتحب مجددًا. أم أن هناك شيئًا آخر هنا؟ شيئًا تشعر أنها غير قادرة على قوله؟

يخطر لي أنها ربما تتجنب ذكر الجانب السياسي من الحرب لأنها بالفعل أخبرت المجلس الوطني للسلام بالقصة السياسية. لم تذكر لي البحرية السريلانكية ولو مرة، لم تذكر أن مصدر إطلاق النار كما ورد في الإفادات كان دوريات البحرية التابعة للجيش. لم تخبرني بما ذكرته التقارير عن الرجال الثلاثة الذين أُخذوا من قاربهم في أثناء عبورهم البحيرة إلى قريتهم. تلك قصة قديمة حكتها من قبل.

لكن التفاصيل التي تقدمها الآن، وفرة المشاكل المنزلية التي تمتلئ بها قصتها، تخبرني بشيء آخر. تتحدث تشيتراديفي عبر دموعها، تركض بين حشد من الحقائق العائلية. يتضح من التفاصيل أن هناك نزوحًا آخر -وعلى الأرجح نزوح أخير - متعلق بشيء شخصي أكثر مما عداه.

هذا النزوح كان إخلاء قسريًا من نوع ما، وأكثر إيلامًا مما عداه لأنه كان بسبب من داخل بيت العائلة. حكي تشيتراديفي غير مباشر. تكمن القصة في النهر غير المرئي الذي يجري فوق حجارة الحقائق.

«ثلاثة من البنات الآن متزوجات. تزوجت ابنتي الأكبر بابن عم لها، وعندما عادا إلى بيتهم وجداه مقصوفًا ومهشمًا. منحتهم الحكومة ٢٥٠.٠٠٠ روبية تعويضًا، أخذهم زوج ابنتي وقال إنه سيصلح البيت. ولما كان لم يأخذ مهرًا، كان بحاجة إلى المال، توقفت عملية الإصلاح، واضطرت بقية الأسرة إلى الانتقال إلى بيت أخي».

يشق عليها، إن لم يكن يستحيل، أن تتحدث بما وقع حقًّا. فتعود إلى الحقائق العامة المعروفة، ويتعين عليّ أن أقرأ الحقائق الخاصة بين السطور بقدر ما أستطيع.

«انتقل أخي إلى منطقة كولمبوثوراي. ثلاثة من بناتي كنّ متزوجات. ابنتي الثانية أيضًا تزوجت عن حب، زوجها لم يرغب في مهر. لم نستطع إقامة عرس مناسب، لكنهم جاءوا وأخذوها بشكل احتفالي. عملت التالية في التدريس، وكان بمساعدتها، وبالقروض التي استطاعت أن تحصل عليها، أن استطعت دفع المهر وتكاليف الابنتين الأكبر. وأخي أيضًا ساعدني، إحدى البنات عمرها واحد وثلاثون عامًا، وتقدم إليها خاطب من بلد أجنبية. نحاول ترتيب الأمور لها».

من كتب المدرسة وإصلاحات البيت إلى مهر البنات. قائمة مسؤوليات الأسرة على عاتقها تتفاقم.

الارتياح من أن زوج ابنتها الثانية لم يرد مهرًا لم يظهر في صوتها. لا يمكن إلا أن نستنتج أن زوج ابنتها الآخر طالب بحقه في بيتها على أساس أنه لم يأخذ مهرًا. المجهود الذي تبذله لتبرئته لا يفيد إلا في إبراز مزيد من الصراعات التي تمزق حياتها.

«زوج ابنتي لا ينفك يطلب مني القدوم والحياة معهم. لكن ثمة احتياج إلى إصلاح هذا البيت أيضًا. حتى لو أردنا إصلاح البيت بكل ما لدينا، فعلينا أن نكون واعين أيضًا بزواج البنات والمهور. إننا نُسير أمورنا في بيت أخي، وهو بيت متضرر أيضًا ويفتقر إلى المرافق الأساسية. ليس في طاقتنا إصلاحه. وفرت بعض المال لزواج البنتين التاليتين. وهذا المكان ليس آمنًا. ليس في عائلتنا أي ذكور تعيش معنا، طلبت المساعدة من أخي أكثر من

غيره لأن ليس في أسرتنا ذكر يعيننا. لقد منحت بيتي لابنتي الكبرى، وزوجها يطلب مني أن أعيش معهم. لكن كيف لي أن أفعل؟ لا أستطيع أن أترك البنتين الباقيتين».

لم تتحدث أيٌّ ممن قابلتهن عن خطر العنف الجنسي، لكنهن لسن بحاجة إلى الحديث عنه، إنه جزء من الحرب. تشيتراديفي تأخذني معها إلى مأزقها، إلى رحلتها للبحث عن بيت لبناتها بينما هي منبوذة من بقية الأسرة.

«عائلة أخي كانت معترضة على إعانتي. زوجته كانت طيبة وساعدت بناتي رغم أنها كانت مريضة. أود أن أبقى في بيتي، لكني لا أستطيع أن أفعل. لم تنتهِ بعد قسمتنا من النزوح».

يتداعى صوتها عندما تعود إليها صورة زوجها، دعامة حياتها الأساسية. «كان شخصًا طيبًا. لا يزال يزورني في أحلامي حتى الآن. يجدد هذا أملي أنه موجود في مكان ما».

تصعقني معاناتها لتربية ست بنات وهي أم مستقلة، والمعاناة التي واجهتها، والوصمات التي عانت منها. أسألها عن كيف استقبل زوجها واقع أنه أب لكل تلك البنات؟

«قلقت من إنجابي لبنات فقط، ومن أنني ليس لديَّ ابن. كان يطمئنني دومًا ويقول «لا تقلقي، أزواجهن قادمون». رأيت أمنيته تتحقق لبناتي الأربع الأكبر، أتمنى أن يحدث المثل لآخر اثنتين. لا أريد إلا رؤيتهن جميعًا مستقرات، ثم الذهاب وحدي والعيش في سلام في بيتي الخاص. الحكومة تقدم معونات مادية إلى العائلات، لكنهم لا يقدمون معونة إلى عائلتي لأن ابنتي، المعلمة، موظفة حكومية. ذلك سبب آخر لمعاناتنا، لا أستطيع أخذ معونة من الحكومة. عليهم أن يساعدوا الناس طبقًا لأوضاعهم الخاصة. يمنعون عنا المساعدة لأن ابنتنا موظفة حكومية».

تقول إن تلك هي الرسالة التي تريدني أن أحملها للعالم الخارجي: «الأساليب الجاهلة التي يتبعها من يحاولون مساعدتنا».

عندما أسألها إن كان إيمانها ساعدها، تحيد عيناها عني وتستقر على يديها.

«أؤمن ببناتي، هذا هو محل إيماني. ونعم، عندي إيمان كبير بالرب. لا زلت أذهب إلى المعابد وأقرا في الكتب المقدسة وأستمر في الثقة. أكتب «سري راما جايام»(27)، وأرددها بينما أكتبها. يهدئ هذا من روعي، ووجدت فيه العزاء».

تسحب من حقيبتها كتابًا أخضر على غلافه الخارجي صورة للرب الرضيع كريشنا، مبتسمًا مبتهجًا، ترفع الكتاب بين يديها وكأن يديها جزء من الكتاب.

«أنا الآن أعاني من أمراض أصابتني نتيجة للضغوط، لذا أهدئ نفسي. أريد أن أعيش لأعوام قليلة أخرى، لذا أكتب لأظل هادئة. عندي ابنتان أخيريان أود رؤيتهما متزوجات، بعدها لا يهمني إن رحلت عن العالم».

سري راما جيام -اسم المقدس- هي التسبيحة التي تمنحها السلام.

أسألها عن الحاضر، عن نفسها، وعما تفعله لتمضية الوقت. تخبرني أنها تقرأ الصحف وتحل الكلمات المتقاطعة، وأحيانًا ما تفوز بالجوائز. «أنا متمكنة من اللغة التاميلية، وقارئة، القراءة تريحني. أحب القراءة عن الأحداث الجارية والمقالات القصيرة عن الطبخ والصحة».

هل ساعدك مشاركتك قصتك؟

«نعم، أشعر بالخفة وراحة القلب، أود أن أحكي ذلك لشخص مهم. نحتاج إلى شخص يصغي. لم أخبر أي شخص بذلك من قبل. الكلام يريح».

∞

(21) بحسب العقيدة المسيحية، لعازر هو الشخص الذي أحياه المسيح من الموت. [المترجم]

(22) خال باللغة التاميلية. [المترجم]

(23) Idiyappam أو stringhoppers: نوع من المكرونة تُحضر بدقيق الأرز، يعود أصلها إلى الهند وسريلانكا. [المترجم]

(24) هنود موريون Indian Moors: اسم يُطلق على مجموعة من سكان سريلانكا المسلمين، التي تعود جذورها إلى الهند في فترة الاستعمار البريطاني. [المترجم]

(25) سيلان: الاسم القديم لسريلانكا. [المترجم]

(26) الستوبا Stupa: مبانٍ مقدسة على شكل ربوة أو نصف كرة، تستخدم كأماكن للعبادة والتأمل في الديانة البوذية، وكلمة ستوبا تعني ركام رملي. [المترجم]

(27) sriramajaya: تسبيح هندوسي شائع، يُمارس بالكتابة، ويعني حرفيًّا «المجد للرب راما». [المترجم]

أحجار الذكريات

قبل العودة إلى كولمبو، نتوقف في هابارانا، وهي مدينة مغبرة مترعة بالمنتجعات الفاخرة المرفهة مترامية الأطراف منها يزور السياح المواقع الأثرية، وفيها حديقة قومية تجول فيها الأفيال. أقمت ذات مرة من قبل في مثل تلك المنتجعات، برفقة والديَّ، ولاحقًا مع زوجي وأطفالي. لكن الأمر هذه المرة مختلف، أود أن أكون وحيدة، سأقضي الليلة في مجمع متواضع من خمس مساكن، في كابينة خشبية عالية تخرج من شجرة إلى مظلة من أوراق الشجر القاتمة. يقع المجمع على مسافة غير قصيرة من المدينة، يختبئ داخل أيكة كثيفة. يحتاج نيل إلى نصف ساعة، ويحتاج زوجي إلى عدة مكالمات هاتفية، ليجدا الطريق الطويل المحفّر.

لا يزال المساء في أوله، ورائحة الكاري المقلي تأتي من مطبخ بعيد على ظهر الهواء. يحطّ طائر أقطروس ذهبي على الشرفة حيث أجلس. فرقة من قرود المكاك تخترق تشابك الأشجار وتمشي بالتوازي مع أسلاك التلغراف، وتتوقف أحيانًا لتجلس وتتأمل المشهد... الغيوم مسفوعة يتراوح لونها بين الأحمر والفضي، ويمتد في الأسفل حوض مياه قاتم. أشعر وكأني خفية تقريبًا وأنا جالسة هنا في ظل الأوراق المتلألئة. أي حركة مفاجئة ستبعثر القرود وسيختفي الأقطروس في خضار المشهد. لو أني رفعت ذراعي فقد أتمكن من طرد البعوضة عن وجهي، لكني بهذا سأكسر أيضًا السكون الضروري لاستيعاب القصص التي تنسكب من بين يدي.

لقد خرجت في رحلة طويلة بحزمة من الأوراق والخرائط المرتجلة. جلبت معي أدوات بسيطة للإبحار في المجهول؛ كانت هناك التقارير المختصرة وسِيَر الأشخاص، وقاموس للكلمات الصعبة، وأوراق أكاديمية وأسماء وأرقام هواتف وعناوين، ومسارات السفر المُعلمَة بملصقات، ودوائر حبر تشبه ثقوب طلقات الرصاص تشير إلى المقابر الجماعية التي عُثر عليها، بل إنه كانت هناك حتى قائمة بالمقابر الضائعة للمقاتلين الراحلين وضعتها على

عجالة، وقد حسبت أني قد أسعى وراء ماضٍ آخر، خفي ومدفون. وكانت هناك تلك الذكريات التي حلت فجأة بلا دعوة مثل انهيار صخري وأنا على الطرق التي قطعتها من قبل. كل هذه الأشياء شكلت بوصلتي المشتركة، هذا كل ما احتجت إلى أن أجلبه معي. غير أني على طول الطريق، انضم إليّ آخرون: موجو وشانتا والأب بول وسامانثا، والمنسقون في ماتارا وكاندي وباتي وجفنا، وحتى نيل، وديلان مضيفنا في جفنا... كلهم كانوا أساسيين في تحقيق الهدف. وسأسعى في إنجلترا لإيجاد مترجمين لسماع الترتيل في كل كلمة مسجلة. بينما أنا جالسة هنا بين الأرض والسماء، أصبح واعية بالأصوات المتعددة التي شاركت الأشخاص الاثني عشر الذين قابلتهم؛ ضجة اللغات المتعددة، القصص المتشابكة، آلاف الأسئلة الجديدة مثل شقيق شانتا التوءم الذي اختفى ولم يُعثر عليه. زاد الاثنا عشر أضعافًا، ولا ينفكون يتزايدون.

خلقت الرحلة عبر الجزيرة طرقًا جديدة لرسم خريطة الأرض. لم تُرسم الخرائط بالملحوظات أو بالكارتوجرافيا، بل بالكلمة المنطوقة وسرديات الأشخاص الذين قابلتهم. ذلك كان مسعى خلف شيء مراوغ وغير ملموس، مسعى لاستعادة العامل الإنساني في قصص وُثقت على هيئة قضايا ضاعت منها حقوق الإنسان. التمست أحداثًا عبر الندوب التي تركتها على الأشخاص، وأشخاص انتظروا بصبر فرصة للحديث ولمن ينصت إليهم، أشخاص جاءوا بصور ووثائق أحبائهم للتدليل على أنهم كانوا موجودين وأحياء.

عثرت على المختفين والمتوفين في الذكريات والصور والصلوات، في الدعوات إلى الانتقام، في الجمل التي تُختتم بالصمت، في لمعان العيون، في المسافة بين الجلوس والقيام التي علق فيها ابن فاديفيل المُعذب. مهمتي هي: ترجمة تلك الحقائق لإظهار الطرق المتعددة التي بحث بها كل شخص، وإعطاء معنى لما تبدو أنها أحداث بلا معنى. مهمتي هي: استحضار وإبراز كل شخص يحمل شهادة، ومعهم أحباؤهم المفقودون الذين يحملونهم بداخلهم.

والسرديات المنبثقة على طول الطريق، تتمزق وتتشقق مع الزمن، تتمزق وتتشقق بهذا الاسترجاع المتعدد للمتحدث والموضوع بواسطة أصوات مختلفة: صوت المتحدث وصوت موجو وصوتي. هل ذكريات الناس هي ما تحملهم أم هم من يحملون ذكرياتهم؟ يصعب التحديد. كل ما أعرفه هو أن الماضي المثقل بالذكريات يعود بعشوائية وفوضى عند الحكي، يعود ممزقًا، شظايا حادة جارحة.

أحجار الذكريات تجرح الألسنة، تكسر السرد، لكن في غياب شواهد القبور، لا أملك غيرها لأبني هذا الكتاب.

الغيوم تتلاشى، الغيوم حولي تتخثر والظلام يمتد. سكون المساء يفسح المجال لصخب نداءات الحشرات غير المرئية التي تُكهرب الهواء.

مصباح معتم يتدلى من السقف الخشبي كقمر أصفر يجتذب نوره الوزغ سريع الحركة ولكن لا يكفيني لرؤية ما بين يديَّ. في الظلام المتنامي، معلقة بين الأرض والسماء، تحتشد أحجار الذكريات، وتلقي بضوئها الخاص.

أبدأ في رؤية كل وجه، كل صوت، كل متحدث في رحلتي، وأرى كيف نسج كل منهم الماضي بطريقته الخاصة. سافر كل منهم عشرة أو عشرين أو ثلاثين عامًا أو أكثر، انطلقوا في رحلات يسافرها بعضهم كل يوم. رسم كل منهم خريطة للبلد. صنع كل منهم طرقه للفهم. رتب كل منهم الماضي بطرق تكشف عن تاريخ مترنح يتقاطع مع الأرض. حدث ذلك في هذا الوقت، هنا. ذهبت إلى الشرطة. ذهبت إلى المستشفى. ثم بحثت. كنت أكثر خوفًا من الذهاب إلى الشرطة. سافرت. انتقلت من البيت. بحثت مجددًا. وجدت شخصًا، هنا. انتقلت إلى مكان آخر. قيل لي أن أسأل في ذاك المكان. لم يقولوا لي شيئًا. انتقلت إلى هناك وعدت مجددًا.

وجد كل منهم نظامًا جديدًا، وأعاد ترتيب الأرض. لتفهم هذا عليك أن تفهم ذاك. حدث ذلك قبلها، لا أستطيع أن أتذكر متى بالضبط. ها هو تاريخي، مهشمًا. تلك خريطة الأرض،

ممزقة. ذاك هو التاريخ الحقيقي، غير المكتوب، ولن يُكتب. مع ذلك، هكذا حدثت الأشياء، في شظايا. هذا أنا وتلك عائلتي، ممزقون.

هناك بياسينا قارع الطبول، وكارت ويساك سوجاثا. ارفع تلك الصخرة عن الطريق، هشم النافذة التي تراها هناك، دع العالم يدخل.

هناك إناء أقلام تشاندريكا، وبحث نادراجاه المحموم عن عائلته، ثم عن أجسادهم، ثم عن أشلائهم. أترى العنف من الداخل؟ أترى الماضي من الخارج؟ مُلقوْن هناك، في شظايا.

هناك ابن أخت سيركانثي متعدد الأشكال، والرصاصات الثلاث المُطلقة على أفراد عائلة موهانامبيكاي. مد يدك، المس. محاجر عيون خاوية.

هناك طفولة روجينا الثانية، وتسبيحة تشيتراديفي... سري راما جايام. هذا هو تاريخ الاغتراب، هذه هي خريطة عدم الانتماء. خذ بيديك هذا التاريخ، خذ تلك الخريطة، استخدمهما لإيجاد طريقك في هذا البلد الآن.

وهذا هو الحاضر الذي جاء إليّ محمولًا على انفجار طلقة رصاص، أعود إلى اللحظة الراهنة بين الأشجار، عندما فجر أحدهم ألعاب نارية لإفزاع الحيوانات وجعلها تهرب. وبينما أنت هناك يا مدام، جالسة فوقًا في السماء، أرجوك ألا تحاولي الوصول إلى رؤية عميقة لوحشية هذه الأزمنة. نحن لا نفهمها بأكثر مما تفعلين أنت. حاولنا أن نفهم وعدنا بأيدٍ خاوية. ثمة من يفعلون الصواب وثمة من يرتكبون الأخطاء، ومن يملكون القوة لا يأبهون بكليهما.

بعض من أولئك الأقوياء مسؤولون عن محنتنا. نعلم ذلك. نعلم أسماء من يجب أن يُسألوا عما صار. صرحنا بالأسماء، لكن هذا لم يشكل أي فارق. لا تضحكي على نفسك بادعاء قدرتك على المساعدة، نحن وحدنا، نحاول عيش اليوم بيومه، نحاول وضع الطعام على موائدنا وتعليم أبنائنا. بوسعك أن تصفينا بالناجين لو تحبين، لكن ما نفعله أننا نعيش، وهذا

كل شيء. لا تبحثي عن البطولة في نجاتنا، فنحن مدينون بنجاتنا للصدفة والحظ. العنف، لو أنك تفهمين، شيء يومي. بوسعك القول إن تفاهة الشر يمكن فهمها من تفاهة النجاة. لقد نجونا وانتهى الأمر. لسنا أكثر فضيلة ولا غفرانًا ولا تفهمًا من أي شخص آخر. لا نزال نبحث، لا نزال نسعى إلى الإجابات، لا نزال نغضب ونطلب العدالة والانتقام. نتعلم أن نحب وأن نجد السلام بطريقتنا، ونستمر في عيش هذه الحياة الممزقة.

ها هم يجتمعون جميعًا كشخص واحد. علينا أن نعيد تشكيل العالم على شكل خساراته. ليس عليك إلا أن تصغي وتكتبي، اجمعي تلك الأحجار، هشميهم، افتحيهم، ارميهم لو تقدرين. هل تقدرين على فتحهم وإلقائهم إلى أبعد ما يمكنك، كي يشعر الآخرون، ويرون، ويسمعون؟

سأحاول. لقد حاولت. ها هي أحجار ذكرياتكم.

شاهدوها تطير.

∞

خاتمة

مر عامان منذ جمعت تلك القصص. عزمت حال عودتي إلى المملكة المتحدة في سبتمبر ٢٠١٨ على تفريغ الحكايات بالكتابة وفحص اللغة والمراجع، وكتابتها في شكلها الحالي. الاستغراق في الإنصات في تلك الفترة أخذني إلى مكان آخر، حيث تعيش الذكريات الفردية والجمعية، ذكريات الرحلات والأصوات. بينما أنصت إلى تلك القصص، جعلت أتذكر كيف يمكن أن تنبع قصة كاملة من لحظة صمت أو تلعثم أو ضحكة أو عرض بتناول الشاي، أو وقوع العين على أشياء تسرق لمعة المحادثة، ما جعل من لقاءاتنا الوجيزة أوقاتًا تاريخية. في خلال سبعة أشهر، أصبح الكتاب الذي بين يديك الآن كاملًا.

وخلال ذلك الوقت، والأشهر المحمومة التالية، تبدل العالم (ومعه حال أصحاب الصرخات الاثنتي عشرة). فترة الهدوء النسبي التي تنقلت خلالها في الصيف، تفتتت مع فوران عنف جديد واضطرابات جديدة، وحروب جديدة غير رسمية. بهذا باتت كتابتي الآن تعكس فترة سكون بين أنظمة استبدادية عرقية. بدأ هذا الكتاب في فترة من التيه وعدم اليقين، وشهد على زمن مهم؛ شهد على روابط بين المختلفين في الأعراق والأديان عندما تعمقت تلك الاختلافات مجددًا، شهد على الحقيقة والعدالة التي تُقمع حاليًا بلا رحمة، شهد على فترة من الأمل الذي أمسى الآن حلمًا بعيد المنال، وشهد فوق كل شيء على الشجاعة الفردية التي أصبحت الآن مهددة.

التهديد الحالي للصحافيين ومن يجهرون بالسؤال عن المفقودين والمختفين، يعني أن القصص المجموعة في اثنتي عشرة صرخة من الوطن صارت من المستحيل تقريبًا إيجادها وسماعها وكتابتها اليوم. العدالة كلمة تقع خارج المعجم السياسي لبلدي الصغير. مثلما قالت سانديا إكناليجودا -الحائزة على جائزة من الأمم المتحدة، وزوجة/ أرملة لصحفي مختفٍ- في أواخر ٢٠١٨: «الخوف يعود من جديد». وتقول الآن ببساطة إن الصحفيين لم يعودوا يتحدثون معها.

التالي هو ملخص وجيز للحروب غير الرسمية التي تبعت الانتهاء من الكتاب، ما يلقي بعض الضوء على الاختلاف بين وقت الكتابة ويومنا الحالي، وعلى السرعة التي وقعت بها تلك الأحداث (التي انسلت من بين أيدينا كما تنسل المياه)، وعلى الحاجة إلى تسجيل هذه الأحداث الضخمة قبل أن تصبح هي أيضًا شفرات تاريخية تفتقر إلى المحتوى البشري والتكلفة الإنسانية.

∞

الحرب الأولى كانت حربًا برلمانية، بدأت بعد أسبوعين فقط من عودتي إلى إنجلترا. يوم ٢١ أكتوبر ٢٠١٨، تحول الصراع الطويل القائم بين الرئيس ورئيس الوزراء إلى أزمة دستورية، عندما عين الرئيس رئيسًا جديدًا للوزراء: القائد الحربي السابق ماهيندا راجاباكسا، في المقابل ظل رئيس الوزراء القديم محتلًّا لمنصبه ورفض التنحي.

فجأة أصبح البلد يواجه رئيسي وزراء متنافسين يتنازعان على الشرعية، والانشقاق، وادعاءات بأخذ رشًا، وتحلل للبرلمان، وانحدار اقتصادي حاد. اندلع العنف في غرف المناظرة البرلمانية، أُلقيت الكراسي ورُش رذاذ الفلفل وسُحبت النصال وتبودلت اللكمات، وبثّ التليفزيون كل ذلك أمام الشعب الذي شاهد بتعجب هذا الشجار المفتوح بين من انتخبوهم ليقودوهم إلى المصالحة والسلام.

وسط فوضى هذا الصراع السياسي، وخلال هذا الفراغ في السلطة، وعندما نزل متظاهرون سلميون إلى الشوارع، حدثت زلة أمنية كارثية -وإجرامية بلا شك- أوصلت سريلانكا إلى حافة حرب أكثر خطورة. في يوم أحد الفصح عام ٢٠١٩، بينما كنت أكتب آخر صفحات الكتاب، وقعت تفجيرات انتحارية منسقة بواسطة سريلانكيين تعهدوا بالولاء لداعش (وهو هجوم حذر منه من قبل مسلمون سريلانكيون ووكالات تخابر هندية ليس أقل من سبعة وتسعين مرة) قُتل المئات في الكنائس والفنادق ذات الخمس نجوم. الضحايا كانوا مسيحيين وسياحًا وأطفالًا يحضرون مدرسة يوم الأحد. الرقم الأولي للضحايا الذي

أُعلن ريثما لا يزال عمال الطوارئ يشقون طريقهم بين الحطام كان ٣٥٩ وفاة، ثم تراجع الرقم فيما بعد إلى ٢٦٩. تحليل الحمض النووي حدد هويات الأشلاء، وجُمعت أطراف الناس معًا، عادوا إلى شكل يشبه الكائنات البشرية كي يتمكن الأحياء من البكاء بجوار تابوت له معنى، بجوار جثة شخص. قوات الأمن مشطت مدن المسلمين بحثًا عن المتآمرين والمتفجرات. فكرت في ريفايدين، أول من قابلتهم، وروجينا، واحدة من الأخيرين. على الأرجح يسيطر عليهم ذلك الرعب الجديد، ويستحيل أن يتحدثوا عن مصابهم الآن.

سمعت من أصدقاء خسروا أحباء لهم، وتذكرت قولًا شائعًا عند أفراد العائلات خلال الحرب الأهلية الطويلة، بينما يقوى الإرهاب الإسلامي في العالم: «المسلمون عندنا طيبون، لن يحدث هنا شيء كهذا». كنت أكتب الصفحات الأخيرة وأنا أنظر من نافذة على عالم مختلف، أبني الروابط بين البيوت التي يُعاش فيها وتلك التي في الذاكرة.

في خضم التهديد الإرهابي الجديد، ظهرت أصوات عالية تنادي بقائد قوي، بـ«هتلر» مثلما قال كاهن بوذي كبير. لم تطالب الجموع بالدماء أو بالانتقام، بل بالأمن والسلطوية والقوة العسكرية لإعادة الأقليات إلى أماكنهم. جوتابايا راجاباكسا، وزير الدفاع القاسي السابق الذي أنهى الحرب الأهلية بثمن بشري فادح، الرجل الذي تحت إمرته أصبحت الاختفاءات قسرية للصحافيين والمدنيين التاميليين روتينية، كان هذا النوع من الرجال.

بحلول وقت اندلاع الحرب الثالثة على شاكلة الصراع ضد وباء عالمي، لم تكن سريلانكا فقط جاهزة لحشد قواتها الأمنية لفرض الحجر الصحي وتتبع واقتفاء وحماية شعبها من فيروس كورونا، بل كانت جاهزة أيضًا لسيطرة القوات الأمنية وإبطال القانون الذي هو الطبقة الأساسية من أي حكم شرعي.

عندما عاد ماهيندا راجاباكسا، شقيق جوتابايا، رئيسًا جديدًا للوزراء بانتخابات عامة في يوليو ٢٠٢٠، دارت عجلة التاريخ دورة كاملة. عاد البلد تحت سيطرة من يراهم العديدون -ومنهم بالتأكيد الكثير من مجتمع حقوق الإنسان - مجرمين منتخبين[28].

اكتسب كتاب «اثنتا عشرة صرخة من الوطن» ثقله من أقسى الأسباب. لم يكن من الممكن كتابته اليوم، لم يمكن من الممكن حتى بأن نحلم به اليوم. من يجرؤ على التذكر، من يجرؤ على التفكير في الحقيقة على نحو مخالف، من يجرؤ تحت وطأة ذكريات تعتبر القائد الذي يدعي بلا مبالاة أن «كل المختفين ماتوا» و«لم يُختطف في الشاحنات البيضاء إلا المجرمون» هو المسؤول، يتعرض للتهديد والتخويف والإسكات. هذا كتاب صغير يحمل نبضة هائلة من بلد يقع على حافة الخريطة الجيوسياسية، عن أناس يعيشون على هامش الازدهار التاريخ المدوي، عن قلة تجرؤوا –لوهلة- على النهوض والصياح. إنه يحمل وصية زمن كانت فيه الذاكرة حرة للتحدث، وستتحدث مجددًا.

أغسطس ٢٠٢٠

ريفايدين

داهاناياكي

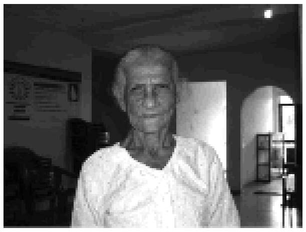

كاروناواثي

بياسينا

محادثة كاندي

سوجاثا وتشاندريكا

فاديفيل

موهانامبيكاي

نادراجاه

سيركانثي

روجينا

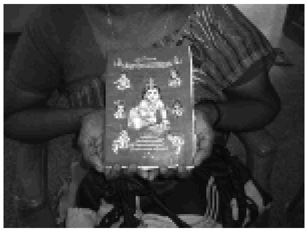

كتاب تسابيح تشيتراديفي

(28) وأثناء ترجمة هذا الكتاب إلى العربية، اشتعل صراع سريلانكي جديد، لكنه ليس لأسباب عرقية أو سلطوية هذه المرة، وإنما ببساطة بسبب تراجع الحالة الاقتصادية المستمرة في سريلانكا منذ ٢٠١٩، وتفاقم الديون الخارجية إلى حد غير مسبوق، ونقص العملة الأجنبية هناك بدرجة حادة، أدخلت الشعب السريلانكي في أزمة اقتصادية من أسوأ

ما يكون في العالم المعاصر، وأعلنت الدولة إفلاسها (أو للدقة عجزها عن سداد الديون) في مايو ٢٠٢٢. ألقى الشعب السريلانكي باللوم على الشقيقين راجاباكسا (الرئيس ورئيس الوزراء)، واتهموهما بسوء إدارة الملف الاقتصادي إلى درجة أدت إلى الأزمة الحالية. واشتعل الغضب الشعبي وخرج المتظاهرون إلى الشوارع، حتى أنهم اقتحموا القصر الرئاسي السريلانكي نفسه، في الوقت الذي فر فيه الرئيس في طائرة خاصة إلى جزر المالديف. أعلن الرئيس جوتابايا راجاباكسا استقالته يوم ١٣ يوليو ٢٠٢٢، وهو بالصدفة يوم إتمام المراجعة النهائية لترجمة هذا الكتاب. [المترجم]

شكر وعرفان

هذا الكتاب كان مغامرة تعاونية. شكري وامتناني لأشخاص كثيرين من سريلانكا وإنجلترا، البلدين اللذين أعتبرهما وطنيَّ، ومن مؤسسات متعددة، كبيرة وصغيرة، وشكري للناس الذين جاءوا لرؤيتي، أحيانًا مسافرين مسافات طويلة، من مدن وقرى على طول وعرض الجزيرة، ما جعلني أدرك كم كنت محظوظة لكون زيارتي وقعت في زمن ذلك الهدوء النسبي.

كان من المستحيل عليَّ خوض هذه الرحلة دون دعم د. جِهان بريرا من مجلس السلام الوطني بسريلانكا، الذي ساعدني على التخطيط للرحلة وطمأنني بتوضيحه أنه ربما لن يحدث كل شيء مضبوطًا «كدقات الساعة»، لكن كل شيء سيحدث في النهاية. وهو ما حدث. من الذين ساعدوني شون دارسي، الذي رافقني طوال الرحلة، والذي دون مساعدته كانت الرحلة لتصبح متاهة من الانعطافات الخاطئة الفوضوية، وموجونثيني فيشفالينجام، وشانتا باثيرانا، ودابليو. دابليو. ويلالا، وجاميني جايويرا، وأر. مانهاران، وسري وهانسان. ومن ساعدوا في التأكد من أن الكلمات المنطوقة نُقلت كما ينبغي يتضمنون مادهوشالا سيناراتني في المملكة المتحدة، وإي. بي. في راسينجام في سريلانكا اللذين ترجما أيضًا خطاب موهانامبيكاي.

والذين ساعدوني في إيجاد محور ارتكازي خلال البحث عن المفقودين يتضمنون روشان سالغادو دارسي، الذي جمع لي عدة خرائط أصلية بما فيها واحدة لمواقع المقابر الجماعية التي تعود إلى الحرب الموجودة في بداية هذا الكتاب (وهي خريطة سريعة الزوال كالذاكرة، كل يوم تُكتشف مواقع جديدة ويتضح خطأ آخرين)، والأب بول ساتكوناياجام. أنا مدينة لكم جميعًا.

أود أيضًا شكر مدرسة الإنجليز وجامعة ساسكس وليفرهولم ترست، الذين كافؤوني بزمالة بحثية، لتوفر لي الوقت والموارد المطلوبة لخوض البحث من أجل هذا الكتاب، وطارق جودارد من ريبيتر بوكس على دعمه الهائل، والذي عمل مع جوش ترنر وإيلي بوتس على أن يُنشر هذا الكتاب بلا مزيد من التأخير.

والشكر لأصحاب النصوص التالية:

an abridged version of Vadivel's story was presented at the symposium, "'We Ourselves Speak a Language That Is Foreign: One Hundred Years of Freud's Uncanny", held at the University of Sussex in 2019 and appears as "Vadivel's Body" in a special issue of the Oxford Literary Review, vol. 42, no. 2 (2020) edited by Nicholas Royle; the article cited on p. 3 can be found in The Guardian, 10 March 2009; the passage in italics on p. 91 comes from Sri Lanka: Torture in Custody Amnesty Report, June 1990; words cited on p. 182 are drawn from Tassie Seneviratne's account of President Premadasa's role in the LTTE massacre of 600 police to the Lessons Learnt and Reconciliation Commission in early 2011.

أخيرًا وقبل الجميع، كامل تقديري وامتناني للاثني عشر الذين وثقوا بي من أجل حكي قصصهم: محمد ريفايدين، داهاناياكي، لانداج كاروناواثي، تي. دي. بياسينا، سوجاثا ساماراسيكرا، تشاندريك اراناويرا، كي. موهانامبيكاي، فاديفيل ساثاسيفام، كي. نادراجاه، كي. سيركانثي، إيه. إم. إن. روجينا، تي. تشيتراديفي. هذا هو كتابكم.

عن المؤلفة:

مينو لي سالغادو: بروفيـسور في الكتـابة العالـميـة بجامعة مانشستر ميتروبوليتان، ودرست لأعوام عديدة في جامعة ساسكس.

كتب أخرى لمينو لي سالغادو:

- A Little Dust on the Eyes.

- Broken Jaw.

- Writing Sri Lanka: Literature, Resistance and the Politics of Place.

عن المترجم:

محمد أ. جمال: مترجم وروائي مصري، وُلد عام ١٩٩٢.

صدرت له روايتان: «كتاب خيبة الأمل» و«طيران». كما صدرت له ترجمات لعدد من الكتب الإنجليزية، منها «البطل بألف وجه» - جوزيف كامبل، «إفطار الأبطال» - كورت فونيجت، «أساطير إسكندنافية» - نيل جايمان.

1. الغلاف
2. اثنتا عشرة صرخة من الوطن
3. مقدمة
4. اثنتا عشرة صرخة من الوطن
5. صرخة
6. ماتارا
7. كاندي
8. باتيكالوا
9. جفنا
10. أحجار الذكريات
11. خاتمة
12. شكر وعرفان